روكامبول

سجن طولون

الجزء الخامس



بونسون دو ترايل

سجن طولون

روكامبول (الجزء الخامس)

تأليف
بونسون دو ترايل

ترجمة
طانيوس عبده



سجن طولون

بونسون دو ترايل

Le Bagne de Toulon

Ponson du Terrail

رقم إيداع ٢٠١٣/٢٢٨١٢
تدمك: ٥ ٦٠٥ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ‎+ ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢‎ **فاكس:** ‎+ ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣‎
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

المحتويات

مقدمة ٧
أنطوانيت ٦٣

مقدمة

١

انتصفت الشمس في السماء ودقت الساعات مؤذِنة بحلول الظهر، فقرع جرس السجن يبشر بوقت الراحة المباحة للأشقياء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، وكان التعب الشديد قد أضنك أجسامهم فجعلوا يتراكضون إلى حيث يوجد الظل؛ لأن شمس يونيو كانت تبسط على طولون شعاعًا محرقًا، فالتجأ بعضهم إلى ظل مركب قديم العهد قد لعبت به يد التلف ولم يبق منه غير الوسط الأسفل، وجلس البعض تحت ظلال الأخشاب التي تعد لبناء المراكب، وتوسد آخرون الرمال متعرضين لحرارة الشمس المؤثرة بإزاء دار الأسلحة، وجعل آخرون يتنزهون كل اثنين معًا، فيتمشون ذهابًا وإيابًا يشملهم الهدوء، وتصوب عليهم الشمس شعاعًا لم يكترثوا له وإن كان محرقًا.

ومن عادة المسجونين أن يسمى كل منهم بنمرة خاصة، وكان الشقي الذي نمرته ١١٧ جالسًا مع آخر على انفراد، فخطر لرفيقه هذا أن يتركه ويأتي إلى الجماعة القائمين في ظل المركب القديم ليسمع القصة التي يتحدثون بها، فنظر إلى المائة وسبعة عشر فرأى عينيه تكادان تغمضان من شدة نعاسه، فقال له: إذا كنت تريد النوم فأنا أريد الذهاب إلى ظل المركب لأسمع الأخبار التي يروونها فهلم نذهب معًا، وإذا كنت تريد البقاء هنا لتمتع عينيك بلذة الرقاد فأنا أدعك تنام على شرط أننا نلعب بالورق قبل افتراقنا، فإذا غلبتني فنم مطمئنًا، وإلا فتذهب معي لنجلس مع رفاقنا في ظل المركب، ونسمع قصة الكوكوديس كما يدعوه الرفقاء.

فاستعد الاثنان للعب وأخذ ١١٧ من قبعته ورقًا للعب كان يضعه فيها على رأسه، فلعبا المرة الأولى وكان هو الرابح، ولعبا دورًا ثانيًا فربح ١١٧ أيضًا وكان بارعًا باللعب وله فيه تفنن وحيل كثيرة.

وكان الشقي الآخر في أول الدور يلوح له أنه سيكون ظافرًا فلا يلبث ١١٧ أن يقدح زناد الحيلة ويكون هو الظافر.

وبعد أن لعبا دورًا ثالثًا فرابعًا وكان الربح في جميعها لـ ١١٧، نظر إلى رفيقه قائلًا: وماذا تريد بعد ذلك؟

فكادت عين هذا الشقي تقدح شرارًا وقد تجهم وجهه الوحشي، وابتسم ابتسامة استهزاء وقال لرفيقه ١١٧: لا بأس فلنعلب أيضًا.

فلعبا دورًا جديدًا فكان فيه خاسرًا كعادته في الخسارة، فغضب عندئذ وقال: لم أعد أريد سماع قصة الكوكوديس فأنا أبقى هنا.

فترك ١١٧ الورق وتوسد الأرض واستغرق في النوم. أما هذا الشقي الذي كان الخاسر فيدعى ميلون، وهو بعد أن نام الشقي الرابح الذي لم يكن يدعوه الرفقاء إلا باسم ١١٧، جلس حائرًا يرسل أبصاره إلى الجماعة الذين تحت ظل المركب وهم جالسون في خيمة تظلهم من الشمس، ولا تزال نفسه تناجيه بالذهاب إليهم، إنما أبى ذلك بعد خسارته كما أظهر لرفيقه النائم، فجعل يلاعب نفسه بالورق الذي لديه ويجري التجارب وضروب التفنن بغاية البراعة فيها.

أما الجماعة الذين كانوا جالسين في ظل المركب فكانوا يقولون فيما بينهم: أين الكو كوديس فإنا لم نره اليوم؟

فقال أحدهم: إنه لا يحضر اليوم إلينا. وماذا ترجون من حضوره؟ وأنتم تعلمون أن كل صاحب مال لا يهمه السجن كما يهمنا نحن الفقراء، فإنه كل يوم يتعلل بعلة كاذبة ويدَعونه من أجل أمواله يذهب إلى المستشفى حيث يستريح من عناء السجن ويقيم متنعمًا وإن كانت علته كاذبة. وهكذا انطبع الناس على الظلم وقلة الإنصاف، فالفقير مظلوم حيثما كان والغني متنعم ولو كان في السجن، ولا يوجد على الأرض إنصاف حتى داخل السجون. وهكذا الكوكوديس فإن أباه مثر عظيم وهو صاحب بنك. وفي كل شهر يرسل له مائة فرنك، وقد أطلق له ناظر المستشفى الحرية فهو يذهب إلى المدينة متى شاء ويعود منها متى شاء.

فقال آخر من هؤلاء الجماعة: نعم. وقد عرفت أن امرأة جميلة من نساء باريس كانت تأتي عمدًا إلى فندق فرنسا كي تلتقي به فيه. غير أن هذه الأخبار لا تهمني مطلقًا، ولا يهمني غير أخبار أرى في نفسي ارتياحًا شديدًا إليها.

فقالوا: وما هي هذه الأخبار التي تريدها؟

– أخبار رفيقنا ١١٧.

فقالوا: إن هذه الأخبار لا يعرفها أحد منا ونحن كلنا نريد معرفتها ولا نعلم واسطة إلى ذلك، فإذا كنت تستطيع أن تعرفها فتكون أكثر منا دهاء وأطول باعًا في استطلاع الأمور الخفية.

وكان قد أتى إليهم شقي جديد فقال لهم: وكم من السنين لوجود ١١٧ في هذا السجن؟

فقالوا: عشر سنوات.

– من أين أتى؟

فقالوا: لا نعرف، فهو لا يخبر من أين أتى وما هي قصته.

فقال رجل آخر: إنه رجل عظيم أوقعه الدهر في حبائل الشقاء وهو منذ دخل هذا الليمان اتخذ ميلون رفيقًا له فلا يكلم غيره.

ولم يلبث هؤلاء الجماعة أن رفعوا أبصارهم وإذا برجل مقبل عليهم وهو يدخن سيكارة رغمًا عن مشي القوانين، ويمشي مشية المتنزه المطمئن فتأملون فإذا به الكوكوديس فبادءُوه بالتحية، فردها بصوت يدل على السرور والاطمئنان، فسأله أحدهم قائلًا: يقولون إنك كنت مريضًا فدخلت المستشفى من أجل ذلك.

– نعم إنني مريض، وقد دخلت المستشفى في صباح هذا اليوم.

فقال المجرم: ولكن يقولون أيضًا إن الطبيب لم يجد بك علة.

– كلا فذلك غير صادق فإن الطبيب من أصدقائي وقد أمر لي بالراحة والتنزه في الصباح شفاء لعلتي.

ثم قال متهكمًا: ولنفرض أن مرضي خداع وحيلة لأستريح من عمل الليمان فلم يبق لي فيه غير أربع سنوات أجتهد بأن أقصر أيام بلائها بالحيلة والخداع بادعاء الأمراض.

فقال أحدهم: هنيئًا لك فإن مدتك قد قصرت وأنت مستريح كأنك لست في ليمان فليت حظي كحظك.

فقال الكوكوديس: ولماذا لا تدبر واسطة يمكنك من الفرار فتنجو من عذابك الطويل؟

– وكيف أنجو وأنا قد فررت من هذا الليمان خمس مرات وكنت في كل مرة أُضبط وأرجع إليه، وليس ذلك إلا من قلة دهائي فلا أجد واسطة تمكنني من الاختفاء عن الحكومة، ولكن الفقر هو بلائي الوحيد فلست ابن غني لأتزيا بأزياء كثيرة تخفيني عن الحكومة ولم أضبط في المرة الأخيرة إلا بسبب سرقة رغيف من الخبز مدت الحاجة إليه يدي فضبطت وعرفت وأرجعت إلى هذا الليمان.

فقال الكوكوديس: وما هي المهنة التي كنت تتعاطاها، قبل دخول الليمان؟

– كنت قبل ذلك حوذيًّا.

– إذن أبشرك بالخير، فعندما تمضي الأربع سنوات أخرج من هذا السجن وأنت تخرج منه فرارًا، فأجعلك عندي سائقًا فلا يعرفك أحد من رجال الحكومة.

– متى مضت أربعة أعوام نفكر في ذلك ونعقد الرأي عليه، أما الآن فارْوِ لنا خبرًا من الأخبار التي تسلي همومنا.

– ماذا تريدون أن أخبركم؟ وأي خبر يسركم؟

فقال شقي باريسي: نريد قصة محزنة.

فقال آخر: أو قصة سارة، وأنت أدرى بما عندك من الأخبار التي تسر مثلنا.

– إذن أخبركم قصة تطيب لكم خطرت لي الآن. فاسمعوا: إنني أولًا كنت مع نيشات.

فقالوا: ومن هي نيشات؟

– هي المرأة التي وقعت من أجلها في شرك هذه المصيبة.

فقالوا: قد عرفناها فهي المرأة الجميلة التي في فندق فرنسا.

– نعم. وهي تهيم بي دائمًا ويحق لي أن أتزوجها.

فقال الشقي الباريسي: ما بال الكوكوديس يروي لنا قصة نحن نود منه رواية غيرها.

فقال آخر: وقصة من تريد أن يرويها الكوكوديس؟

– روكامبول.

فقال الآخران: هذا الاسم اسم لص شهير.

وبينما كان هذا الحديث جاريًا بين هؤلاء الجماعة كان ميلون رفيق ١١٧ لا يزال يلاعب نفسه بالورق و١١٧ غائص في نومه وهو يتوسد الأرض بجانب ميلون. فلما أفاق من رقاده نظر فرأى ميلون لا يزال بجانبه فقال له: ما بالك لا تزال جالسًا ألم تعد تريد سماع أخبار الكوكوديس؟

قال ميلون: إن كنت تذهب معي لسماعها فأنا أهبك في هذا المساء قسمتي من العشاء.

– فلنذهب ونسمعها معًا فإنها تسرنا كلينا.

ونهض من مكانه فنهض ميلون وطوقا وسطهما بسلاسل الحديد التي يقيدان بها ومشيا إلى ظل المركب، فانضما إلى تلك الجماعة. وكان الكوكوديس يقول حينئذ: نعم إن قصة روكامبول مما ترتاح إليه عقولكم وتعجب به قلوبكم ولا سيما أنه يوجد منها فصل رابع يقع أعظم موقع من إعجابكم.

فقال ١١٧ وقد لاحت عليه هيئة المتلهف إلى سماع هذه القصة: إذن ارْوِ لنا هذه القصة التي نعجب بها.

٢

فابتدأ الكوكوديس بالكلام، فقال: تنقسم قصة روكامبول إلى خمسة فصول يتقدمها فاتحة، وهذه الفاتحة جرت قبل ابتداء روكامبول بتمثيل الأدوار الخمسة بثلاث سنوات في بيت رجل عجوز ساذج يدعى المركيز دي شمري.

فهذا المركيز كان مثريًا عظيمًا وكان له ولد ولكنه كان مفقودًا، وقد قضى المركيز زمنًا طويلًا يظن أن هذا الولد ليس ولده.

وقد باع المركيز جميع أملاكه ولم يرد أن يورث ولده شيئًا، ولكنه لما كان قد حان أجله ولم يبق له غير ساعات على فراش الموت إذ ورد إليه كتاب من صديق قديم يدعى الدوق دي سالاندريرا.

ويظهر أن المركيز دي شمري كان يعتقد في نفسه أن الدوق دي سالاندريرا كان في قديم الزمان عاشقًا لامرأته.

فلما وصل له منه هذا الكتاب وهو على فراش الموت وجده يتضمن طلب الدوق إلى المركيز أن يتزوج ابنته أرمين لابن المركيز وهو الابن المفقود والذي يريد المركيز حرمانه من إرثه.

فزال حينئذ من نفس المركيز ما كان يتوهم من أن هذا الابن ليس ابنًا حقيقيًّا له وطلب في الحال مسجلًا ليوصي له بإرثه وليسلم هذا المسجل ثروته وأوراقه بعد أن يتعهد له بأنه يبحث عن ولده المفقود حتى يجده فيسلمه هذه الثروة التي لا تقل عن عشرة ملايين.

وقد كان يوجد في باريس، في ذلك العهد، جمعية سرية مؤلفة من جملة لصوص، ينهبون ويقتلون ويرتكبون الفظائع الخفية عن أبصار الحكومة. ولم يكن يحدث في مكان جريمة هائلة إلا كان مصدرها هذه الجمعية السرية.

وكان البوليس يجتهد في استظهار أسرار الجرائم الكثيرة. فلم يقف على أثر لهذه الجمعية الجهنمية، ولا سيما رئيسها أندريا، فلم يكن يُعلَم له سر أو يُعرَف له أثر.

فلما ذكر الكوكوديس اسم أندريا قال أحدهم متعجبًا: ومن هو أندريا فقد ناجتني نفسي بأنني كنت أعرفه؟

فقال الكوكوديس: إن كنتم تسألونني مثل هذا السؤال في كل جملة، فهيهات أن تنتهي القصة التي أرويها لكم. فما بالكم تضيعون الوقت بالأسئلة!

فقالوا: كلنا نسمع ولم نعد نسأل فارو لنا.

– إذن لنرجع إلى المركيز دي شمري. فقد دُعي إليه مسجل فلما دخل إليه أوعز إلى الخادمة، وهي امرأة عجوز، أن تخرج من الغرفة فخرجت وبقي فيها مع المركيز والخادم، وكان هذا الخادم يعرف بفلانتين عند المركيز وبفانتير عند المسجل.

فقال الجماعة متعجبين: وكيف ذلك أيدعى هذا الخادم باسمين؟

– نعم. ولا عجب من ذلك، وهذا المسجل ما هو إلا أندريا رئيس الجمعية السرية.

فصاح هؤلاء الأشقياء صيحة استحسان.

فقال الكوكوديس: وفلانتين هو أحد أعضاء الجمعية السرية أيضًا. أما المركيز دي شمري فقد قص قصته بتمامها على المسجل الكاذب وفتح له صندوق أوراقه وأراه أمواله. وبعد ذلك رجع المركيز إلى فراشه فأعانه فانتير على التوسد، وبينما المركيز يتوسد إذ قبض فانتير على المفتاح المعلق بعنقه ففكه من سلسلته وترك المركيز ينام.

وعندئذ جعل أندريا وفلانتير يهتمان بشغلهما في هذه الفرصة المغتنمة، ففتحا الصندوق وجعلا يخرجان ما فيه إلا أن الضجيج طرق أذني المركيز فانتبه إليهما وأجهد قوته في القيام وهو يصيح بهما.

فصاح الجماعة: يا لتعاسة المركيز.

فواصل الكوكوديس حديثه فقال: أما هما فانقضا عليه بعد إطفاء النور واشتغلا في قضاء أمره. وكان البيت خاليًا والظلام منسدلًا، إلا أنهما ما لبثا أن سمعا ضجيجًا شديدًا على نافذة الغرفة، وقد تكسر خشب النافذة ودخل إلى مسرح الفظاعة شاب يحتدم غضبًا، فأخرج من جيبه عودًا من الكبريت وأشعله فأضاء الغرفة فنظر الصندوق مفتوحًا وقد خلا مما كان فيه، ولم يبق له قسمة من المال الذي إنما دخل الغرفة لأجله.

وكان أندريا قد انتهى من خنق المركيز، فلما رأى الشاب واقفًا أمام الصندوق انقض عليه وألقاه على الأرض واستل خنجره يريد قتله فصاح به: مهلًا فأنا روكامبول، فكف أندريا يده.

ولما انتهى الكوكوديس إلى هذا الكلام نظر ميلون إلى ١١٧ قائلًا: كيف ترى هذه القصة؟

فابتسم هذا اللص الكبير ببرود وقال: أراها قصة جميلة. ثم تولاه السكوت ولم ينطق شيئًا.

فرجع الكوكوديس إلى تتمة حديثه فقال: قد تمت الفاتحة فابتدئ الآن بأول فصل من الخمسة. فقد كان في بلدة بلفيل مصور يدعى أرمان وكان يعلم فن التصوير لفتاة شريفة تدعى أرمين دي سالاندريرا وهي ابنة الدوق الإسباني الذي تقدم ذكره في الفاتحة.

وكان لهذا المصور صديق محامٍ، ولهذا المحام فتاة حبيبة تدعى الفيروزة كانت له في كل وقت شغلًا شاغلًا، فكان المصور كلما ذهب لتعليم تلميذته يمر في طريقه على صديقه المحامي ويتحدث معه بأحاديث الغرام، ولم يكن يخطر على قلبيهما حب باكارا، وهي امرأة جميلة كانوا يرونها في الملاعب والملاهي.

ثم إنه كان يوجد في هذه البلدة أيضًا مدام فيبار وابنة أختها سريز، ومدام فيبار هي امرأة عجوز كانت دائمًا ذات غم وهم؛ لأنها كان لها ولد يدعى جوزيف صار لصًّا كبيرًا باسم روكامبول.

ولكن مدام فيبار وإن كانت على هذه الحالة من الغموم، فإن ابنة أختها سريز كانت على جانب عظيم من المسرة والحبور؛ لأنها كانت تنتظر الزواج بشاب جميل يدعى جان وكان لديها مهر يبلغ ستمائة فرنك.

وبينما كان أرمان يتحدث مع صديقه المحامي إذ دخل إنكليزي يُدعى السير فيليام وهو يقصد أرمان ليطلعه على كنه أمر عظيم.

وكان أرمان يجهل اسمه الحقيقي وولادته، وكان عندئذ يريد الذهاب لتعليم تلميذته فلم يتمكن السير فيليام من محادثته مليًّا، فلما ذهب أرمان لقضاء واجبه تنهد الإنكليزي وقال إنه لا يعرف شيئًا.

فقال الشقي الباريسي: لقد فهمت كل شيء فإن أرمان هو ابن المركيز دي شمري المفقود.

فقال الكوكوديس: هو ذلك.

وقال الباريسي: وقد فهمت أن السير فيليام هو أندريا، رئيس الجمعية السرية.

فقال الكوكوديس بلهجة الغضب: إن كنت فهمت كل شيء فلا حاجة إلي، ارْوِ هذه القصة بدلًا مني.

فغضب الجماعة وأمروا الباريسي بالصمت ورجوا من الكوكوديس تتمة القصة فقال: وبعد ذهاب أرمان لتعليم الفتاة، وذهاب المحامي لقضاء دعاويه، لم يكن بد للإنكليزي من الذهاب أيضًا، ولكن سمع عندئذ وطأ أقدام ثم ظهرت باكارا وهي آتية لمشاهدة أرمان الذي تحبه وإن يكن لا يبالي بها؟

أما باكارا فساءها بأنها لم تر أرمان، فأودعت له كلمة عند أحد أهل ذلك البيت وذهبت لحضور السباق في فنسان يصحبها السير فيليام.

أما خطيب سيريز فذهب ليشتري لها قفازًا، وفي ساعة غيابه أتى المحامي إلى مدام فيبار فأنذرها أن ابنها روكامبول قد ارتكب سرقة عظيمة ولا ينجو من العذاب إلا إذا نقدت هذا المحامي ستمائة فرنك كي يخلصه من شر السجن.

فلما رجع جان إلى سريز وجدها كئيبة فقالت له: لم نعد نقدر على الزواج فقد نقدت المحامي مهري البالغ ستمائة فرنك ليخلص ابن خالتي من السجن ولم يعد لي مهر.

فاستغرق جان في البكاء، ثم أخرج من جيبه كتابين أحدهما من روكامبول إلى أمه مدام فيبار يخبرها بأنه مسافر إلى الهند ليتعاطى فيها تجارة تصيره غنيًّا، والآخر إلى أرمان يتضمن أنه إذا سافر إلى مرسيليا يجد فيها صديقًا من عائلته يدعى الدكتور جوردون وهو ينبئه عن اسمه الأصلي ويهديه إلى استلام ثروته.

فلما وصل هذا الكتاب إلى يد أرمان سُر سرورًا عظيمًا، بيد أن مدام فيبار أحزنها كتابها حزنًا شديدًا على فراق ولدها.

وعند هذا الكلام سمعوا جرس الليمان يقرع دلالة على انتهاء وقت الراحة وحلول وقت الشقاء.

فقام الأشقياء من مواضعهم ومشوا يجرون سلاسل الحديد وهي تقرع بعضها فترن رنين الأجراس.

أما الكوكوديس فقال لهم: هذا الفصل الأول أتممناه، وموعد الثاني غدًا إن أردتم، وأنا الآن أرجع إلى المستشفى. فسار إلى الراحة وساروا إلى الشقاء.

٣

مضى النهار فاستراح الأشقياء من عناء الأشغال المضنكة وقد حان وقت النوم، فدخلوا مكان المنامة وهناك التحفوا الأغطية التي هي من الأعشاب اليابسة وافترشوا الأعشاب في جوانب الليمان المظلمة.

ثم أمرهم الحرس بالنوم فشملتهم السكينة، إلا أن بعضهم كانوا متى رأوا الحارس قد بعد عنهم يبتدئون بالمناجاة والكلام بصوت منخفض لا يسمعه إلا المتخاطبان.

وكان ميلون ينام بجانب رفيقه ١١٧، فكان يراه في تلك الليلة على غير ما تعود أن يراه في سائر الليالي الماضية؛ لأنه كان قبل هذه الليلة لا يحين وقت النوم إلا وعيناه تكادان تغمضان، فلا يلقي رأسه على وسادته حتى يستغرق في النوم ولا يستفيق حتى الصباح. وكذلك وقت الراحة المباحة عند الظهيرة، فبينما يكون الرفاق يتبادلون الأحاديث، التي هي شكوى قلوبهم، يكون ١١٧ مستغرقًا في نومه وهو متوسد الأرض لا يهمه غير النوم.

وكان ميلون يرى في نفسه أن لرفيقه ١١٧ سيادة عليه، فكان يحترمه كثيرًا، ولما رآه في هذه الليلة قلقًا خلافًا لعادته سأله قائلًا: ما بالك أيها الرفيق أأنت مريض هذه الليلة؟

– لا لست مريضًا ولكني منشغل الفكر.

– وبماذا؟

– بما يخبره الكوكوديس.

– وأنا أيضًا قلق في هذه الليلة لأني أفتكر بهذه القصة وأنا متأكد أنها صحيحة وأن روكامبول وجد حقيقة.

– أتؤكد ذلك؟

– نعم، فقد كنت في باريس أيام اشتهرت هذه الجمعية السرية وكانت حديث الناس في كل مكان.

فقال ١١٧ متنهدًا: نعم ذلك صحيح.

فأتم ميلون حديثه بصوت منخفض وقد أدنى فمه من أذن رفيقه: إن كنت تريد فإننا نتحدث مليًّا.

– قل ما تشاء.

– إنني أيها الرفيق أعد نفسي من ذوي البلاهة لأنني لا دُرْبَةَ لي، فأنا قوي الجسم متين الساعد، ولكنني مع شدة هذه القوى أرى الولد الصغير يفتك بي بدهائه، ولا تجديني القوة شيئًا لأنني ساذج أبله، ولولا سذاجتي لما كنت أرسلت إلى هذا الليمان.

– ومن هم الذين أرسلوك إليه؟

– قلت لك إنني كنت دائمًا ساذجًا في جميع الأمور، وكان يجب علي أن أكون مترويًا متبصرًا في العواقب، ولو كنت كذلك لما تمكنوا من سلب الأولاد ولكن ربما تضجر من هذه القصة.

– كلا، فإنني لا أمل منها فارْوِها لي. ولكن قل لي قبلًا ما هي المهنة التي كنت تحترفها؟

– كنت خادمًا.

– وبماذا اتُّهمت حتى أدخلت الليمان؟

– بسرقة جواهر.

– ولماذا؟

– لأني أصررت على أن لا أقر أين يوجد مال الأولاد.

– وأي أولاد؟

– أولاد السيدة التي خدمتها.

– إذن هم الذين أدخلوك الليمان؟

فتنهد ميلون وقال: لا فليس هم، ولست أعني بالأولاد غير فتاتين في مقتبل العمر وهما توأمان ولهما اليوم من العمر عشر سنوات، ولا شك أن الشقاء ستحسهما يده القاسية.

وهنا سكت ميلون عن الكلام، فنظر إليه ١١٧ فرآه على النور الضعيف الذي لا يزال ينبعث من القناديل إلى تلك الغرفة، يمسح على خديه دموعًا سخينة.

فقال له: أتمم القصة.

فقال ميلون: وقد ظهر لي أن والدة هاتين الفتاتين تزوجت دون رضى عائلتها في وطنها لأنها لم تكن فرنسية، ولها أخوان شقيقان قد حاولا مرارًا كثيرة أن يحرماها ابنتيها.

وقد مات زوجها منذ سنين طويلة ولم يكن لها أحد تستعين به على أمر سواي، ولكني كنت كما قلت ساذجًا قليل الدُّرْبة وكانت هي لا تزال في ريعان العمر وهي جميلة للغاية.

وكانت تقول دائمًا عندما تنظر إلى ابنتيها وهما تتدرجان في النشأة، لا بد متى بلغتا الخامسة عشرة من عمرهما أن أزوجهما كي يكون لكل منهما من يصونها ويقوم بمعيشتها.

وكان لهذه السيدة ثروة عظيمة وهي تسكن في فندق قديم في سان جرمان، فكانت في كل ليلة تقفل الأبواب بكل دقة خوفًا من حادث يطرأ وتقول لي دائمًا: إنني أخاف كل الخوف من إخوتي.

وقد اتفق أن الابنتين كانتا ذات مساء تلعبان في الحديقة فسمعتا طلق مسدس ودوي رصاصة فيها فارتعبتا، ولكن لحسن الحظ لم تصبهما الرصاصة التي كانت مصوبة إلى إحداهما.

فنبهنا البوليس واجتهد في معرفة الجاني إلا أنه لم يعرف له أثرًا، واتفق مرة أخرى أن إحداهما أصيبت فجأة بعد تناول الطعام بألم الأحشاء والقيء، فدعونا الطبيب في الحال فحقق أن ذلك ناتج عن تسميم الطعام.

فعرفت هذه الأم المسكينة أنهم كانوا يريدون قتل ابنتيها بالسم، وعند ذلك أبعدتهما عن المنزل فأخذناهما سرًّا في ذات ليلة إلى أحد الأديرة، فدخلتا هذا الدير باسمين غير اسميهما الأصليين؛ لأن والدتهما أرادت أن تخفي حقيقة أمرهما.

وقد قالت لي وقت رجوعنا: إنني أعلم أنك رجل صالح وأرى أنني جديرة بالاتكال عليك وأنت تعلم أن أخوي يريدان قتل ابنتي وهما سيقتلانني لا شك عاجلًا أو آجلًا؛ ولذلك يجب أن أنظر في مستقبل ابنتي كي لا يمسهما الشقاء بعدي. قال ميلون: فكنت أصغي إليها ودمعي يهمي من شدة الإشفاق، ثم سلمتني محفظة من حديد وهي تقول لي: هذه نصف ثروتي فإن في هذه المحفظة ما يبلغ ريعه خمسة عشر ألف فرنك من ذهب وأوراق مالية فأَخفِها حيث لا يدري بها أحد، وهي مهر ابنتي الذي أعهد إليك به إذا أصبت بما أوجس خيفة منه.

فقال ١١٧: هل خبأت المال؟

– نعم قد خبأته ولا يعلم غيري أين يوجد مكانه الخفي.

فتنهد ١١٧ وأطرق وهو يفتكر.

أما ميلون فقد أتم كلامه فقال: كأن هذه السيدة المسكينة كانت تتكلم عن موتها وهي واثقة من أن أخويها سيميتانها إذ لم يمض بضعة أيام على ذلك العهد حتى ماتت مسممة.

فهب أخواها لوراثتها وكانت ابنتاها قد ولدتا في بلد غريبة ولم يكن بين يدي أوراق تثبت أنهما الوارثتان الشرعيتان.

ثم إنني كنت أخاف إن جاهرت بهما أن يعرفا بمكانهما ويحتالا بقتلهما، فاستولى الأخوان على ورثة هذه السيدة وكانا يظنان أنهما يجدان ثروة طائلة.

فلما خاب ظنهما جعلا يستخبراني وقد قال لي يومًا أحدهما: إننا نعلم أنك خبأت كمية عظيمة من مال أختنا فأتنا به ونحن نهبك قسمتك.

فأنكرتُ ذلك ولم أقر به، وبعد ثمانية أيام بينما كنت نائمًا عند منتصف الليل طرق باب غرفتي اثنان من رجال البوليس وقبضا علي بدعوى أنني سرقت جواهر السيدة المذكورة.

وكان الأخوان المذكوران قد وضعا في محفظة تخصني بعض الحلي كالأساور والخواتم الثمينة، فلما فتحها الشرطيان وجدا فيها هذه الحلي المذكورة وثبتت علي السرقة، وقد دافعت عن نفسي كثيرًا فلم أنجح وحكم علي بالليمان مدة عشر سنوات.

فقال ١١٧: فهل لا تدري شيئًا من أخبار تينك الفتاتين؟

– كلا، ولكن أظن أن هذين الشقيين لم يعلما مقرهما.

– والمال الذي خبأته؟

– ما زلت أعرف موضعه.

– لا يبعد أن يكونا قد اكتشفاه وأخذا هذه الغنيمة.

– كلا، فذلك من المحال.

– ألست تحاول الفرار من هذا الليمان؟

– قد فررت مرتين فكنت أُضبط وأرجع إليه.

فتبسم ١١٧ وقرب رأسه من رفيقه ميلون وقال له بصوت منخفض جدًّا: إن كنت تريد الفرار فأنا أجد لك واسطة سهلة.

فأجابه ميلون: وأنت؟

– وأنا أيضًا أهرب معك فهل لا تصدق أني أقدر على الفرار بأسهل طريقة؟

– لقد صدقت الآن.

– وبعد الفرار نضرب في طول الأرض وعرضها فلا يُعرف لنا أثر.

وعند ذلك أمال وجهه عن ميلون واستغرق الاثنان في النوم.

٤

لما كان اليوم التالي في وقت الظهيرة اجتمع الأشقياء كعادتهم في ظل ذلك المركب القديم وكان الكوكوديس غائبًا فلم يحضر إليهم ولم يكونوا يتذمرون من هذا الشقي، وإن كانوا يرونه ممتازًا عنهم من جهة المعاملة لأنه كان كأنه حر يغيب ويحضر متى شاء.

وكان حرس الليمان يعاملونه معاملة حسنة ويلبون طلبه في كل شيء وذلك لأنه كان من الأغنياء وكان أهله يرسلون إليه مبلغًا من المال في كل شهر فيكون للحرس النصيب الأكبر منه.

وكان الكوكوديس ينقد كل من رفاقه الأشقياء ليشتري به خمرًا فكان الجميع يحترمونه ويفرحون به ولم يكن يعرفونه إلا باسم الكوكوديس وكان كل منهم يجهل اسمه الحقيقي.

وقد كان بينهم ميلون و١١٧ فلما لم يحضر الكوكوديس جعلوا يتحدثون فقال أحدهم: إنه سعيد الحظ وأما نحن فإن الشقاء لا يفارقنا ساعة في هذا الليمان الذي هو جهنم الأرض، وإنني أنا أكثركم شقاء وتعاسة وقد بلغ من تعاستي أنني عندما دخلت هذا الليمان جيء بي إليه مقيدًا بالسلاسل وأنتم جيء بكم إليه على المركبات.

فقال أحدهم: وأنا مثلك في الشقاء وقد دخلت مكبلًا بالقيود وكان دخولي إليه على عهد تياري.

فقال آخر: ومَن هو تياري؟

– هو مأمور الليمان القديم وكان يحسن معاملتنا جدًّا فكنا نوده كثيرًا.

فقال العجوز أقدمهم عهدًا في الليمان: إنك دخلت مثلي في هذا المكان مقيدًا في ذلك العهد ولكنك لم تسم بالنار وأما أنا فإنهم يوم وسموني كنت كأنني أذوق الموت الزؤام.

ثم جعل هذا العجوز يسرح أبصاره في الجماعة الذين حوله وقال وهو يتنهد تنهد اليأس: إنني أراكم تحزنون إن لم يحضر إليكم هذا الشاب الذي تسمونه الكوكوديس، فأني أروي لكم قصتي فإذا وجدتموها أغرب من حكاياته اغتنيتم بي عنه، فلما سمعوا هذا الكلام قالوا: إذن ارْوِ لنا قصتك فإننا مصغون إليها.

فقال العجوز: إن لي من العمر تسعًا وستين سنة قضيت منها أربعةً وثلاثين عامًا في الليمان، وأنا منذ هذه المدة الطويلة شقي النفس ميت الآمال، حتى كأنني جسم بلا روح.

أتعلمون ماذا كنت في حياتي؟ فإنني كنت من أصحاب البنوكة وذا ثروة طائلة ومن عائلة شريفة، وقد تزوجت بامرأة نبيلة كنت من فرط محبتي لها كأنني أعبدها عبادة،

وقد قضيت معها عدة سنين وأنا كأنني في النعيم، إلا أن تلك السنين كانت كأنها حلمًا لم يبق له في اليقظة أثر، وقد عقبتها سنوات الشقاء التي ما زالت تتوالى علي حتى اليوم، وقد كان مفتاح باب شقائي المقامرة الوخيمة، ولولاها لم أدخل هذا الليمان؛ فإن المقامر يبدأ بخسارة مالِهِ وبعد هذا يخسر جميعَ ما لَهُ من الممتلكات، ومتى رأى يده فارغة من كل شيء يرجع إلى زوجته فيسرق ما تمتلك عليه ثم إلى أصدقائه، حتى إلى والديه فإنه يسرق مالهما ويضيعه في سبيل المقامرة.

وقد جرى لي كل ذلك حتى إنني لم أدع لامرأتي شيئًا تمتلكه، حتى إني بعت أثوابها في سوق المقامرة.

ولما خلت يدي يومًا من كل شيء ولم أر شيئًا أحصل عليه من الأقارب والأصدقاء عمدت إلى تزوير ونجحت به بواسطة بعض أصدقائي، وبعد ذلك صرت أزيف النقود وأقلد أوراق البنوكة، ولم تكن امرأتي تعلم من هذا السر شيئًا ولم تكن تدري إلا خرابنا.

وقد تركت امرأتي وانفردت في ضواحي باريس عند جدة طاعنة في السن، فكانت امرأتي تظن أنني في البلاد الأميركية أسعى وراء الثروة، فكانت تصلي دائمًا لأجل نجاحي. وبما أنه لا بد لكل ذنب من العقاب فقد ظهر سري للحكومة وقُبض علي، فأقررت بكل شيء، وكان القانون في تلك الأيام يقضي بإعدام كل مزيف، ولكن العفو الملوكي خفف عقابي فأبدل الإعدام بالأشغال الشاقة المؤبدة.

جرى كل ذلك ولا تعلم امرأتي شيئًا من أمري، وكان قد حان وقت أصبحت فيه على وشك أن تضع لي ابنًا يدخل الحياة من باب الشقاء.

وهنا سكت الشقي هنيهة كأن ذكرى بلاياه قد أعيته من الكلام، وبقي سائر الأشقاء على أتم الإصغاء كأن كلًّا منهم يتأمل بلاياه في الأيام السالفة.

ثم عاد العجوز إلى الكلام فقال متنهدًا: إنكم لم ترو السمة التي وسموني بها ولا تعلمون كيف يتم أمرها، فإنهم يعدون آلة الرسم ويأتون بالذي يراد سمته ويعلقونه بحبل يتدلى من أعلاها ويطوقون رأسه بطوق من حديد بحيث لا يستطيع الدوران، وتكون عيناه موجهتان إلى جهة الجموع الغفيرة. وبعد ذلك يأتي الجلاد ويضرم النار تحت هذا الشقي التعس حتى يكاد يشوي جسمه.

أما أنا فقد كنت عند ذلك أنظر إلى الجموع الشاخصة إلي بعين الوقاحة كأنني لا أبالي، وإذ ذاك سمعتهم ينادونني: يا صاحب البنك ورب الثروة، استهزاءً بي.

ولكنني لم أكن أتأثر من ذلك بقدر ما كنت أتأثر من ذكر امرأتي المسكينة، فقد كانت في تلك الساعة تظنني حرًّا أجمع المال، وترجو أن تراني في الأيام القريبة.

وعندما تشتد النيران يرخي الجلاد حبل الشقي فيسقط بالقرب منه ويأخذ الجلاد حينئذ حديدة محمية في النار ويسم بها الشقي في كتفه.

وبينما كنت في قبضة الجلاد وهو يسمني هذه السمة القاتلة كنت كأنني لا أشعر لم ولا أكوى بنار، وما ذلك إلا لأن أميالي وعواطفي كانت جميعها متجهة إلى جهة الحضور، وقد صحت صيحة شديدة ارتجت لها تلك الساحة وقلت للجلاد بصوت قاس جدًّا: اكوني حتى الموت. وقد رغبت في الموت من نفسي عندما وقعت أبصاري على امرأة تصيح صياح اليأس وهي على مقربة من هذه الآلة الشنيعة، وما هي إلا امرأتي التعيسة، وقد آلمني منظرها فوق آلام النار.

قال العجوز هذا وجعلت الدموع تنهمر من عينيه كالمطر وساد السكون هنيهة بين الجماعة.

ثم عاد العجوز إلى الحديث فقال: ليس هذه بحكايتي كلها فاسمعوا البقية، وجعل يمسح الدمع عن خديه ثم قال:

٥

عرفتم ما تقدم من أمر الوسم فاسمعوا ما جرى بعد ذلك فإن الشقي بعد وسمه يأتون بطوق من حديد ويطوقون به عنقه ويعلقون بهذا الطوق سلاسل الحديد الطويلة التي تثقل كاهله وتضنك جسمه، ثم تفتح أبواب الخروج من هذه الحفلة السيئة ويأخذ الجميع في الخروج وتعزف الموسيقى بألحان الحزن وقت خروج المذنب كأنها تندب حظه وأيام عمره، وبالحقيقة إن ما يفعل به الجلاد لا يؤثر عليه كما تؤثر رؤيته لتلك الجموع الغفيرة المحتشدة من أغنياء وفقراء ونساء وصبيان، ويكونون كلهم عيونًا تنظر إلى هذا المذنب من كل جانب وأيدي تشير إليه وألسنة تذمه بكل كلمة فتشق جدًّا رؤيتهم حوله على هذه الشاكلة التي تريعه.

ولما خرجوا بي من تلك الحفلة حيث وسموني تلك الوسمة المشئومة، رأيت شرذمة من الجنود تنتظر خروجي على الباب لتذهب بي إلى الليمان، فسار بي هؤلاء الجنود، ولكن ليس على طريق برست، بل على طريق طولون، فممرنا فونتنابلو على بلدة شوزي لاروا، وفي البلدة التي دفنت فيها امرأتي التعيسة، وقد كان ذلك بفصل الصيف في شهر أغسطس.

ولما وصل بي الجنود إلى هذه البلدة كانت الساعة السادسة من الصباح، فلم نكد نسير فيها قليلًا حتى رأينا أهلها يحتفلون بجنازة وهم يسيرون إلى المدافن، وكانت هذه المدافن قريبة من مكاننا، وكان الجمع يحمل نعشين كان أحدهما نعش شخص كبير والآخر نعش طفل صغير.

وكانت وراء النعشين عجوز قد اشتد صياحها وعلا بكاؤها، فتأملتها وإذا بها جدتي التي تركت لها امرأتي، ففهمت كل شيء وعلمت أنني ذاهب إلى الليمان بينما امرأتي وولدي ذاهبان إلى القبور، وقد بلغ من تحسري أن عيني لم تكن قد نظرت هذا الولد. وهنا جعل العجوز يبكي بكاء مرًّا ولبث الجماعة ساكتين.

وبعد هنيهة تقدم الجماعة إلى هذا العجوز لما رأوه قد استغرق في البكاء وجعلوا يعزونه، وأخذ أحدهم بيده ومشى به وهو يُودِع أذنه كلام التعزية والتسلية.

وبعد خروجه من بينهم لبثوا هنيهة صامتين يفتكرون به، ثم قال الشقي الباريسي: حقًّا لقد أثرت علينا هذه القصة ولو جاءنا الكوكوديس في هذا الوقت سرنا بقصته بعد هذا الحزن.

فقال ١١٧ موجهًا كلامه إلى الباريسي: وهل أنت تصدق قصة الكوكوديس؟

– هي كقصة مندرين وكرتوش، وبما أن هذين كانا يوجدان فلا يبعد أن يكون روكامبول قد وجد أيضًا، وإن كانت قصته على غاية من الغرابة.

فقال ١١٧: إنني أحقق أن روكامبول قد وجد حقيقة وقد عرفته.

– وهل أنت تعرف قصته؟

– نعم، أعرفها …

وأضاف ١١٧ إلى جوابه هذه الجملة: إنني لا أعلم قصته المزوقة التي يرويها الناس على المراسح، ولكن أعلم قصته الحقيقية.

فقال أحدهم: إذن يجب أن ترويها لنا.

– إنني أرويها لكم مرة ثانية.

فقالوا: ولكن قصدنا الآن أن نعرف ما هو روكامبول.

فقال ١١٧: إن روكامبول وُلِدَ ورُبِّيَ في باريس، وهو كما قال لكم الكوكوديس قد تسنى له أن يتزيا بزي المركيزية بعد رجوعه من الهند.

فقالوا: وهل كان هذا المركيز الذي تقمص به روكامبول غنيًّا؟

– كان له ملايين كثيرة.

فقالوا: وهل توصل إليها روكامبول كما توصل إلى المركيزية؟

– نعم، لمدة ثلاث سنوات.

– إذن هذا المركيز كان قد مات؟

– كلا فقد كان حيًّا.

– ألم يكن له أقارب أو أصدقاء؟

– كان له أم وأخت.

– وهذه الأم؟

– قد انخدعت بروكامبول وكانت تحسبه ولدها.

– وأخته؟

عند هذا السؤال الأخير وقف ١١٧ لا يريد الجواب، ثم قال: إن هذه الأخت كانت تحب روكامبول كأخيها وهو كان يحبها كأخته.

– أكان بينهما غرام؟

– كلا فقد قلت لكم إن المحبة كانت بينهما أخوية كأنهما كانا أخوين حقيقة. ثم امتقع لونه فحار الجماعة من نظرهم إليه فقالوا له: وماذا يؤثر عليك هذا الكلام حتى تبدي هذا الانزعاج منه؟

وقال ميلون: نريد أن نعلم هذا.

فأجاب ١١٧: ليس لي طاقة الآن على الكلام.

فقال أحدهم: نريد أن نعلم فقط هل روكامبول لا يزال حيًّا أم لا؟

– إنني لا أعلم ذلك.

ثم نظر إلى ميلون نظرة خفية كأنه يقول له فيها لنذهب معًا فقد ضجرت من هؤلاء الجماعة.

فقام ميلون وقد فهم مراده وقال له: أنا ذاهب فلنذهب معًا.

فتركا الجماعة وسارا حتى إذا بعدا قال ميلون لـ ١١٧: إنك تخبرني قصة روكامبول أليس كذلك؟

– نعم بعد حين قريب.

ثم مشيا يتنزهان ذهابًا وإيابًا نحو ربع ساعة حتى رأيا من نفسيهما دافعًا يدفعهما إلى حلقة الجماعة فانضما إليهم مرة ثانية.

وكان يتولى الكلام بين الجماعة في ذلك الحين أقدمهم عهدًا في السجن هذا العجوز الذي تقدم ذكره، فكان يخبرهم قصته حينئذ قائلًا: إنني كنت حوذيًّا في أول حياتي بين

الرجال ولم أكن أحب من الدنيا سوى اثنين من الحيوان وهما حصان وكلب، وقد مات الحصان فرثيته وبكيته زمنًا طويلًا وكذلك الكلب ولكنني لم أبكه بدمع بل بدم، ولو أخبرتكم بقصته لنالت عندكم قبولًا عظيمًا، فلا يخفى عليكم أن لي في هذا السجن عشرين عامًا وأنا منذ عشر سنوات منها أبيت منشرح الصدر خلافًا للسنين الأولى، وما ذلك إلا لأنني أتأمل أن يدي ستصل إلى الذي قتل كلبي فأقتله.

فقال الجماعة: ومن هو الذي قتله؟

فأجابهم: إنه أحد حرس السجن، وقد كان هنا في طولون غير أنهم شعروا بأنني أريد قتله فأرسلوه إلى بريست.

فقالوا: إن ليمان بريست قد أبطلوه فلا بد أن يعود يومًا هذا الحارس إلى هنا.

– وهذا الذي أنتظره.

فقال الباريسي: ارو لنا إذا أردت قصة هذا الكلب الذي كنت تحبه بهذا المقدار. وألح عليه الجماعة في معرفة هذه القصة، فقال: إني كنت في بادئ الأمر حوذيًّا أي حوذي أريد أني كنت ألبس لباسًا رثًّا وأسوق عربة حقيرة ذات خيل ضعيفة، وكنت أنفق ما أكسبه على شرب الخمور فأسكر دائمًا، وإذا بقي معي شيء من المال تأخذه امرأتي فيقع بيننا النفور والقتال بشأنه.

وكان لي كلب جميل، فكنت أجد به سلوى لي وقت نفوري من زوجتي، ولولاه لكنت هلكت وحشة وجزعًا، وكان الكلب لطيف الشعور خفيف الحركة، يشعر بحبي له فيحبني أيضًا حبًّا شديدًا، ولم يكن يفارق الإسطبل ساعة.

وكانت زوجتي تنفر دائمًا من هذا الكلب وتضربه في أكثر الأحيان، فكنتُ كلما ضربتْه أمامي لا أتمكن من كف يدي عنها فأضربها ضربًا شديدًا. وقد اتفق أن النفور اشتد بيننا ذات ليلة، فما كدت أضربها بعض ضربات حتى سقطت على الأرض سقوط من لا روح فيه، فظننت أولًا أنها كانت سكرى، إذ كانت تشرب نظيري، ولكنني بعد أن تأملتها جيدًا وجدتها جثة بلا روح فيها.

ولم يأت اليوم الثاني حتى قبضت الحكومة علي ووضعتني في السجن، ثم أخذتُ إلى محكمة الجنايات للمحاكمة، فدافع عني أحد المحامين دفاعًا شديدًا أنجاني به من الإعدام، ولكنني لم أنج من الليمان، فأرسلت إليه وها أنا ذا ما زلت فيه. ولما خرجت من المحكمة وكان الحرس يحيطون بي فلم نكد نسير مسافة قليلة حتى نظرت وإذا بكلب يسرع إلي وهو كلبي الذي أهيم به.

فجعل الحراس يطردونه عني وهو يعود إلي حتى خطر لأحدهم أن يمسكه، وكنا قد وصلنا إلى بينسيتر فأدخلت إلى سجنها وبقي الكلب مع هذا الحارس فلم تكن عيني تحرم من نظره كل يوم، إلا أنني كنت أخشى سفر هذا الحارس إلى مكان آخر فأحرم نظرة كلبي، وقد شعرت يومًا بما كنت أخشاه فجعلت أبكي بكاء مرًّا.

فنظر إلي هذا الحارس وقال لي: أراك تخاف من الليمان خوفًا شديدًا يحملك على هذا البكاء. فأجبته: ليس ذلك بل أنا أبكي مخافة فراق كلبي. فقال لي: إننا مسافرون إلى ليمان طولون فنأخذ هذا الكلب معنا، وهناك ننظر في أمره.

وفي ثاني الأيام سافروا بنا إلى طولون يتبعنا الكلب حتى وصلنا إليها، وهنا في الليمان لا تدخل الكلاب، وكان هذا الحارس تياري المشهور بحسن المعاملة، فرجوت منه الاعتناء بالكلب فوضعه عند جزار بالقرب من الليمان فجعل الجزار يعتني به.

وكنت أراه في كل يوم يخرجون بنا للأشغال في موريلون أو في حصن أبو يرماك فيسرع إلي على الطريق فأمتع نظري بمرآه.

وكان الحارس يحسن معاملتي، فكان يسمح لي بأخذه معي إلى حيث نشتغل، وكان عند المساء يمشي بجانبي حتى باب الليمان ويعود من نفسه إلى الجزار.

وقد دمت على هذه الحال مدة سنتين كنت في خلالهما متمتعًا بمرآه، ولم تكن يدي تصل إلى الخمر لأشربه فأسكر وتضعف قوتي، فلذلك كنت دائمًا بصيرًا ذا قوة شديدة أشتغل شغلًا كثيرًا وأطيع طاعة عظيمة، فكان الحرس مسرورين مني يعاملونني بالرفق والسماح.

وقد أعجب أحد الحراس بهذا الكلب فأدخله إلى الليمان، وجعل يطعمه والكلب ينام ليله بيننا تحت سرير الحارس، فكنت أراه دائمًا فتطيب به نفسي، إلا أن أحد رفاقي المسجونين تودد لي وقد جعله الحرس رفيقًا لي نشتغل معًا ونجلس معًا، فكان هذا الرفيق قليل الطاعة عديم التدرب كثير الجهل.

فبينما كان الحارس يومًا يكلمنا أظهر رفيقي نفورًا شديدًا، فغضب الحارس ورفع عصاه يريد أن يضربه.

وكان الكلب ينظر إلى الحارس فظن أنه يريد أن يضربني أنا فنبح نباحًا شديدًا وهجم عليه وعضه، ومن هذه الدقيقة استحال سروري غمًّا وابتدأ زمان شقائي وأنذرني البلاء أنا والكلب معًا، فإن هذا الحارس جعل يضرب الكلب في كل ساعة ويعاملني معاملة قاسية في كل وقت.

وقد أصبحنا ذات يوم فرأيت الكلب حزينًا شديد الآلام لا يأكل شيئًا، وإنما يشرب شربًا كثيرًا كأنما كان في قلبه جمر يضطرم. إلا أنه في هذا اليوم أكل شيئًا قليلًا، ولكنه في غد ذلك اليوم لم يذق الطعام مطلقًا. وفي اليوم الثالث أصبح ميتًا فكدت أموت عليه حسرة. وكنت أبكي بكاء شديدًا نادبًا هذا الكلب العزيز، فجعل هذا الحارس الذي يدعى موسوليت يستشفي بي ويضحك ضحكًا شديدًا يزيدني حسرة. وفي مساء ذلك اليوم جعل يخبر جميع المسجونين عن بكائي وأسفي شامتًا بي أمامهم، فاشتد غضبي وحنقي.

وفي اليوم التالي خرجوا بنا للأشغال الشاقة، فعزمت كل العزم على قتله، فرفعت سلاسل الحديد على عاتقي بينما نحن نسير في الطريق، واستنهضت همتي وهجمت هجوم المنتقم. غير أن الحرس، أسرعوا إلى نجدته فلم أتمكن من نيل مرادي. وقد زيد عقابي على هذا الذنب الكبير ثلاث سنوات بالأشغال الشاقة.

ولما تحقق مأمور الليمان أنني موطن النفس على قتله أرسله إلى ليمان برست وقد علمت أنه فيها، وما زلت أؤمل أن يعود يومًا إلى هذا الليمان فلا ينجو من قبضتي.

وقد بذلت قصارى جهدي ليرسلوني إلى ليمان برست فلم يقبل لي طلب، فما زلت هنا ملقيًا كل اتكالي على تقلبات الظروف.

وهنا انقطع عن الكلام لما رأى الجماعة نظروا رجلًا مقبلًا عليهم كانوا ينتظرونه بفارغ صبر وهو الكوكوديس.

فصاح ميلون مرحبًا به وقال: إنك لا تتم وعدك بالحضور في الميعاد المعين إلينا.

فقال الكوكوديس: لا بأس إذا تأخرت قليلًا، فلا يفوتكم من قصة روكامبول شيء.

– لم نعد بحاجة إليك فقد عرفناها.

– ومن أخبركم بها؟

– أخبرونا عن شيء وسيخبرونا بجميع تفاصيلها.

فتعجب الكوكوديس وقال: ومن هذا الذي يعرفها ليخبركم بها؟

فأجاب ١١٧: أنا الذي أعرفها!

ووقف يدير في الكوكوديس لحاظًا حائرة ثم قال له: إنني حتى اليوم لم أطلب إليك قضاء أمر.

فأجابه الكوكوديس: اطلب فما تريد؟

فأشار إليه ١١٧ وحاد به قليلًا عن الجماعة وقال له: إنك أيها الصديق تذهب كل يوم إلى فندق فرنسا، وترى تلك السيدة التي تنتظرك فيه. أليس كذلك؟

– نعم.
– وهي امرأة حسنة التدبير؟
– أظنها كذلك.
– إنني أريد أن أعهد إليها برسالة توصلها إلى باريس.
– أعطني إياها وأنا أوصلها إليها.
– كلا فلا يسلمها سواي وأنا أعطها إياها يدًا بيد.
فعجب الكوكوديس ودهش من كلامه وقال له: أين تراها أنت؟
– أراها في الفندق حيث تقيم.
فزاد الكوكوديس عجبًا وقال له: هل تستطيع الخروج من الليمان؟
– ذلك ما لا يهمك أمره، وقل فقط ألا ترى اليوم هذه السيدة؟
– نعم.
– إذن أخبرها بأني سأزورها هذه الليلة.
فنظر إليه الكوكوديس نظرة المتأمل وقد حسبه مجنونًا.

٦

مضى النهار وانسدلت حجب الليل ودخل الأشقياء إلى مكان النوم حسب عادتهم الجارية. وكان ميلون ينام بجانب ١١٧، فقال له بصوت منخفض كما كانا يتناجيان قبلًا: أظن أيها الصديق قد عاهدته معاهدة ثابتة.

أجاب ١١٧: ومن ذا الذي تعنيه؟

– أعني الكوكوديس فماذا جرى بينكما حين تكلمتما سرًّا ألم تخبره بأنك تريد الذهاب إلى فندق فرنسا الساعة ١١ من هذه الليلة؟

– نعم، وماذا ترى في ذلك؟

– كان ينبغي ألا تطلعه على ذلك فربما لا تستطيعه.

فضحك ١١٧ ضحكًا خفيفًا وقال له: كيف لا أستطيع فأمهل حتى يذهب الحرس فترى.

وعند ذلك كان بعض الحرس يمرون على المسجونين ويتفقدونهم واحدًا واحدًا ولما انتهى أحدهم إلى ١١٧ تبادلا نظرة خفية كان ١١٧ بادئًا بها.

فلما مضى الحارس قال ١١٧ لرفيقه ميلون: كم الساعة الآن؟

– قد أذنت الساعة التاسعة.

– إذن دعني أنام ساعة واحدة.

– وبعد ذلك؟

– توقظني ولا تقتضي لي أكثر من ساعة في التأهب للذهاب.

– لا أفهم شيئًا من مرادك في هذه الليلة فبالله صرح لي بما تنويه.

– أصغ إلي، إنك وحدك مصادق لي وقد اتفقنا قبلًا على الفرار من هذا الليمان، فيجب أن نتمم قصدنا في هذه الليلة.

وسُر ميلون سرورًا عظيمًا وقال متحمسًا: نعم ليكن فرارنا هذه الليلة.

– إذن نخرج إلى العالم معًا ولكن على شرطين لا بد منهما.

– وما هما؟

– إن الشرط الأول هو أن نتفق اتفاقًا ثابتًا أن لا نفترق في الدنيا مطلقًا!

– وهل أنت تبحث معي عن الفتاتين اللتين ذكرتهما لك؟

– نعم.

– وهل تساعدني أيضًا حتى نُرجع إليهما مالهما؟

– نعم.

فقال ميلون عند ذلك: إذن إني لا أفترق عنك مطلقًا حسب شرطك الأول، فما هو الشرط الثاني؟

– أما الشرط الثاني إني أقوله لك بشرط أن لا تغضب منه، لقد قلت مرارًا كثيرة إنك قليل التبصر والتدبير أليس كذلك؟

– نعم، لا أنكر أني عديم الرأي.

– حينئذ إن الشرط الثاني هو أن ترضى كل الرضا بأن تبقى دائمًا اليد التي تطيع حيثما أكون أنا الرأس الذي يأمر.

– إني راض بذلك.

– إذن أصغ إلي واعلم أن لساني لا ينطق الكذب.

– وأنا واثق مما تقول.

– قلت لك إني ذاهب هذه الليلة إلى فندق فرنسا وإني سأخرج من هذا السجن بملء الحرية كما يخرج منه السجان نفسه.

– أصحيح ما تقول؟

– اسكت هذا مفتش السجن قد حضر.

وكان المفتش والحداد قد أتما تفتيشهما وفحصا قيود المسجونين، ولما دنا من ميلون ورفيقه قال المائة وسبعة عشر للمفتش: أتأذن لي يا سيدي أن أسألك كم الساعة الآن؟

أجابه المفتش: قد بلغت الساعة التاسعة.

ونظر المائة وسبعة عشر للحداد نظرة خفية وقال: كنت أحسب أن الساعة العاشرة الآن.

ثم ذهب المفتش دون أن ينتبه إلى ما جرى بين هذا السجين وبين الحداد من تبادل النظرات السرية، خلافًا لميلون لأنه رأى جميع ما كان من رفيقه، ولما ابتعد عنهما المفتش قال ميلون لرفيقه: لماذا سألت المفتش عن الساعة وأنت خبير بمعرفة الأوقات؟

– ما سألته عنها إلا كي يعلم رفيقه ما أريد وهو من رجالي.

– أي رفيق تعني؟

– رفيق المفتش وهو الحداد الذي كنت أنظر إليه.

ثم سكت وقال لميلون: أتعلم كم سنة بقيت لي في سجن طولون؟

– كلا.

– عشر سنوات! وفي أول يوم دخلت فيه إلى هذا السجن عرض هذا الحداد أن يستخدم فيه، وقبل المدير طلبه بعد امتحانه لما لقيه من مهارته، وفي الحقيقة إنه حال دون فرار كثير من المسجونين حتى نال رضى رؤسائه عنه وثقتهم به، ولكن أتعلم لماذا قيد نفسه بهذه الخدمة الشاقة؟

– كلا.

– إنه فعل ذلك من أجلي لأني سيده وهو ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي أظهر له فيه حاجتي إليه.

– إذن هو خاضع لك؟

– حتى الموت وإني حينما قلت للمفتش «كنت أحسب أن الساعة العاشرة الآن» لم يكن سؤالي عن الساعة غير الإشارة إليه بأنها الموعد بيننا.

فدهش ميلون وقال له بسذاجة الأطفال: كيف حصلت على هذه السلطة وأي رجل أنت؟

– سأخبرك فيما بعد، ثم جعل يحل قيوده.

– ماذا تفعل؟

– إني أحل قيودي لأنها سهلة الحل.

– كيف ذلك ومتى كانت قيود المسجونين في طولون تحل حلًّا سهلًا وهي من حديد؟

– ذلك لأن قيودي غير قيودك؛ لأن قيودك لا تنزع إلا بعد كسرها أو بردها.

وكانت العادة في هذا السجن أن كل سجين يربط ساقه بقيد خاص ثم يقرن بقيد آخر إلى رفيق من المسجونين بحيث يغدو كل اثنين بقيد واحد، وذلك مبالغة في الحذر من هربهم؛ لأن هروب الاثنين أصعب من هروب واحد.

وما أوشك ١١٧ أن يتم حديثه مع رفيقه ميلون حتى انفصل عنه وأصبح كل منهما لا يربط إلا بقيده الخاص، فقال لميلون: لم يبق لي إلا أن يأتيني الحداد بالملابس التي طلبتها منه لأخرج من هذا السجن.

– أتذهب وتدعني وحدي؟

– لا بد من ذلك لأني سأرجع فإن ساعة نجاتنا لم تحن بعد لأنه قبل أن نبرح هذا السجن الضيق يجب أن نعلم أي محل نقصد من ذلك السجن الواسع لأن الدنيا بأسرها سجن للمجرمين.

– ولكننا نذهب إلى باريس لإرجاع المال إلى الفتاتين، ألم تعدني بهذا؟

– ذلك لا ريب فيه غير أني إذا خرجت من هذا السجن فلا أحب الرجوع إليه، ولا بد لي إذن من أن أخبر أصحابي في باريس بعزمي على الفرار كي يعدوا لي وسائل التنكر وإنما لا تخشى أيها الرفيق فلا يمر بنا أسبوع حتى نخرج من هذا المكان الرهيب على أن لا نعود إليه.

فحك ميلون أذنه إشارة إلى عدم ثقته من الفوز وقال: إن كل ذلك ممكن غير أني لا أزال أخشى أمرًا واحدًا.

– ما هو؟

– هو أن مفتش هذا السجن يخطر له في أكثر الأيام أن يتفقد المسجونين عند انتصاف الليل.

– وما تخشاه من تفتيشه في تلك الساعة؟

– أخشى أن يراني وحدي فيعلم فرارك.

– ومن أخبرك أنك تكون وحدك؟

فانذهل ميلون وقال إني لم أكن أصدق بوجود الأبالسة، غير أني أجد الآن أنه لا بد لي من التصديق.

فضحك ١١٧ وقال لرفيقه: إنك لم تر شيئًا بعد، وسترى عجائب كثيرة فدعني الآن أنام ساعة إذ قد فرغت من جميع عملي ولم يبق علي غير انتظار الملابس التي سيأتيني بها الحداد.

ثم انقطع عن محادثته وغرق في لجج من الهواجس وميلون يحسبه نائمًا.

ولما دنت الساعة العاشرة سمع ميلون وقع أقدام خفيفة وكانت أصوات المسجونين قد خفتت وانقطعت شكاويهم وشتائمهم وسادت السكينة بهذا السجن، ثم رأى ميلون رجلًا يمشي مشيًا وئيدًا إليهما.

وكان هذا الرجل حداد السجن فهز ميلون رفيقه وقال له همسًا: قم لقد بلغت الساعة العاشرة.

فنهض ١١٧ وقال: إني سمعت دقاتها.

وكان الحداد قد وصل إليهما فقال بصوت خافت: ها أنا ذا يا حضرة الرئيس وقد أتيت في الموعد.

– حسنًا فعلت فاخلع ثيابك ألعلك أحضرت ما أوصيتك به؟

– لقد أحضرت كل شيء.

ثم خلع ثيابه وخلع السجين ثيابه فلبس كل منهما ثياب الآخر، وأخذ السجين من الحداد علبة ففتحها وأخرج منها قبعة يغطيها الشعر المستعار بلون شعر الحداد، فلبسها إخفاء لحاله لأن المسجونين تحلق رءوسهم ثم أخرج منها لحية وشاربين فلبسهما ووضع على وجهه وجهًا مستعارًا يشبه وجه الحداد كل الشبه. وبعد أن فرغ من جميع ذلك وضع قيده برجل الحداد وربطه إلى قيد ميلون ثم سأله عن كلمة المرور وودع الاثنين وانصرف.

٧

وخرج من السجن دون أن يعترضه أحد من الحراس لأنهم حسبوه أنه نويل الحداد الذي كان مقيدًا في مكانه، لا سيما وأنه كان عارفًا كلمة المرور.

وبعد ذلك بربع ساعة كان يجتاز شوارع المدينة فوقف على دكان كان بابها مقفلًا، غير أن نورًا خفيفًا كان ينبعث من نافذتها، فطرق الباب بلطف وبعد هنيهة سمع صوتًا من الداخل يقول: من أنت؟

فأجابه: أنا نويل.

– أليس لك اسم آخر؟

– نعم وهو كريكو.

ففتح الباب في الحال ورأى ١١٧ نفسه في دكان بائع ملابس قديمة غير أن المرأة التي فتحت له تفرست به مليًّا ثم تراجعت منذعرة وقالت: لقد خدعتني فلست نويل.

– صدقت ولكنني الرجل الذي تنتظرينه.

وكان يوجد رجل منزويًا في زاوية الدكان فقال لها: دعيه يدخل، فإنه الرئيس. ثم قام إلى الباب وأقفله وقال للسجين: إننا ننتظرك يا سيدي منذ عهد بعيد.

– ذلك أكيد غير أن الأمر لا ينقضي في هذه الليلة.

– كيف ذلك ألا تريد الفرار؟

– كلا.

فجعل الرجل والمرأة ينظر كل منهما إلى الآخر بكآبة واندهال.

أما السجين فإنه ابتسم ابتسام الحزين وقال: لماذا تستغربان فإني راض عن عيشة السجون.

فقالت المرأة: لا جدال في الذوق.

– غير أني سأهرب من سجني قريبًا، وقد خرجت منه الليلة كي أعد لوازم الفرار.

فأظهرت المرأة سرورها وقالت: هذا هو الكلام المفيد فلم يعد عليك إلا أن تأمر فتطاع.

فقال السجين: إني أطلب إليكما أن توجِدا لي في هذه الأيام خادمًا يصلح أن يكون خادم غرفة.

فانبرى له الشاب وقال: ألا أصلح أنا لهذه الخادمة يا سيدي.

– سوف نرى.

فقالت المرأة العجوز: ألست في حاجة إلى شيء الآن؟ ألا تريد أن أهيئ لك طعامًا شهيًّا؟

– كلا، إني سأتعشى في المدينة.

– أين؟

– في فندق فرنسا عند امرأة حسناء.

– لا غَرْوَ في ذلك فإنك شاب جميل.

ونظر السجين إلى ساعة فضية تركها له نويل في جيبه فرأى أن الساعة بلغت العاشرة ونصفًا فقال: لقد حان الموعد ويجب أن أغير ملابسي.

فقال الشاب: إن نويل قد ترك هنا صندوقًا لك وفيه ملابس مختلفة.

– أين هو؟

– في الغرفة العليا.

– سِر بي إليها.

فأنار الشاب شمعة وصعد أمامه إلى تلك الغرفة والسجين يتبعه، حتى أراه الصندوق فأطلق سبيله وفتح الصندوق، وأخرج منه ما يحتاج إليه من تلك الملابس.

أما الشاب فإنه عاد إلى أمه العجوز فقالت له: ألم أقل لك إنه سينتهي بالخروج من سجنه؟

– ولكنه بقي فيه عشرة أعوام.

– لا بد أن يكون له مأرب من البقاء فيه.

– لا ريب بما تقولين لأن من كان مثله لا يتعذر عليه الخروج من السجن.

– هو الحق ما تقول ولكن الغريب أني ما عرفته عند دخوله.

– كيف تستطيعين أن تعرفيه وقوته توشك أن تكون منحصرة في التنكر، حتى لقد بلغ من براعته في هذا الفن أنه لو تنكر بشكل أميرال بحري لاستحال على أركان حربه أن يعرفوه.

– أما هذا الرجل فإنه سيعود دون شك مركيزًا من أصحاب الملايين، غير أن الذي لا يزال يشغلني من أمره بقاؤه في السجن عشرة أعوام وهو قادر كل يوم على الخروج منه.

– إني أرتاب بأمره يا أماه.

– بأي شيء ترتاب؟

– أظن أنه مصاب بحزن شديد.

– أتظنه كآبة غرام؟

– كلا ولكنه حزن يخترق القلب فقد أحب امرأة كانت تحسبه أخاها فانتهى به الأمر أنه بات يحسبها أخته.

– لقد عرفت هذه الحكاية.

– وهو يخشى إذا ذهب إلى باريس أن يراها أو تراه فيها ففضل البقاء في السجن؛ ولهذا أظن أنه اتصل به خبر وفاتها ولولا ذلك لما أراد الفرار.

– هذا ممكن.

وفيما هما يتحادثان نزل السجين من الغرفة بملابسه الجديدة، فصاحت العجوز وابنها صيحة دهشة لأنهما لم يعرفاه وقد رأيا أمامهما بحارًا جميلًا مسرَّح الشعر لطيف الهندام ذا لحية قصيرة سوداء.

غير أن السجين لم يكترث لاندهاشهما وقال للعجوز: اذهبي أمامي إلى فندق فرنسا فقد أزف وقت اللقاء. ثم قال: إن نويل لا بد أن يكون ترك لي نقودًا عندكم.

٨

ولنسبق الآن الـ ١١٧ إلى هذا الفندق الذي تقيم فيه تلك الفتاة عشيقة كوكوديس.

كان كوكوديس يدعو هذه الفتاة باسم نيشات تحببًا وكان أصحاب الفندق يدعونها مدام بريفوست.

وليس من يعلم ما جمع هذين العاشقين غير أنهما لقيا من حلو العيش ومره ما يلقاه جميع العشاق.

وكانت هذه الفتاة في الثلاثين من عمرها جميلة الوجه قوية العضل عصبية المزاج، وكانت جميع مظاهرها تدل على أنها أسمى أدبًا وأرفع نفسًا وأبعد همة من عشيقها، كما أن ملابسها كانت تدل على أنها قادمة من باريس.

غير أن اتصالها بكوكوديس وارتضاءها أن تعيش في طولون لا يزالان سرًّا من الأسرار.

أما عشيقها هذا فقد كان كثير النزق غير مجمل بصفة من الصفات الأدبية، وقد خسر يومًا في البورصة خسائر لم يستطع وفاءها، فهتك شرفه بيده كي يصونه باليد الأخرى وزور سندًا على أحد المصارف راجيًا أن ينجده أبوه لطمعه بثروته. غير أن الحكومة علمت بتزويره قبل أبيه وحكمت عليه بالسجن الذي رأيناه فيه.

وقد جاء في صباح اليوم الذي نقص فيه هذا الحديث إلى فندق فرنسا وقال لخليلته: إنك ستعودين إلى باريس بعد ثلاثة أيام فهل تريدين أن تقضي حاجة فيها للسجين الذي نمرته ١١٧؟

ثم أخبرها عن هذا السجين وعن طباعه وصمته الدائم مما شوَّقها إلى لقائه وقالت له: إني أحب أن أرى هذا الرجل الغريب الأحوال ولا بد أن يكون له شأن عجيب.

– إنه سيحضر إليك ويتناول العشاء معك.

– متى؟

– في الساعة ١١ من هذا المساء.

– ألعله مطلق السراح في السجن مثلك؟

– كلا بل إنه مقيد مع رفيق له في قيد واحد ومع ذلك إنه سيحضر لأني بدأت أصدقه في جميع ما يقول، وإن يكن خروجه من السجن من المستحيلات.

وبعد أن أقام عندها مدة برحها وعاد إلى السجن. ولم تكن تفتكر تلك المرأة طول نهارها إلا بهذا السجين وما نقله إليها عشيقها من مقدرته وغرابة أطواره.

ولما دقت الساعة ١١ أتى إليها خادم الفندق وأخبرها أن ضابطًا من ضباط البحرية قدم لزيارتها فما شكت أنه السجين وقالت للخادم: إني قد دعوته للعشاء ادخل به إلي وأعدَّ لنا المائدة.

وبعد حين دخل الـ ١١٧ فأمرته بالجلوس وقالت له: أنت هو؟

– نعم.

وجعل كل منهما ينظر إلى الآخر نظر الغامض المستطلع، إلى أن بدأ السجين بالحديث فقال: إنك لست المرأة التي كنت أرجو أن أجدها.

فابتسمت له وقالت: ماذا تريد بذلك؟

ولم يجبها على سؤالها، وقال وهو يحدق بها: إنك لا بد أن تكوني تعذبت كثيرًا؟

فارتجفت وقالت: ماذا يهمك عذابي؟

فنظر إليها نظرة غريبة دعتها إلى الإطراق بنظرها وقال لها: أريد أن أعرف.

– نعم لقد تعذبت ولا أزال أتعذب.

– ولكن عذابك لم يكن من أجله دون شك.

وأشار بذلك إلى عشيقها الكوكوديس، فأجابته بإشارة احتقار بدت من شفتيها.

فسُر السجين لهذه الإشارة وقال لها: لقد أحسنت؛ لأنك إذا لم تكوني المرأةَ التي كنتُ أرجو أن أجدها فإنك المرأة التي أحتاج إليها. ثم نظر إليها نظرة شديدة تكهرب بها جسمها، فلم تستطع تحملها وأطرقت ببصرها وهي تقول: ما هذه النظرات الغريبة التي أخضع لها مكرَهة. إني ما عرفت غير رجل يستطيع إخضاعي بهذه النظرات النارية.

– ومن هذا الرجل؟ هو …

– نعم.

– وماذا حدث له؟

فقالت بصوت أجش: إنه مات.

– لا بأس فسنشترك في البكاء عليه.

ثم جلس بقربها وأخذ يدها فصاحت صيحة منكرة لم ينتبه لها وقال: أريد معرفة كل شيء.

وزاد اضطرابها وتمتمت قائلة: ما هذا الرجل وكيف أتاه هذا السلطان علي؟

– قلت لك إني أريد أن أعرف كل شيء.

– سأمتثل لما تريد.

– إن الكوكوديس يدعوك نيشات وأهل الفندق يدعونك مدام بريفوست، أما أنا فإني أريد أن أعرف اسمك الحقيقي.

– ليس لي اسم غير هذين الاسمين.

– ألم يكن لك اسم غيرهما من قبل؟

– نعم.

– أريد أن أعرفه.

وتنازعتها عوامل التردد هنيهة غير أنها لم تلبث أن خضعت لنظراته فقالت: إني كنت من قبل سيدة عظيمة وكانوا يدعونني البارونة شركوف.

– وهذا البارون كيف كان يدعوكِ؟

– فاندا.

– إذن أنت روسية؟

– لقد كنت من قبل أما الآن فليس لي اسم ولا وطن.

– وزوجك أهو ميت أم حي؟

– إنه لا يزال في قيد الحياة ولكنه يعتقد أنني ميتة.

فقال لها السجين بلهجة الاحترام: أرجوك يا سيدتي قبل أن تحكي حكايتك أن تأذني لي بكلمة أيضًا.

– قل ما تشاء.

ألم يكن الرجل الذي أحببته يشبه هذا الأبله كوكوديس الذي يحسب أنك تحبينه الآن.

فابتسمت ابتسام القانط وقالت: نعم يشبهه شبهًا غريبًا.

– ولكنك لا تحبين كوكوديس؟

– كيف يمكن أن أحبه وهو أبله لا عقل له؟

– إذن فلماذا غادرت باريس واقتفيت أثره في طولون؟

– لأني نذرت نذرًا.

– أظن أني عرفت بعض الأمر.

– ربما فإن لك نظرًا يخترق أعماق النفوس ويهتك حجب أسرارها.

– إن الرجل الذي كنت تهوينه قد مات موتًا رائعًا.

– اسكت.

– بل موتًا شائنًا.

– بربك كفى.

– يجب أن أعلم كل شيء ألم يمت على المقصلة بعد أن حكم عليه بالإعدام؟

– إنك لم تعلم كل شيء.

– إذن تكلمي فهكذا أريد.

– نعم إن يد الجلاد قطعت رأسه ولكن أتعلم متى وكيف؟

– كلا.

– إنه أعدم في السجن الذي أرسلته إليه بعد أن أنقذته قبل ذلك من الشنق أعلمت الآن؟

– أتمِّي حديثك إذ يجب أن أعلم كل شيء.

٩

فقالت فاندا: إني كنت سيدة عظيمة وقد تعلقت بهوى رجل مجرم ثم أصبحت من النساء المبتذلات، ولكني قبل كل هذا كنت فتاة من عامة الناس وكان اسمي فاندا فقط.

وكنت أقيم مع أبي الشيخ في قرية صغيرة على حدود بولونيا الروسية وكان منزلنا مشرفًا على سجن المدينة فإذا جلست إلى النافذة أرى المسجونين، وكنت في ذلك العهد في الثامنة عشرة من عمري، ولي فوق جمال الصِّبا جمال السلامة والطهارة.

ولم يكن يستطيع أبي العمل لعجزه فكنت أشتغل لأقوم بأودِه، فأنهض من الفجر وأشتغل منذ الصباح إلى أن يخيم الظلام، فكلما نظر سجين إلى مبلغ انهماكي في العمل يتأوه ويرثي لحالي.

واتفق يومًا أني رأيت بين أولئك المسجونين رجلًا أبيض اللحية وهو مقيد بقيد من حديد خلافًا لرفقائه، فسألت عنه فقيل لي إنه كونت من نبلاء بولونيا وإنه محكوم عليه بالإعدام، فأشفقت عليه إشفاقًا عظيمًا منذ ذلك العهد وأصبحت كلما رأيته أبتسم له فيخال لي أنه يتعزى بابتسامي.

ومضى على ذلك عدة أيام إلى أن أصبحت يومًا، وأحد خفراء السجن يطرق بابي فقال: إن الكونت البولوني سيشنق اليوم وقد طلب أن يراك قبل أن يموت والتمس من رئيس السجن أن يأذن له بالاختلاء معك بحيث لم يبق إلا أن تجيبي طلبه إذا أحببت.

فلم يسعني إلا تحقيق أمنية هذا المسكين وقلت للحرسي: سر أمامي وأنا في أثرك؟

فسار أمامي وتبعته إلى السجن، فأدخلني إلى غرفة الكونت وانصرف.

فلما انفردت بهذا الشيخ قال: اعلمي يا بنيتي أنه كان لي ثلاثة أولاد فقتلتهم جميعهم يد الجلاد، وكانت لي امرأة فأصابها ما أصاب أولادها بحيث لم يبق من أسرتي إلاي، ولكنني بعد ساعة ينفذ بي حكم الإعدام.

فأجفلت لحكايته المفجعة وقلت لسلامة قلبي: عجبًا كيف يحق للإنسان أن يقتل أخاه الإنسان وكيف تنهى الحكومة عن القتل وتعمل به؟

أما الشيخ فإنه مضى في حديثه فقال: وقد بقي لي في هذا السجن شهر، وأنا أراك في كل يوم من نافذة غرفتك عاكفة على العمل، فحنَّ إليك قلبي حنوًّا أبويًّا لما رأيته من اجتهادك وعزمت على أن أجعلك وريثتي الوحيدة.

وقد ضبطت الحكومة جميع ما لي من العقار، غير أني خبأت جميع أموالي في مكان خفي فإذا شئت أرشدتك إلى مكانها وصيرتك غنية عظيمة، ولكني أشترط عليك شرطًا واحدًا وهو أن تنفقي قسمًا من هذا المال في سبيل إنقاذ مجرم من الشنق كل عام وتبذلي جهدك في هذا السبيل.

فنظرت إلى ذاك الرجل النبيل نظرة الإعجاب وجثوت أمامه بملء الاحترام وقلت له: أقسم بالله أني سأفعل ما تريد. فأرشدني إلى كنزه المخبوء.

وبعد ساعة نفذ فيه حكم الإعدام، وبعد شهر مات أبي الشيخ فأصبحت وحيدة في هذا الوجود ولكني أصبحت غنية بعد الفقر وباتت ثروتي تعد بالملايين.

وما مضى عهد بعيد حتى ذاع أمر ثروتي، وكان من الذين حاموا حول هذه الثروة البارون شركوف فتزوجني بل تزوج أموالي، وجاء بي إلى باريس.

وبينما كنت يومًا أقرأ جريدة عثرت فيها على نبأ هائل، وهو أنهم وجدوا امرأة قتيلة في منزلها مطعونة سبع عشرة طعنة، وقد وجدوا أنه لم يسرق شيء من أموالها ومجوهراتها، والبحث جار عن القاتل.

فذكرت في الحال وصية الكونت وقلت في نفسي إن الفرصة قد دنت للبر بيميني، وقد أعجبني من القاتل أنه لم يكن لصًّا ولم يرتكب جريمته طمعًا بمال، فأوقفت نفسي من

تلك الساعة على البحث عنه بغية إنقاذه، ولكني قرأت بعد حين أن القاتل أركن إلى الفرار، فأسفت أسفًا شديدًا لأني كنت أحب أن تكون نجاته على يدي.

أما زوجي البارون شركوف فقد كان وحشي الأخلاق مقامرًا سكيرًا يصرف نهاره بالنوم والعربدة وليله بالسكر والمقامرة، وقد قال لي مرة في غيبوبة سكره إنه ما تزوجني إلا لمالي، فكرهته بعد حبي له أشد الكره وكشفت له مرة في سكرة غرام سر ثروتي واليمين التي حلفتها، فهزأ بي، ولم يقف عند هذا الحد، بل أخبر بسري أصحابه، فانتشر أمري في جميع باريس.

وكان كما ذكرت لك يدعني في المنزل وحدي في الليل ويذهب إلى ناديه للمقامرة بأموالي.

فبينما أنا جالسة ليلة في غرفتي أفكر بمستقبل أمري مع هذا الزوج الفاسد وقد انتصف الليل ونام جميع الخدم، سمعتُ وقع أقدام خارج غرفتي ثم رأيت بابها قد انفتح ودخل علي شاب جميل الطلعة عليه ملامح الذعر فقال لي قبل أن أستغيث: أنقذيني بالله فأنا قاتل المرأة.

وكان لهذا الرجل عينان كعينيك لم أر أقدر منهما على التسلط وجذب القلوب، وكنت قد سئمت العيش مع زوجي فأشفقت على ذاك الجاني، بل جذب فؤادي مغناطيس عينيه وتذكرت اليمين التي حلفتها للكونت فقلت له: لبيك فسأنقذك.

وعند ذلك أسرعت إلى خادمة كانت مخلصة لي فأيقظتها وجمعت ما كان لدي من الأوراق المالية والمجوهرات وأخذت جواز السفر المكتوب باسم زوجي وقلت للمجرم هلم بنا فلنهرب جميعًا وخُذ الجواز فادع نفسك باسم صاحبه.

ثم هربنا جميعًا بعد أن تركنا هذه الرسالة الموجزة وهي:

إني لا أحبك وأحتقرك فلا تبحث عني لأنك لن تراني.

١٠

فجعل الـ ١١٧ ينظر إلى فاندا نظر الطبيب يفحص عليلًا ثم قال لها: أتمِّي حديثك يا سيدتي.

فقالت: خرجنا عند انتصاف الليل فبلغنا الهافر عند الصباح وبعد ذلك ببضع ساعات ركبنا سفينة مسافرة إلى أميركا فأقمنا في تلك القارة الجديدة ثلاثة أعوام أنفقنا في خلالها جميع ما كان باقيًا لدي من المال والمجوهرات.

غير أنه كان يظهر لي أن ذاك الرجل غني فإنه كتب إلى أوروبا فأرسل إليه ٢٠ ألف فرنك، وكان يحبني وكنت هائمة به فكانت حياتنا شبيهة بالحلم.

ثم جعلنا إقامتنا في نيويورك وكنا نعيش فيها عيشة بذخ وإسراف ولما فرغ المال الذي أتاه من أوروبا أظهرت له خوفي من الإفلاس، فقال لي: لا تخافي فإني أحصل على المال حينما تريدين، فما جسرت بعد ذلك على سؤاله، ولكن سكوته كان يخيفني.

وكان يأتي إلى منزلنا كثير من الأميركيين المشتبه بسيرتهم وكان هو نفسه يأتي متأخرًا فلم أكن أستطيع اعتراضه لأنه كان سيدي وكنت أحبه حتى لو أمرني أن أتجرع السم لما خالفتُ له أمرًا.

وبينما كنت ساهرة ذات ليلة أنتظر عودته وقد أوشك الفجر أن ينبثق إذ رأيته داخلًا وهو مصفر الوجه وعليه علائم الاضطراب، فذعرت وقلت له: ما أصابك؟ قال: لا شيء فإني بارزت خصمًا لي فقتلته، غير أن البوليس الأميركي سيطاردني لأن المبارزة غير جائزة في البلاد، فهلمي بنا إلى الباخرة المسافرة الآن إلى الأنتيل.

وكانت يده مخضبة بالدم فغسلها وتهيأت للسفر ثم خرجنا قبل شروق الشمس إلى الميناء، فلما أراد السفر أخرج من جيبه محفظة فرأيتها غاصة بالأوراق المالية ورأيت عليها أثر الدم فعرفت كل شيء وعلمت أن الرجل الذي أحببته وتركت زوجي من أجله لم يكن قاتلًا فقط بل كان لصًّا أيضًا، ومع ذلك بقيت على حبه كأنما جرائمه زادته في نفسي إجلالًا، وهذه إحدى غرائب النساء.

وأقمنا في جزائر الأنتيل ثلاثة أعوام فاشتاق إلى باريس ورأى أن جميع ملامحه قد تغيرت فلم يعد يخشى مطاردة بوليسها فرجعنا إلى تلك العاصمة واستأجرنا فيها منزلًا جميلًا واقتنينا جياد الخيل والمركبات، فمنح نفسه لقب كونت وامتزجنا مع عائلات باريس فكان ينفق عن سعة وما جسرت مرة على أن أسأله كيف يأتيه المال.

وكان يختلط بكثير من ذوي السيرة المشتبهة كما كان يفعل في نيويورك، غير أنهم جميعهم كانوا يخضعون له خضوع الخدم للأسياد، ثم علمت بعد حين أنه كان زعيم عصابة من اللصوص اشتهرت شرورها في باريس وجعل البوليس يترقبها دون أن يعثر برجل من رجالها.

إلى أن عاد إلي ذات ليلة وهو مخضب بالدم وقد اخترقت صدره رصاصتان، فانطرح على سريره دون أن يبالي.

وفي اليوم التالي ذاع في باريس أنه حدثت جناية هائلة قُتل فيها غني عظيم من أصحاب المصارف في منزله الذي كان يعيش فيه منفردًا مع خادم غرفته وقد قتل بعد أن دافع دفاعًا شديدًا لأن جثته وُجدت في الحديقة حيث طارد اللصوص الذين حملوا صندوقه وأفرغوا جميع ما في مسدسه من الرصاص.

أما أولئك اللصوص فقد كانوا ثلاثة بينهم خادم غرفة صاحب المصرف كما دل عليه التحقيق، وبعد أسبوع تمكن البوليس من القبض على الخادم فاعترف بالجناية وأرشد الحكومة إلى شركائه فيها، فأقبل رجال الشرطة بعد ساعة إلى منزلنا وقبضوا على خليلي فيه وهو لا يزال طريح الفراش، فنظر إلي مبتسمًا وقال: لا تجزعي فإني لا أموت شنقًا لأن جرحي لا يمهل الحكومة إلى حين إعدامي، فذكرت بلفظة الإعدام المشنقة التي ذكرتني بيميني للكونت فقلت في نفسي: لا بد من إنقاذه.

وسار به الجند إلى المستشفى ولكن فأله خاب لأنه لم يمت بل شفي من جراحه ونقل من المستشفى إلى السجن، وكان محكومًا عليه بعشر جنايات وباحتراف السرقة بالاغتصاب مدة عشرة أعوام، فهو يستحق الإعدام ألف مرة، غير أني بذلت من المساعي ما يقف دون جهد المجاهدين وفزت بإنقاذه من الإعدام فحُكم عليه بالسجن بالليمان.

وقد تمكنت من رؤياه قبل إرساله إلى الليمان فقال لي: احضري إلى طولون فإني سأنجو من السجن ونسافر معًا إلى إيطاليا، وكنت لا أزال أحبه فامتثلت.

فقاطعها السجين ١١٧ وقال لها: إني أعرف بقية الحكاية.

فاضطربت وقالت: ألعلك عرفته؟

– كلا ولكني وصلت إلى سجن طولون في اليوم التالي للحادثة.

– إذن أنت تعرف كل شيء.

– نعم فإنه أعد معدات فراره بمهارة فائقة وكنت أنت تنتظرينه في باخرة تجارية تعهَّد ربانها أن يحمله عليها.

غير أن رفيقه بالقيد خانه فإنه بعد أن قطع قيده قبضوا عليه وهو يحاول أن يلقي نفسه في البحر والبلوغ سباحة إلى السفينة، ولكنه تمكن قبل القبض عليه من قتل رفيقه الذي خانه.

ولما كان النظام يقضي بإعدام كل مجرم يقتل مجرمًا في السجن، فقد تقرر إعدامه بعد ٢٤ ساعة.

– ولكنك لا تعلم بعد ذلك ما حدث فإني تمكنت من الدخول إلى السجن بشكل عامل من عمال الميناء وكانوا قد ضاعفوا قيوده وبالغوا في خفارته ومع ذلك كنت لا أقطع رجائي فاسمع ما حدث.

١١

إنه في كل مدينة كمدينة طولون يوجد فيها مجلس تنفيذي يوجد فيها منزل يبتعد عنه الناس ويخشون منه، وهو منزل ذلك القاضي الذي منحه القانون حق الإعدام.

وفي كل سجن كسجن طولون يوجد سجين يكرهه رفقائه وينظرون إليه نظر الازدراء وهو الجلاد.

ومثل هذا الجلاد في ذلك العهد يفعل بدرهم ما لا يفعله سواه بألف وقد اشتريت هذا الجلاد بالمال ووضعت له قبل تنفيذ الإعدام مخدرًا في كأس شرابه، فلما دُعي لتنفيذ الحكم صعق وسقط على الأرض كالقتيل.

وكنت أرجو بهذا المخدر أن أؤجل زمن الإعدام إلى أن تتم لي معدات إنقاذه، ولكني عندما أعددت كل شيء وبات إنقاذه مضمونًا تقدم أحد المسجونين الأسافل في آخر لحظة وعرض على رئيس السجن أن ينوب عن الجلاد.

ثم وقفت مذعورة كأنما تلك الحادثة قد تمثلت لعينيها وقالت: وا أسفاه إني رأيت رأسه قد هوى أمامي.

ثم ضحكت ضحكًا عاليًا وقالت: إني لا أزال أحبه وقد أقسمت أمام خياله إني سأنقذ مجرمًا من الإعدام كما أقسمت للكونت من قبله.

– إذن فإن إقامتك في باريس ليست إلا لهذا الغرض؟

– نعم.

فأخذ السجين يدها وقال لها: انظري إلي، وجعل ينظر إليها نظرات كانت تخترق أعماق قلبها.

فقالت له: ماذا تريد مني؟

– أريد أن أعقد معك عهدًا، أتقبلين؟

– نعم؟

– إني سأنقذ لك مجرمًا من الإعدام وكل ما أريده أقدر عليه.

– وما تطلب مني بعد ذلك؟

– إني في حاجة إلى امرأة تشاركني فيما سأمثله من الأدوار، وأريد أن تكون خاضعة لي خضوعًا لا حد له.

– سأكون كما تريد وأقسم لك على الوفاء بذلك الرأس الذي رأيته يسقط أمامي.

فنهض المائة وسبعة عشر وقال: إني أفارقك الآن فإن الساعة قد بلغت الثالثة من الصباح.

– إلى أين تذهب؟

– إلى السجن.

– أأراك قريبًا؟

– ربما، ولكنك سترد إليك أخباري غدًا، وفي كل حال فإني لا أريد أن تبقي في هذا الفندق.

– سأذهب حينما تشاء.

– ولا أن تجتمعي بكوكوديس.

– سأمتثل لما تريد.

– وسأرسل لك غدًا نويل.

– من هو نويل هذا؟

– هو أحد رجالي. ثم تركها ومضى.

بينما كان ١١٧ يسمع حديث فاندا الروسية كان ميلون نائمًا بجانب نويل الذي كان مقيدًا معه بدلًا من المائة وسبعة عشر، وقد حاول أن يباحثه غير أنه لم يفلح فإن الرفيق الجديد لم يجبه بحرف ولم يجد عند ذلك بدًّا من النوم.

ولما دوى مدفع السجن عند الصباح وهو الموعد الذي يستيقظ فيه المجرمون شعر ميلون أن يدًا تهزه، ففتح عينيه ورأى رفيقه المائة وسبعة عشر يؤنبه لاستغراقه في النوم، وقد تبدل ذلك الضابط الجميل بمجرم شقي محلوق الرأس والشاربين.

فانذهل ميلون لأنه لم يشعر به عند عودته ولم يعلم كيف حل القيد من رجله دون أن ينتبه.

أما ١١٧ فإنه لم يحفل بانذهاله وجلس بجانبه دون أن يكلمه بحرف.

ثم أقبل وكيل السجن ومعه الخدم يحملون الطعام والشراب للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، فلم يأكل ١١٧ وقال للوكيل: إني أتخلف عن حصتي لرفيقي ميلون فقد حلم حلمًا مزعجًا الليلة.

فقال الوكيل: ماذا حلم؟

– إني هربت من السجن.

– قبح وقبح هذا الحلم فإن تحقيقه يدعو إلى إهلاكي وأنت لا بد أن تكون حلمت أيضًا، فماذا حلمت؟

– إني تعشيت مع امرأة حسناء وشربت معها الشمبانيا المثلجة، ولهذا فإني لم آكل الآن لأني لا أزال متخومًا من طعام الحلم.

فتركه الوكيل ضاحكًا، وانصرف ١١٧ وميلون ذاهبين إلى الأعمال الشاقة، وفيما هما سائران لقيا بونفير السجين صاحب حكاية الكلب التي تقدم ذكرها فدنا منه ١١٧ وقال له بصوت منخفض: إن الوكيل الذي قتل كلبك تعين في سجن طولون وهو فيه منذ أمس.

فاضطرب بونفير واحمرت حدقتاه من الحقد وقال: إذن فلا بد له من الموت.

– تبًّا لك من أبله فإن من يريد الانتقام يكتم قصده في صدره ولا يبوح به لأحد.

– ولكني لا أستطيع أن أضبط نفسي.

– أتعلم ما كنت أصنع لو كنت مكانك؟

– كلا!

– كنت أحسن سلوكي عدة أيام لأكون في عيون الحرس كالحمل الوديع، إلى أن تحين الفرصة فأفعل ما أشاء.

– سأمتثل لما تقول.

ثم ذكر كلبه وجعل يبكي.

وتركه الـ ١١٧ وسار مع ميلون إلى محل الشغل فلقي فيه نويل الحداد وقال له همسًا: أظن أنك تستطيع الآن أن تبلغ تلك السيدة المقيمة في فندق فرنسا أنه سيصدر قريبًا حكم الإعدام في سجن طولون.

فأشار نويل إشارة الامتثال ومضى كل في شأنه.

١٢

بعد يومين من هذه الحوادث المتقدمة وقفت مركبة بريد على باب سجن طولون، ونزل منها رجل وامرأة، وكانت ظواهرهما تدل على أنهما من النبلاء الإنكليز.

وكانت المرأة بارعة في الجمال، فدخلَا إلى السجن وأبرزَا لمديره ترخيصًا قانونيًّا يبيح لهما الفرجة على السجن وتفقد حالة المسجونين فيه.

وقد كتبت هذه الرخصة باسم السير أرثير بمبروك أحد ضباط البحرية وزوجته الشرعية.

فاحتفل المدير باستقبالهما وكلف أحد الضباط بالدخول بهما إلى السجن وجعلا يطوفان بجميع المجرمين ويسألان عن كل مجرم وجريمته، ولا سيما تلك المرأة الحسناء التي لم يسع الضابط إلا إجابتها.

وكانت المرأة تبدو بمظاهر الغنى العظيم فتشتري كل ما يعرض للبيع في السجن وتدفع ثمنه بسخاء.

وكان مما اشترته جزدانًا كبيرًا من الصدف لوضع النقود فيه، فأخرجت من جيبها خمسين جنيهًا مزدوجًا ووضعتهما في الجزدان دون اكتراث، ثم أعادته إلى جيبها ومشت مع زوجها وذلك الضابط الذي فتن بسحر عينيها إلى أن بلغت إلى بونفير صاحب حكاية الكلب ورأته مقيدًا بأصفاد ثقيلة، فرثت لبلواه وسألته عن شأنه وعن السبب في المبالغة بالتضييق عليه.

فبكى وقال: إنني يا سيدتي لم أرتكب جريمة تستحق هذا العذاب الشديد وإنما قيدوني بهذا القيد الثقيل الذي لا تحتمله الحيوانات الضارية لأنهم يخشون أن أقتل وكيل السجن، ثم ذكر لها بملء البساطة حديث كلبه والدموع تنهل من عينيه، وختم كلامه بقوله: إنه صفح عن قاتله منذ زمن بعيد، ولكن الحكومة لا تزال تخشاه وتعاقبه بهذا القيد المتين.

فتأثرت الإنكليزية تأثرًا غريبًا وشفعت به إلى الضابط، فوعدها خيرًا وتعهد لها بأن يحمل المدير على إنقاذه من قيده.

ثم سارت مع الضابط تتفقد المسجونين حتى أوشكت أن تقترب من ١١٧ ورفيقه ميلون، فنظر إليها ١١٧ وقال لرفيقه:

– كيف تجد هذه المرأة؟

– أي امرأة؟

– هذه الإنكليزية القادمة إلينا.

– إنها في غاية الحسن.

– هذه هي بعينها.

– كيف هي؟ ألم تقل لي إنها شقراء الشعر، فأصبح شعرها أسود؟

– سيعود إلى أصله غدًا؛ لأن من يكون في خدمتي فلا بد له أن يكون ماهرًا في التنكر.

وبينما كان الاثنان يتحدثان عنها بصوت منخفض دنت منهما وقالت إلى الضابط مشيرة إلى المائة وسبعة عشر: أي ذنب جناه هذا الشاب الجميل فاستحق هذا العقاب؟

قال: إنه يا سيدتي أشهر رجل بين المجرمين ولست أعلم حكايته فإن المدير يعرفها وهو يخبرك عنها دون شك، ولكننا مأمورون بالمحافظة عليه ومراقبته مراقبة شديدة، دون رفاقه، في حين أنه لم يحاول مرة الإفلات من سجنه.

فلم تجب الإنكليزية وتظاهرت بعدم الاهتمام بشأنه، ثم تأبطت ذراع زوجها، وبينما كان الضابط يسير أمامهما أخرجت الجزدان الذي وضعت فيه المائة فرنك وألقته حيث كان يشتغل السجين فوضع رجله فوقه وبعد حين التقطه.

أما الإنكليزية وزوجها فإنهما أتمَّا دورتهما في السجن إلى أن فرغا مما أتيا لأجله، فودعت الإنكليزية الضابط بعد أن شفعت مرة ثانية بصاحب حكاية الكلب، ثم دعته إلى مناولة طعام المساء عندها في الفندق المقيمة به مع زوجها، فاحمر وجهه لاضطرابه وانحنى أمامها شاكرًا، فابتسمت له خير ابتسام وخرجت مع زوجها من ذلك السجن.

وفي صباح اليوم التالي دعا مدير السجن بونفير وقال له أتحسن السلوك إذا أفرجت عنك، ولا تحاول الاعتداء على الوكيل؟

فبكى بونفير وقال له: بكل تأكيد يا سيدي لأني صفحت عنه كل الصفح وقد كفرت بما لقيته من العذاب عن ذنب عدواني القديم.

فأمر المدير أن تحل قيوده وأن يشتغل مع المحكوم عليهم بالسجن للموت.

١٣

في صباح اليوم التالي صحا ميلون من رقاده ونادى رفيقه بلقب السيادة كما يناديه نويل وقال له: ألم تحن ساعة الفرار بعد؟

أجابه ١١٧: كلا، ولكنها باتت قريبة.

– متى تكون هذه الساعة؟

– لا أدري فإن أمرهما متعلق بمجرى الحوادث.

فتنهد ميلون وقال: إني لا أحب الفرار من أجل نفسي بل من أجل هاتين الفتاتين القاصرتين.

– كن ناعم البال لأن يوم الخلاص بات قريبًا.

وعند ذلك دنا منهما الوكيل ووزع عليهما الطعام، وكان هذا الوكيل يدعى موسلت، وهو عدو بونفير الألد، غير أن بونفير أبر بوعده فإن الوكيل مر من أمامه عدة مرات، فلم يهجم عليه بونفير واكتفى بأن أدار له ظهره كي لا ينظر إليه.

ولما دنت فرصة الظهر ذهب أولئك المسجونون إلى ظهر باخرة كانوا يشتغلون بإصلاحها وأقاموا فيها يصرفون وقت الظهر بالمنادمة والمسامرة.

فقال أحدهم: إن الكوكوديس لم يحضر اليوم وستفوتنا حكايته اللطيفة.

وأجابه آخر: لا تطمع بحكايته بعد الآن لأنه منقبض الصدر لسفر خليلته.

فقال ١١٧: إني أحكي لكم حكاية روكامبول أحسن مما يرويها الكوكوديس إذا شئتم أن تصغوا إلي.

فصاحوا جميعهم بصوت واحد: روكامبول، روكامبول.

وكان موسلت وكيل السجن مضطجعًا بالقرب منهم فانزعج لصياحهم وقام إليهم بالسوط منهالًا عليهم بالضرب، وكان أخص ضربه للمائة وسبعة عشر ولبونفير؛ لأنه كان يكرهما كرهًا شديدًا، فأزبدت شفتا بونفير من الغيظ غير أن المائة وسبعة عشر نظر إليه نظرة سرية كانت كالبلسم لجراحه فعادت إليه مظاهر السكينة.

أما ١١٧ فإنه قال لرفقائه بعد انصراف الوكيل: لا سبيل إلى قص حكاية روكامبول اليوم وسأرويها لكم في يوم آخر.

ثم انزوى مع رفيقه ميلون وجعل ينظر إلى سفينة حربية روسية كانت في الميناء، وقد نزل منها ١٢ جنديًّا وضابط وتلميذ فكان التلميذ ينظر إلى المسجونين نظر الفاحص.

فقال الـ ١١٧ لرفيقه ميلون همسًا: انظر إلى هذا التلميذ البحري فإنه المرأة الإنكليزية التي زارتنا أمس.

ولما مر أولئك البحارة بالقرب من المسحونين حياهم الـ ١١٧ باللغة الروسية فعجب منه ميلون وقال: أتعرف اللغة الروسية؟

– إني أعرف جميع اللغات الشائعة.

أما التلميذ البحري فإنه اختلط بالمسجونين وجعل حديثه خاصة مع ١١٧ فقال له أحد رفقائه في السجن: إذا كنت تعرف اللغة الروسية فسله عن أخبار سباستبول.

فسأله ١١٧ باللغة الروسية قائلًا: أأحضرت ما أوصيتك به؟

فأجاب بالروسية: نعم أيها الرئيس إنك أمرتني فأتيت.

فسأله السجين: ماذا يقول؟

– يقول إنه ما زال الذين يحاصرون سباستبول كسالى مثلك، فإنها لا تؤخذ.

ثم رجع ١١٧ إلى التلميذ وقال له بالروسية: ألعل السفينة مهيأة؟

أجابه باضطراب في صوته: نعم، كل شيء قد تهيأ.

– لماذا هذا الاضطراب ألعلك خائفة؟

– نعم لقد بت وجلة على هذا المسكين الذي سندفعه إلى ارتكاب الجريمة.

– إنك مخطئة ونعم إن بونفير سيقتل الوكيل العاتي ويحكم عليه بالإعدام ولكني سأنقذه من الموت.

– أأنت واثق مما تقول؟

– كل الثقة لأني كل ما أريده أقدر عليه.

وفيما هو يكلم فاندا إذ رجع منذعرًا لأن الوكيل موسلون ضربه بسوطه ضربة شديدة أعادت الزبد إلى شدقي بونفير، وإنما ضربه لأنه كان يكلم رجال البحرية الروسية.

أما التلميذ البحري أي فاندا فإنه اعتذر إلى الوكيل وقال له: إني سررت به لأنه كلمني بلغة بلادي فذكرني أهلي ووطني.

ثم أكب على عنق ١١٧ يعانقه ببساطة الأطفال، فانهال الوكيل على السجين بالضرب، ولكن التلميذ كان وضع في قميص السجين مدية طويلة وانصرف إلى رفقائه البحارة.

وبعد حين عاد المسجونون إلى العمل فأشار الـ ١١٧ إشارة خفية إلى بونفير فهم مرادها ودنا منه فقال ١١٧: ألا تزال مصرًّا على قتله؟

– لا راحة لي بغير قتل هذا الشرير.

– أتعلم ما وراء ذلك من المخاطر؟ فإنهم يقتلونك على أثر قتله.

– إني راض بإعدامي لأن موتي خير لي من حياته.

وعند ذلك أعطاه ١١٧ المدية فاتقدت عينا بونفير بشرر الانتقام الوحشي وقال: سأجد لهذه المدية خير غمد في صدر هذا الأثيم.

١٤

وفي الليل بينما كان المسجونون نيامًا كان الـ ١١٧ وميلون يتحادثان بصوت منخفض، فقال ميلون: إني لم أعلم شيئًا من قصدك يا حضرة الرئيس.

– لا بأس إذ ينبغي أن تتعود أن تخضع دون أن تعلم ولكني سأوضح لك قصدي في هذه المرة فقط، اعلم أني كنت محتاجًا إلى امرأة تساعدني على تنفيذ خطتي وقد وجدتها.

– إنها خير امرأة صالحة لخدمتك، لقد رأيت من جرأتها ومهارتها في التنكر ما أذهلني ولكني لا أزال محتارًا في أمر دخولها إلى القلعة ووجودها في مركب روسي حربي.

– إنه أمر سهل، وذلك أنها روسية المولد وتنكرت أول أمس بملابس الغلمان، وسافرت عند منتصف الليل إلى مرسيليا حيث وجدت فيها تلك السفينة الحربية.

أما طريقة اتصالها بها فهي أن نويل عثر بأوراق غلام روسي من البحارة توفي منذ شهرين في مستشفى طولون، فأخذت منه هذه الأوراق وذهبت بها إلى السفينة الروسية وطلبت إلى قومندانها أن يعيدها إلى وطنها، فأمرها القومندان وهو يحسبها غلامًا أن تنضم إلى سلك البحارة، وعلى ذلك وصلت إلى طولون وتمكنت من مخابرة أصحابي في الميناء.

فانذهل ميلون وقال: ألك أصدقاء في الميناء؟

– نعم وهم في سفينة كبيرة سأكون ربانها.

– إني لو لم أكن رأيتك بعيني خرجت من السجن لما كنت أصدق ما تقول، وكنت حسبت كلامك ضربًا من الجنون. والآن فإني مؤمن بكلامك واثق من أن لك سفينة في الميناء، ولكن متى يكون فرارنا من هذا السجن؟

– أتظن أيها الرفيق أن النجاة من سجن طولون يكفي فيها قطع القيود ومغافلة الحراس.

– إن جميع رفقائنا يهربون بهذه الطريقة.

– وكلهم مخطئون لأن الرقباء عندما يشعرون بفرار السجين ينبهون المدينة بإطلاق مدفع، ثم ينتشر الرقباء والأرصاد في المدينة فلا يمسي المساء حتى يعثروا على الهارب ويعودوا به إلى السجن، وقد ندر أن ينجو أحد من قبضتهم بهذه الطريقة. أما أنا فإني أردت الخروج من السجن ولا أريد الرجوع إليه، ولهذا فإني أهيئ أسباب الفرار منذ خمسة أيام، وكن واثقًا أننا متى بتنا خارج السجن لا يقف أحد على أثرنا.

– ذلك قد يتفق لك وأما أنا …

– وكذلك أنت فقد جعلتك من رجالي الأخصاء وعولت على أن لا أفترق عنك، ومتى وعدت فلا أنكث.

فتنهد ميلون وقال: وا رحمتاه للفتاتين.

– دع الآن الإصغاء للعواطف وأصغ إلي، فقد قلت لك إني كنت محتاجًا إلى امرأة تعينني في قضاء مآربي وقد وجدتها وأريد أن تكون عبدة لي.

ثم حكى لميلون حكاية فاندا الروسية وكيف أنها جاءت إلى طولون بغية إنقاذ واحد من الذين حكم عليهم بالإعدام.

فعجب ميلون وقال: وماذا يهمها إنقاذه؟

– إنها نذرت نذرًا أمام قبر رجل تحبه وهو إنقاذ رجل من الإعدام ولا سبيل إلى استعبادها إلا بعد وفاء النذر.

– لقد بدأت أفهم الآن ولكن هل أنت واثق من إنقاذ بونفير؟

– لا شك عندي بذلك.

– أتعلم أن نظام السجن يقضي على المجرم الذي يقتل موظفًا بأن يتلى الحكم عليه بعد ٢٤ ساعة.

– هذا الذي أعتمد عليه في حسابي أليس اليوم الإثنين؟

– الإثنين مساء.

– أظن أن الوكيل يقتل في هذه الليلة.

– وبعد ذلك؟

– يصدر الحكم على بونفير يوم الأربعاء وتنصب المشنقة يوم الخميس، فلنفرض أنه حدث حادث في السجن يوم الخميس حال دون إنفاذ الحكم.

– إذن الإعدام ينفذ الجمعة.

– كلا إن يوم الجمعة لا ينفذ فيه إعدام لأنهم يعتبرون أن المسيح مات في يوم الجمعة فلا يُقتل فيه المجرمون.

– على ذلك إن الإعدام ينفذ يوم السبت.

– ولكننا يوم السبت نكون قد بعدنا عن ساحة الإعدام.

– أين نكون؟

– في عرض البحر على ظهر سفينتي، ولقد فاتني أن أقول لك إني نشأت بحريًّا، بحيث أستطيع أن أطوف جميع البحار دون أن تجنح السفينة التي أديرها.

– أأكون معك؟

– دون شك.

– وفاندا؟

– ستكون معنا.

– وبونفير؟

– وبونفير أيضًا لأني محتاج إليكم جميعًا.

– إني لا أفهم شيئًا مما تقول.

– ذلك خير لك إذ يجب أن تتعلم الامتثال دون أن تفهم كما قلت لك، ثم رجع ١١٧ وجعل يتنصت.

فقال له ميلون: ماذا تصنع؟

– إني أصغي إلى صوت المبرد بيد بونفير لأنه يبرد قيده به.

– ألعلك أعطيته مبردًا؟

– نعم، فإن إحدى شفرتي المدية التي أعطيته إياها مبرد يصلح لكسر القيود.

وعند ذلك دقت الساعة العاشرة فقال ١١٧ لرفيقه: دعني أنام الآن، وسأصحو حين قدوم المفتش. ثم أغمض جفنيه وانقطع عن الكلام.

وكانت العادة في سجن طولون أن المفتش والحداد يطوفان كل ليلة عند منتصف الليل فيفحصان قيود المسجونين حذرًا من فرارهم، وكان المفتش موسلون عدو بونفير، والحداد نويل صنيعة ١١٧.

فلما انتصف الليل أقبل المفتش يحمل مصباحًا ونويل يحمل مطرقة، وجعلا يوقظان المساجين دون إشفاق فيطرق نويل قيد كل واحد منهم فيعلم من صوت الحديد إذا كان سالمًا أو مكسورًا.

وما زالا على ذلك حتى انتهى الدور إلى بونفير، وكان نويل عارفًا بالمكيدة فلما طرق قيد بونفير نهض وتراجع منذعرًا إلى الوراء بحيث أصاب عن عمد مصباح المفتش، فسقط من يده وانكسر، وعند ذلك هب بونفير من مرقده والمدية بيده فانقض على موسلون، ولم يسمع في سكون ذلك الليل غير صوت نزاع تنبه له جميع المساجين.

ثم تلاه صياح ألم شديد عقبه صوت انتصار، وكان صياح الألم من المفتش وصياح الانتصار من بونفير، وقد طعنه في صدره عشر طعنات كانت القاضية عليه، وجعل يمشي في قاعة السجن ظافرًا مختالًا وهو يقول: أخذت بثأر كلبي الأمين.

فقال ميلون لـ ١١٧: إنه غير مكترث لشيء لفرط اعتماده عليك.

– كلا، بل إنه غير مكترث للموت لأنه لم يعلم أني سأنقذه.

١٥

كان قتل بونفير للمفتش ليلة الإثنين، وفي صباح الثلاثاء وقف بونفير أمام القضاة لمحاكمته.

وكان ثلاثة يجتهدون في إنقاذه من الإعدام وإطلاقه من السجن، وهم ميلون ونويل الحداد و١١٧.

غير أن بونفير كان يجهل هذه المساعي كلها، فكان يتوقع الموت مطمئنًا غير خائف، ولما سأله القاضي عن سبب الجريمة، أخبرهم بحقده القديم على المفتش بملء السكينة والبساطة، فحكموا عليه بالإعدام وتقرر إنفاذ الحكم بعد أربع وعشرين ساعة.

وانتشر الخبر بين المجرمين فاستاءوا له استياء شديدًا، وكانت علائم الانقباض بادية على وجوههم، ولما اجتمعوا في فرصة الظهر لم ينبِس أحد منهم بكلمة لما نالهم من الغم والكآبة، فإن الإعدام كان يروع أولئك المجرمين الذين لم ينجوا منه إلا بالقدر والاتفاق.

وقد دار في خلد كثيرين منهم قتل الحراس والإفلات من السجن، ولما مثلت أمامهم تلك الحادثة برفيقهم بونفير وجفت قلوبهم وانكمشوا، إذ لا شيء يرهب المجرمين مثل الحكم بالإعدام.

والعادة في سجن طولون أن الآلة الخشبية التي توضع عليها آلة قطع الرأس يبنيها المساجين أنفسهم كي يكون ذلك أبلغ في الاعتبار، وكان الجلاد منهم، غير أن المساجين لم يكونوا يشيدون هذه الآلة إلا مكرهين بضرب العصي.

أما الجلاد، فقد كان شر هؤلاء المنكودين تعاسة لأنه يقضى عليه بعد توليه هذه المهنة، أن يعيش منعزلًا منفردًا عن رفقائه ولا يجد منهم غير الازدراء والاحتقار.

وهذا ما أصيب به جلاد السجن في عهد هذه الرواية، فإنه طالما توسل إلى مدير السجن أن يولي سواه مهمة الإعدام لما لقيه من احتقار إخوانه، فأبى عليه لأن قوانين السجون تقضي على الجلاد أن لا يعتزل منصبه حتى الموت.

فلما انتشر خبر الحكم على بونفير بالإعدام خرج هذا الجلاد عند فرصة الظهر وجلس واليأس ملء قلبه بمعزل عن إخوانه وقد جلس القرفصاء غير مكترث لحرارة الشمس، ووضع رأسه بين يديه يفكر بما يلقاه من متاعب السجن ومن احتقار رفقائه له.

وفيما هو على ذلك سمع صوت رجل يناديه فالتفت فإذا هو ١١٧ يصحبه ميلون رفيقه بالقيد، فنظر إليه ١١٧ نظرة انذهال وقال له: ماذا تصنع هنا أيها الرفيق وكيف أنت منعزل عن الرفقاء؟

– إني منعزل اليوم كما كنت منعزلًا أمس وسأكون على ذلك إلى ما شاء نكد الطالع، غير أني أعجب لسؤالك ألعلك لا تعلم من أنا؟

– إنك تدعى جواني الجزار.

– كلا، بل إني أدعى جواني الجلاد.

– وقد قدر عليك أن تعيش منفردًا.

– ما زلت في هذا السجن وا أسفاه.

– أحُكِمَ عليك بالسجن المؤبد؟

– نعم.

– كم عمرك؟

– أربعون.

– وأي ذنب جنيت فأصبحت من زمرتنا؟

– قتلت امرأتي في ساعة ذهب السكر بعقلي، فحكم علي بالسجن طول العمر وشتان بيني وبينكم فيه، فإنكم تجدون بعض السلوى بما تتجاذبونه من الأحاديث، أما أنا فإني مضطهد من الجميع فلا يكلمي أحد.

– لماذا لا تهرب؟

– كيف أستطيع الهرب إذا لم يكن لي رفيق يساعدني عليه وقد قدر لي أن أموت في هذا السجن جلادًا ممقوتًا مغضوبًا عليه من الله والناس؟

– لا تقنط فإن سجنك قد لا يكون أبديًّا.

فاضطرب الجلاد وقال له: ماذا تعني بذلك؟

فلم يجبه ١١٧ على سؤاله وقال له: إنك تتألم كثيرًا لندور الصديق فماذا تعطي صديقًا يمد إليك يده ويصافحك.

– أعطيه نصف دمي.

– إذن هذه يدي أمدها لمصافحتك.

فاضطرب الجلاد وصافحه والدمع يجول في عينيه وهو يقول: من أنت أيها الرجل المشفق؟

– أنا الذي يسمونني مائة وسبعة عشر.

ثم جعل ينظر إليه تلك النظرات الغريبة التي أخضع بها فاندا الروسية وقال له: إني أتيت لألقي في نفسك القانطة بذور الرجاء.

– وا أسفاه لقد فقدت كل أمل.
– كلا، وسأجعلك حرًّا كما تشاء.
– وماذا تطلب مني في مقابل ذلك.
– أن تمتثل لي في كل ما أريد.
– بل أكون لك عبدًا ما حييت.

١٦

لم تكد تبلغ الساعة الثالثة بعد منتصف الليل حتى صاحت الأبواق في إحدى قاعات السجن، تدعو المجرمين فيها إلى بناء آلة الإعدام، فاضطرب المجرمون ولكن لم يسعهم إلا الامتثال مكرهين، وجعلوا يشتغلون متباطئين متوانين، وكانت السياط تبلغ من ظهورهم أكثر ما تبلغ أيديهم من الآلة.

وكان الجلاد واقفًا بعيدًا عنهم ينتظر فراغهم من العمل كي يضع تلك السكين الهائلة التي جعل يشتغل طول الليل مع أعوانه بشحذها.

ولما فرغوا من العمل وضع الجلاد السكين في موضعها وأراد تجربتها، فأتى بحزمة عظيمة من القش ووضعها حيث يوضع رأس المجرم، ثم أدار لولبًا فهوت السكين وبرت تلك الحزمة بري القلم فسُر بها وأظهر استحسانه.

وعند ذلك طلع الصباح فتفرق المجرمون وبقي الجلاد واقفًا أمام الآلة يحرسها؛ لأن الإعدام تقرر أن يكون عند الظهر، وإنما هم ينصبون آلة الإعدام قبل حين كي يكون منظرها الهائل عبرة للمجرمين.

وبعد ساعتين جاءوا بجميع المجرمين وجعلوا يمرون بهم أمام تلك الآلة الرهيبة، فلما وصل إليها ميلون أدار وجهه كي لا يراها فتنبه له ١١٧ وقال له: ألعلك خفت؟

– هو الحق ما تقول ومن لا يخاف هذه الآلة القاضية، ألم يتقرر الإعدام عند الظهر؟
– نعم، لم يبق لتنفيذه غير القليل فكيف ترجو إنقاذه بعد؟

فهز المائة وسبعة عشر كتفيه وقال له بعظمة وكبرياء: إني إذا وعدت وعدًا أفي به دون شك.

– غير أن بونفير لم يكن يؤمل النجاة من الموت وقد سمع تعزية الكاهن له بسكينة في البدء، ثم كان كلامه قد أثر عليه وزالت من قلبه تلك الأحقاد القديمة التي دعته إلى الانتقام وذكر جريمته الشنعاء فندم وجعل يبكي بكاء الأطفال، ثم هاجت به عاطفة

الكبرياء فقال للكاهن: لا تحسب أني أبكي لخوفي من الموت، بل إن بكائي لإشفاقي على ذلك الرجل الذي قتلته انتقامًا للكلب.

وعند ذلك دخل إليه في سجنه الجلاد واثنان من أعوانه وجردوه من ملابسه وألبسوه اللباس الخاص بموقف الإعدام، ثم أوثقوا يديه وراء ظهره وثاقًا متينًا وأوثقوا رجليه بقيد طويل بحيث يستطيع المسير، ولم يكن باقيًا لموعد القتل غير سبع دقائق، فخرجوا به وهو يمشي متثاقلًا والكاهن يتلو عليه أرق عبارات العزاء، حتى وصلوا به إلى تلك الآلة الرهيبة.

وكان جميع الموظفين في السجن، وجميع المجرمين راكعين حول المقصلة، وقد ساد السكوت في تلك الساعة الرهيبة، حتى لم يكن يسمع غير تردد الأنفاس، وقد نصبت أربع مدافع محشوة بالقنابل الضخمة في محلات مرتفعة من الجهات الأربع، فكانت أفواهها مصوبة إلى أولئك المجرمين الراكعين، وكان يحيط بهم فرقة من العساكر وبنادقهم مصوبة إليهم أيضًا، وكان جميع ذلك مما يزيد في رهبة تلك الحفلة الهائلة.

وقد وضعوا بين المجرمين وبين الآلة تابوتًا وقف حوله فريق من الرهبان لأخذ جثة المجرم بعد إعدامه.

فلما صعد بونفير الدرجة الأولى من درجات الآلة نظر إلى تلك المناظر الرهيبة نظرة واحدة هلع لها فؤاده وكاد يسقط لاضطرابه فساعده الكاهن على الصعود.

وكان اثنان من المجرمين راكعين قرب المقصلة وهما يتحدثان همسًا، فنظر إليهما بونفير وعرف أنهما الـ ١١٧ وميلون وقال لهما: الوداع أيها الصديقان واذكراني خيرًا بعد الموت.

ثم صعد درجة من تلقاء نفسه وقد أعاد إليه هذا الكلام بعد النشاط.

أما ميلون فكان شديد الاضطراب وكان يقول بصوت منخفض للـ ١١٧: ألا ترى أيها الرئيس أنه بلغ آخر درجات المقصلة فأي أمل ترجوه بعد؟

فقال له: اسكت.

غير أنه عندما نزل الكاهن وبقي المحكوم عليه اضطرب ١١٧ اضطرابًا خفيفًا وحدق بنظره إلى السكين القاطعة التي كانت تتكسر عليها أشعة الشمس، وأدار الجلاد لولب تلك السكين.

١٧

وعند ذلك سقطت تلك السكين الهائلة تهوي على رقبة ذلك المسكين، فأغمض جميع الناظرين عيونهم كي لا يروا هذا المنظر الرهيب ولم يبق مفتح العينين غير المائة وسبعة عشر الذي كان ينظر محدقًا إلى الآلة.

ومرت هذه الحادثة التي تكتب عنها المجلدات بثانية واحدة، ولما فتح المجرمون أعينهم رأوا أن السكين قد هوت ولكن الرأس لم يقطع، ذلك أنها لقيت حاجزًا قبل بلوغها إلى رأس المجرم بنحو شبر فقط.

فأجفل الجميع لهذا السر الغريب الذي لم يدرك غوامضه غير الـ ١١٧ دون سواه.

وأعاد الجلاد السكين إلى موضعها القديم ثم أدار اللولب ثانية فلم يبلغ إلى الرأس ووقعت في موضعها الأول.

فأنَّ بونفير أنين الرياح، واضطرب المجرمون وجعلوا يصيحون بأصوات مختلفة، وأسرع مدير السجن وأمر بإخراج بونفير إلى أن ينظروا في شأن الآلة والسبب في تعطيلها، وإنما فعل ذلك رفقًا بهذا المسكين وحذرًا من ثورة المجرمين.

وجعل ١١٧ يمسح عن وجهه العرق البارد وقال لميلون: لقد عشت في دقيقة مائة عام وعسى أن يغفر لي الله يومًا من الأيام.

أما بونفير فإنه أغمي عليه فحمله رفقاؤُه إلى الغرفة المعدة لسجنه، ورجع المجرمون إلى زنزاناتهم.

وعاد موظفو السجن إلى فحص الآلة، فوجدوا أن العمال الذين صنعوها قد عطل أحدهم مسير السكين بما وضعه في سبيلها من العوائق، وقد وضعها بحذق وتدبير بحيث إنهم باتوا مضطرين إلى صنعها مرة ثانية لتعذر إصلاحها، وهذا ما كان يقصده ١١٧ من تعطيلها؛ لأن ذلك كان من صنعه دون أن يشعر به أحد.

ولما خلا برفيقه ميلون قال له: إن بونفير بات واثقًا من أنهم لا يعدمونه اليوم.

قال ميلون: ولكنهم يعدمونه غدًا.

– غدًا الجمعة.

– إذن يعدمونه السبت.

– إذا وجدوه في السجن فليعدموه.

وذهبوا ببونفير إلى سجنه كما قدمنا، وهو سجن خاص بالمحكوم عليهم بالإعدام يبلغ عمقه ٣٠ قدمًا في جوف الأرض.

ولما صحا من إغمائه جعل يفكر في أمره، وهو تارة يسر بنجاته من الإعدام ثم لا يلبث أن يفتكر أن ذلك إلى حين حتى يتولاه القنوط.

وبعد ساعة جاءه الحرسي بالطعام فعاد إليه السرور وقال في نفسه: سأعيش ساعة أيضًا على الأقل، وجعلت الساعة تتلو الساعة حتى خيم الظلام وعاد إليه الحرسي بالطعام، فأكل بشهية وقال: إن الإعدام لا يجري في الليل وسأبقى حيًّا إلى الصباح.

وما زال يتقلب على فراشه الخشبي وهو لا يستطيع رقادًا إلى أن انتصف الليل فسمع صوتًا متصلًا يشبه صوت المطرقة على السندان، فأصغى إلى الصوت فوجد أنه متصل وأنه يدنو منه.

ودام ذلك نحو ساعتين والصوت يدنو منه حتى أيقن أنهم يحفرون نفقًا تحت غرفته.

وبعد حين سمع أن الصوت بلغ أرض المكان النائم فيه فنهض منذعرًا، وما لبث أن رأى حجرًا ضخمًا سقط من الأرض، فانفتحت هوة وبرز منها رأس إنسان.

١٨

وكان على هذا الرأس قبعة بحرية، وبعد الرأس ظهر الكتفان ثم اليدان ثم صعد الرجل بجملته فوضع مصباحه على الأرض ووقف أمام بونفير.

فصاح بونفير صيحة انذهال وقال: أهذا أنت وكيف أتيت؟

– نعم أنا هو الذي يدعونه ١١٧ فإذا أردت أن تبقى حيًّا فاسكت واتبعني دون إمهال فإنهم بعد أربع ساعات يأتون للبحث عنك فإذا وجدوك أعدموك لأنهم أصلحوا الآلة، وليس لدي وقت لتعطيلها مرة أخرى، أعلمت الآن كيف نجوت؟

أما بونفير فلم يفهم شيئًا لأن الهذيان تولاه فقال له: لا أعلم إلا أنني من الأموات، وكل ما أراه الآن فهو في العالم الأخير.

وعلم ١١٧ أنه مصاب بالحمى والهذيان فقال له: إذا كنت قد أصبت بالجنون فذلك لسوء حظك ولكن لا بد لي من إنقاذك وسأنقذك.

ثم حمله وألقاه في الهوة فصاح متألمًا، غير أن سقوطه رد إليه صوابه فجعل ينظر إلى المكان الذي هوى فيه، فعلم أنه في نفق حفر حديثًا، وكان المائة وسبعة عشر قد نزل إلى الهوة في أثره ورأى ما كان من فحصه فقال: أعرفت الآن؟

– نعم فإنك أتيت لإنقاذي.

– إني واثق من إنقاذك إذا كنت تتبعني حيث أريد.

– ولكن إلى أين أنت ذاهب بي؟

– تعال ولا تسل إنما أنظر إلى هذا النفق فإنه يقتضي لحفره خمسة أيام، ولا تُضع الوقت عبثًا.

– وكل ذلك من أجلي؟

فلم يجبه المائة وسبعة عشر بل إنه كسر له قيوده. وقال له: لقد بت حرًّا الآن فاتبعني.

وجعل الاثنان يسيران في هذا النفق الطويل، وكلما مشيا بضع خطوات يقف ١١٧ مصغيًا، ثم يستأنف المسير فيسير بونفير في أثره، حتى رأيا أن طريق النفق أخذ بالارتفاع فقال له المائة وسبعة عشر: أتعلم أين نحن الآن إننا تحت أسوار القلعة.

وبعد أن مشيا عشرين دقيقة اتسع النفق وهب هواء بارد فأطفأ ١١٧ المصباح والتفت إلى رفيقه وقال: أسرع بالسير فإن الهواء هذه الليلة موافق للفرار وقد فتحت أبواب السماء فانهالت منها الأمطار كعهد الطوفان.

وبعد بضع دقائق وقف ١١٧ وأطل بونفير رأسه من ورائه فعلم أن هذا النفق ينتهي عند شاطئ البحر وسمع صوت تكسر الأمواج.

وكان الظلام حالكًا والبحر هائجًا والسماء تمطر مطرًا غزيرًا، فقال ١١٧: أتعرف السباحة؟

– كنت تعلمتها في حداثتي.

– إذن فاخلع ثيابك فإن السباحة لا تنسى وخير لك أن تموت غرقًا من أن تموت بيد الجلاد ومع ذلك فسأعينك، لا تخف.

ثم التقط حبلًا كان موضوعًا على باب النفق فربط به وسطه وأعطى طرفه لبونفير وقال له: أمسك هذا الحبل، فما زال بيدك فلا تغرق.

وامتثل بونفير وألقى الاثنان نفسيهما في البحر العجاج وهما لا يعلمان كيف يسيران لشدة هياج الأمواج، وسواد الليل، فإن السفينة التي عزم ١١٧ على الفرار بها كانت بعيدة عن الشاطئ حذرًا من التطامها بالصخور، وكانت جميع أنوارها مُطفأة مبالغة في التكتم.

غير أن ١١٧ كان يسمع من حين إلى حين صفيرًا يخرج من تلك السفينة، فيهتدي إليها ويسير إلى الجهة التي يخرج منها الصوت.

وما زال يصادم تلك الأمواج وتصادمه حتى وصل إلى قارب صغير بعد أن كاد يشرف مع رفيقه على الغرق.

وعند ذلك أنزلوا إليهما مجذافًا فصعد عليه إلى الزورق، وكان فيه ميلون رفيق ١١٧، وجواني الجلاد، فأجفل بونفير لمنظره وتراجع منذعرًا إلى الوراء.

فطيب ١١٧ خاطره وقال له: طب نفسًا فإنه لم يأت إلى السفينة كي يقتلك فيها بل ليهرب معك عليها.

١٩

وجعل الزورق يسير إلى السفينة التي أعدها ١١٧ للفرار حتى بلغ إليها وصعد جميع من في الزورق.

وكان أول من استقبل ١١٧ فاندا الروسية وهي بملابس بحار صغير، فعانقته وهي تبكي من سرورها به وتقول: لقد نجوت بحمد الله.

فقال لها ١١٧ بسكينة: بل نجونا جميعًا.

– إذن مُر الربان بأن يقلع بالسفينة، فلم يعد لنا عمل بهذا الميناء الخطر.

– هو ما تقولين، بل يجب علينا السرعة بالخروج منها قبل الصباح وقبل أن يعلموا بأمرنا.

ثم نادى الربان وأخبره كيف يجب أن يسير ونزل مع فاندا إلى غرفة كانت معدة له في السفينة وقال لها: كيف رأيت ألم أفِ بوعدي؟

فركعت أمامه وقالت: نعم ولهذا فإني سأطيعك كما يطيع العبد مولاه.

– أتعلمين أين نحن ذاهبون الآن؟

– سيان عندي فإني أتبعك أين سرت.

– إننا ذاهبون إلى إيطاليا ومنها إلى باريس.

فأجفلت وقالت: إلى باريس؟

– ذلك لا بد منه فإن القدر يدفعني إلى تلك العاصمة.

فأحنت رأسها ثم نظرت إليه وقالت: أيها الرئيس إني حكيت لك قصتي أفلا تحكي لي قصتك؟

– وأية فائدة من ذلك؟

ثم رفع نظره إلى تلك السماء السوداء المتلبدة بالغيوم وجعل يتأملها كأنه يذكر بها ماضيه، ثم أخذ يد فاندا بين يديه وقال: إني كنت شرًّا من ذلك الرجل الذي كنت تبكينه فقد كنت لصًّا سفاكًا، فارتكبت من المنكرات والموبقات ما أستحق لأجله ألف موت، غير

أن هذا القلب الملطخ بالمآثم والعار، قد دخلت إليه عاطفة شريفة، بإذن الله، فأضاءت كما يضيء النجم في خلال العواصف.

أسمعت مرة بحديث ذلك الرجل المدعو كونيسار، ذلك الرجل الأثيم الذي دعا نفسه كونتًا وهو من شر اللصوص، وكان يحمل على صدره أوسمة الشرف، وفي نفسه الخزي والعار؟ إني مثلت دور هذا الرجل ثلاثة أعوام فسرقت اسم رجل نبيل وتلقبت باسمه، فشغلت باريس بحديث ظرفي وبسالتي وكرم أخلاقي دهرًا طويلًا، حتى لقد أوشكت أن أكون من عظماء الإسبان.

وقد أحبني امرأتان طاهرتان وهما أم ذلك النبيل الذي سرقت اسمه وأخته فأفضى بي الأمر إلى حبهما كأمي وأختي، أما الأولى فقد انتقلت إلى رحمة الله، وأما الثانية فلا تزال عائشة في باريس، وإني مستعد لسفك دمي من أجلها.

فقالت فاندا: ألعلها علمت بعقابك؟

– كلا، فقد وجدوا أخاها ولكنها ما رأته، فإن الذين فضحوني وعاملوني بملء القسوة خافوا عليها من الفضيحة وعاملوها بملء الإشفاق، فأرسلوني إلى السجن، وأرسلوا شقيقها الحقيقي إلى الهند مع امرأته التي كنت عازمًا على الزواج بها، وهي تعتقد الآن أني في الهند.

– وهل رأيتها بعد ذلك؟

– نعم رأيتها في سجن قاديس قبل أن ينقلوني من سجن إسبانيا إلى سجن باريس فأشفقت علي إشفاقًا شديدًا دون أن تعرفني لأني كنت مشوه الوجه، وقد مضى على ذلك عشرة أعوام.

– وأنت تريد الرجوع إلى باريس لتراها؟

– أعندك شك في ذلك، فإني سأبالغ في التنكر كي لا تعرفني، وأقيم بجوارها فأراها كل يوم، لا سيما بعد أن عرفت بأن أخاها غير عازم على العودة من الهند.

– ومتى عرفت ذلك؟

– منذ ثمانية أيام ولذا رضيت بالفرار بعد أن أقمت بالسجن عشرة أعوام، ولم يكن أسهل علي من الفرار منه، كما رأيت لأنني علمت الآن أنها لم تعرف الحقيقة، وأن أخاها لم تره ولن تراه.

وفيما هو يتكلم قدم إليه ميلون مسرعًا وقال: أدركنا أيها الرئيس فإن السفينة عبثت بها الرياح وقد غلت أيدي البحارة وهلعت قلوبهم من الخوف.

فابتسم ١١٧ وقال: لا تيأسوا فسأنقذكم بإذن الله.

ثم صعد إلى ظهر السفينة فأخذ الدفة من ربانها وجعل يصدر أوامره إلى البحارة، فسارت السفينة مطمئنة وبعد ساعة سكنت الزوبعة، وهدأت الرياح وسكنت الأمواج.

وعند ذلك سمعوا من طولون دوي أربعة مدافع فقال المائة وسبعة عشر: إن كل مدفع يشير إلى فرار واحد منا، ولكنهم تنبهوا بعد فوات الأوان، لقد آمنَّا كل خطر.

وكان الصباح قد بزغت أنواره وملأت الشمس الفضاء فتراقصت أشعتها على المياه، واجتمع حول المائة وسبعة عشرة أعوانه الذين فروا معه وكلهم معجب برئيسه منذهل مما رآه من أفعاله العجيبة.

وقال له ميلون: من أنت أيها الرجل الذي يوقف القضاء، ويمنع سيف الجلاد أن يبلغ إلى الرقاب؟

وقالت له فاندا، من أنت أيها الساحر الذي تخترق عيناه أعماق القلوب؟

وقال بونفير: من أنت أيها الرجل العظيم وماذا صنعت لك حتى أنقذتني من الإعدام؟

وقال له الجلاد: وأنا أيها الرئيس الذي تدانى إلى مصافحتي أتأذن لي أن أسألك من أنت؟

فابتسم ١١٧ وقال: إذا كان لا بد لكم من معرفة اسمي فاعلموا أنني روكامبول.

فبُهت الجميع وأطرقوا برءوسهم إطراق الخضوع وظلت السفينة سائرة إلى إيطاليا.

أنطوانيت

١

في الساعة الرابعة بعد منتصف ليلة من ليالي نوفمبر كان رجلان يسيران في شارع سيركس، وقد خلا ذلك الشارع من المارة والمركبات فلم يكن يسمع فيه غير صوت الرياح الباردة.

وكان هذان الرجلان متزملين وشاحيهما وأيديهما في جيوبهما، فجعلا يسيران في ذلك الشارع حتى انتهيا إلى منزل فيه نمرة ١٩، فوقف أحدهما وقال لرفيقه: سوف ترى أيها الصديق أنك لا تجد بين الفتيات الجميلات اللواتي رأيتهن الليلة في منزل ابنة عمي المركيزة من تقارب هذه الحسناء بجمالها.

– إني أراك قد جننت يا أجينور.

– لماذا؟

– لأني أحسب العشق والجنون اسمين مترادفين، فمن كان عاشقًا كان مجنونًا، وبعد فكم لك الآن من العمر؟

– ستة وعشرون عامًا كما تعلم.

– إن بلوغك هذا السن على تماديك في الغرام يؤيد قولي؛ لأن من بلغ ما بلغناه من الثروة تتوطد لديه أسباب اللهو فلا يشغل نفسه بمثل هذا الغرام ومتاعبه، ألعلك تعدم بين صبيحات الوجوه حسناء تنظر إليك بعين العطف وفتانة تتمنى رضاك؟

– وبعد ذلك؟

– وبعد ذلك فلا أعلم ما يدفعك إلى مكابدة هذه المشاق وأنت بغنى عنها بفضل مالك الكثير.

– حسنًا، اصبر وسترى أينا المخطئ وأينا المصيب.

وكان هذا المنزل الذي وقفا أمامه له نافذة تطل على الشارع وفي هذه النافذة مصباح يضيء فيدل على أن الذي أناره إنما يشتغل على نوره إذ ليس من يسهر في هذا الشارع إلى تلك الساعة المتأخرة من الليل.

فأخذ الشاب بيد صديقه ودله على النافذة المنبعث منها النور وقال له: انظر إلى هذا الوجه المشرق ولعلك تعذرني بعد النظر إليه.

فنظر رفيقه بإمعان إلى وجه تلك الفتاة التي كانت مكبة على شغلها، وبعد أن تفرس بها مليًّا قال له: الحق إنها من أجمل النساء.

– أليس كذلك؟

– ولكن ماذا تريد أن تصنع بها؟

– إنها عندما تحبني، ولا بد لها من ذلك لأن من كان مثلي لا تكرهه النساء، فسأجعلها فتنة باريس وسلطانة النساء.

– أراك تحتم أنها تحبك.

– ذلك لأني علمت عنها ما جعلني أحتم هذا الحتم.

– لنرى ماذا علمت، ولكن قل لي قبل ذلك ماذا تشتغل تلك الفتاة لأني أرى أمامها كتبًا وأوراقًا.

– إنها تترجم الروايات عن اللغة الإنكليزية لأحد الطباعين فينقدها فرنكًا عن كل صفحة ويبيعها بعشرة للجرائد.

– إذن فهي أديبة؟

– نعم فقد كانت معلمة في مدرسة، غير أن ناظرة المدرسة مرضت فانقطع الطلبة عنها وباتت الفتاة المسكينة تشتغل هذا الشغل الشاق كي تقيت نفسها وتعالج تلك الناظرة لسابق فضلها عليها.

– يظهر أنها يتيمة؟

– لا أعلم حقيقة أمرها غير أني أرسلت خادم غرفتي منذ يومين وعهدت إليه استطلاع أمرها، فرشا بواب منزلها وعلم منه أنها في أشد متاعب الفقر، وأنها تقاسي الآن عناء شديدًا لأن ما تكسبه من الترجمة لا يكفي لنفقاتها ولمعالجة صديقتها الناظرة، وقد استحقت أجرة منزلها وهي عاجزة عن دفعها وليس في قلب صاحب المنزل أثر للرحمة، فإذا تقدمت لنجدتها وإنقاذها من شقائها قبلتني خير قبول.

– لقد كنت أحسبك من قبل أبله نزقًا، فكنت أعذرك بعض العذر. أما الآن فإنني أراك تسير في خطة لا تخلق بالأشراف، وإذا كنت تريد أن تستخدم لأغراضك الفاسدة

شقاء هذه الصبية التي تشتغل في الليل والنهار للقيام بأشرف الواجبات فإني ألومك أشد اللوم ولا أوافقك على هذا السير المذموم، وإني لا أنكر عليك تزلقك إلى الحسان بشرط أن يندفعن مع تيار حبك من تلقاء أنفسهن، وأما أن تستغوي النساء وتغتنم فرصة شقاء مثل هذه الصبية الشريفة فهو ليس من الأمور التي يقدم عليها النبلاء، بل إن ذلك عار شائن تلطخ به جبهة الإنسانية وكل شريف على الأرض.

– لقد قلت ذلك القول أيها الصديق في بدء أمري، ولكني قلت في نفسي أيضًا إن هذه الفتاة بارعة في جمالها، فإذا لم أدفع عنها ذاك الشقاء دفعه سواي من المعجبين بجمالها فتكون النتيجة واحدة في الحالين، ثم إني إذا أصحبت هذه الفتاة فلا أتخلى عنها كما يفعل سواي بل أضمن لها هناءها في مستقبل أيامها، وفوق كل ذلك فإني أجد دافعًا عظيمًا يدفعني إليها وهو دافع الغرام لأني شغفت بها شغفًا لا حد له، حتى إني لا أجد صبرًا عنها ولا أجد بدًّا من الوصول إليها في كل حال.

– أتقبل مني نصيحة أيها الصديق؟

– قل وسوف نرى.

– إنك بالغ سن الرشد من عدة سنين؛ أي إنك حر التصرف في أمورك الخاصة كما تريد.

– ذاك لا ريب فيه.

– إن الفتاة مهذبة أديبة، وهي من أفضل النساء وأطهرهن قلبًا إذا صح ما رويته لي من أمورها، فإذا كان كما تقول فما يمنعك عن الزواج بها؟

فضحك أجينور ضحكًا عاليًا وقال: لا شك أنك فقدت صوابك ولو كان لك ذرة من العقل لما خطر لك ذاك الخاطر.

– قل ما تشاء، وأما أنا فإني لو كنت مكانك لتزوجتها، وفي كل حال فإني أعد عملك جريمة لا أشاركك فيه؛ لذلك أدعك وشأنك وأذهب إلى منزلي لأنام بريئًا من تلك الوصمة.

ثم تركه وانصرف وبقي أجينور وحده أمام منزل الفتاة إلى أن بزغ نور الصباح فأطفأت تلك الفتاة الفاضلة مصباحها.

٢

وحكاية تلك الفتاة أن بواب المنزل وجيرانها لم يكونوا يعرفونها إلا باسم أنطوانيت، وأنها تقيم مع امرأة كهلة تدعى مدام رينود. ولكنهم كانوا يحترمونها احترامًا شديدًا لما يرونه من حسن اجتهادها، فإنها كانت تشتغل إلى ما بعد منتصف الليل بترجمة الروايات الإنكليزية، وتشتغل في النهار بالتدريس، غير أن جميع ما كانت تكسبه من أشغالها لم يكن يكفي لنفقاتها لا سيما بعد مرض مدام رينود؛ لأن معظم إيرادها كان ينفق على الأدوية وأجرة الأطباء، حتى إن تلك العجوز كانت تتمنى لنفسها الموت إشفاقًا على الفتاة فإذا سمعتها أنطوانيت تقول مثل ذاك القول تعانقها باكية وتقول: إذا مت فعلى من تتركيني بعدك يا أماه؟

فتبكي اثنتاهما وتعود الفتاة إلى العمل والعجوز إلى التألم والقنوط.

وأصل اتصال أنطوانيت بمدام رينود أنه منذ عشرة أعوام أرسلت إليها إحدى السيدات فتاتين وهما أنطوانيت وأختها مدلين، وعهد إليها بتربيتهما مقابل راتب كان يدفع لها بسخاء في السنة الأولى، وفي العالم التالي انقطع الراتب وانقطعت زيارة تلك السيدة. فجعلت مدام رينود تنفق عليهما من مالها وقد تبنتهما إلى أن أصيبت بمرض عضال فانقطعت موارد رزقها.

وكانت الابنتان توأمين، وقد بلغت كل منهما الثامنة عشرة من عمرها فجعلتا تشتغلان بالترجمة والتدريس مكافأة لتلك المريضة التي كانت لهما بمثابة أُم.

وقد اتفق منذ عام أن مدلين إحدى الأختين لقيتها سيدة من أغنياء الروسيين في باريس فاتفقت معها على أن تصحبها إلى روسيا مرشدة لأولادها ورفيقة لها، فسافرت الفتاة وبقيت أختها أنطوانيت مع مدام رينود في باريس، فكانت تلاقي أعظم المشاق في سبيل القيام بأودها.

وفي تلك الليلة التي شاهدها أجينور وهي تشتغل في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل كانت تكتب لأختها الرسالة التي تدل على لمعة من حكايتها وحقيقة شقائها وهي:

يا أختي العزيزة

لم أكن أريد أن أحزنك ولكن الداء أصبح لا دواء له، فلم أجد بدًّا من كشف حقيقة أمري لك، فإن مدام رينود أوشكت أن تموت وقد ذهب بصرها وعقلها كما ذهب جميع الأموال التي اقتصدتها في سبيل علاجها لأني كرهت أن أعالجها مجانًا في المستشفيات كي لا أكدرها في شيء.

ومما زاد في نفقاتي أني اضطررت أن أنقطع عن الشغل شهرًا للاعتناء بها بحيث أصبحت الآن مدينة لصاحب المنزل بأربعمائة فرنك لا أدري كيف أحصل عليها، فإن صاحب المنزل مسافر الآن، ولولا رأفة البواب بي وإمهاله إياي لكنت من الهالكين فإن البواب الصالح قال لي: إني أمهلك ما زال صاحب المنزل مسافرًا، ولكن هذا الرجل العاتي سيحضر غدًا وا أسفاه ولا أعلم كيف أدفع له، ويلاه إن العرق البارد ينصب من جبيني حين أفتكر أنه سيحجز على أثاث المنزل فما أشد شقاء العائلات الشريفة.

على أن قلبي يحدثني بأني سألقى مخرجًا من هذا الضيق.

ومما يزيد في شقائنا أننا إلى الساعة لا نعرف اسم عائلتنا، فأمنا لم نرها منذ حداثتنا، ولا أزال أبحث في جميع أنحاء باريس عن ميلون ذلك الخادم الأمين دون الوقوف له على أثر.

لا تقنطي أيتها الحبيبة لأني سأشتغل الليل والنهار كي لا يصبح لصاحب المنزل علي حق، واكتبي لي عن حالك، أما أنا فسأكتب لك أيضًا غدًا أو بعد غد لأخبرك بما يصير.

وعندما وصلت بكتابها إلى هذا الحد دخل إليها بواب المنزل وعلى وجهه ملامح الاكتئاب، فعلمت سبب حزنه وقالت له: ألعل صاحب المنزل قد عاد من رحلته؟

فقال: نعم يا سيدتي، وقد أوشك أن يطردني حين علم أنك لم تدفعي أجرة المنزل بعد، وهو سيحجز بعد ظهر اليوم على الأثاث.

فأجفلت الصبية وقالت: ويلاه ألا يمهلني إلى آخر الشهر فأقبض أجرتي من الذين أعلمهم في منازلهم، فإنه ليس لدي الآن غير مائة فرنك قبضتها من تاجر الترجمات، وأجرة المنزل أربعمائة فرنك.

أدمعت عينا البواب حنوًا وقال: إن هذا الرجل يا سيدتي لا يعرف الرحمة، ولكن لدى امرأتي مائة فرنك تقرضك إياها فإذا ذهبت بالمئتين إلى صاحب المنزل ودفعتها له واستمهليته إلى آخر الشهر فقد يجيب سؤالك، وإذا أبى فإن الأثاث لا يباع إلا بعد ثمانية أيام من إلقاء الحجز، وقد يتيسر لنا الحصول على بقية مطلوبه في هذه المدة.

فكبر ذلك على أنطوانيت غير أنها لم تجد بدًّا من الامتثال فأخذت من البواب المائة فرنك وذهبت إلى صاحب المنزل وهي تسير سير الخائفة الخجلة.

ولم تكد تسير بضع خطوات حتى رأت شابًّا يقفو أثرها، فأسرعت خطاها فاقتدى بها ولكنها سبقته ووصلت إلى المنزل دون أن يدركها، فدخلت إليه وهي تفتكر بهذا الشاب وتعجب من لحاقه بها واقتفائه أثرها على فرط ما كان يبدو منه من مظاهر الحشمة.

٣

وكان لها مع صاحب المنزل حديث طويل توسلت إليه في خلاله أن يقبل منها نصف الأجرة ويمهلها بدفع الباقي ثلاثة أيام، غير أن قلبه الصخري لم يلن لتوسلها فخرجت من عنده واليأس ملء قلبها وقد مسحت دموعها مرتين قبل أن تخرج من الباب إلى الشارع العام.

غير أنها لم تلبث أن سارت حتى رأت ذلك الشاب الذي رأته عند قدومها، وقد اعترضها في سبيلها فرفع قبعته بملء الاحترام وقال: إني أدعى يا سيدتي الفيكونت أجينور دي مورليكس، وإنما بدأت بذكر اسمي كي يُزال ما رأيته من اضطرابك لتعرضي لك في الطريق فإن النبلاء لا يقدمون على ما أقدمت عليه إلا لقصد شريف.

فسكن جأشها بعض السكون ولا سيما وقد رأت من لهجة احترامه ما دلها على صدق مدعاه في قصده، ثم نظرت إليه برهة وقالت له: ما عسى تريد مني يا سيدي وأنا لا أعرفك قبل الآن؟

– هو ما تقولين يا سيدتي ولكني إذا لم أتشرف بمعرفتك فقد عرفت أمك.

– أحقيقة أنك عرفت أمي؟

– نعم يا سيدتي بل أعرف جميع حكايتك وما تعرضت للقائك إلا لقضاء واجب مقدس.

– واجب مقدس؟

– نعم يا سيدتي فلقد قلت لك إني أدعى الفيكونت أجينور دي مورليكس وأنا بريتوني المولد غير أني نشأت في باريس مع قريبة لي تدعى المدموازل دي بزفورت.

– إني أعرفها فقد كنت أتلقى الدروس معها في مدرسة مدام رينود وقد خرجت من المدرسة سنة ١٨٥٠.

– هو ما تقولين يا سيدتي وأنا أرجو أن لا تنكري على تعرضي لك في الطريق لأني دفعت مكرهًا إلى ذلك.

– قل يا سيدي ما تريد أن تقول.

– إن قريبتي التي كانت رفيقة لك في المدرسة قد تزوجت وهي الآن وافرة الثروة وقد عهدت إلي أن أبحث لها عن مدام رينود، فإن قريبتي هذه عندما كانت في المدرسة كانت يتيمة ليس لها من ينفق عليها غير عمة فقيرة، فلما خرجت من المدرسة كانت مدينة لمدام رينود بألف فرنك.

فاضطرب فؤاد أنطوانيت وشعرت أن الله فتح لها باب الفرج بعد الضيق.

فقال أجينور: وقد بحثت كثيرًا يا سيدتي عن مدام رينود فلم أجدها، غير أنه وردني أمس كتاب من قريبتي أرشدتني فيه إلى محلها وأخبرتني أن هذه السيدة في أشد حالة من الضيق، فأسرعت اليوم إلى منزلها ولكني علمت من امرأة البواب أن هذه السيدة في حالة النزع، وعلمت اتصالك بها فكرهت أن أزورها على هذه الحالة وجعلت أنتظر خروجك من المنزل كي أدفع لك المال، فلما رأيتك خرجت رأيت على وجهك ملامح الحزن الشديد، فما تجاسرت على اعتراضك وما زلت أقتفي أثرك حتى دخلت إلى هذا المنزل، فلما خرجت منه لقيتك وجهًا لوجه.

وكان أجينور يتكلم بلهجة صادقة فخيل للفتاة أن الله أرسل لها مساعدًا من السماء فحكت له وهما يسيران إلى منزل مدام رينود ما تُكابده هذه المرأة من ضروب الشقاء وكيف أنها تشتغل آناء الليل وأطراف النهار لتخفيف شقائها، ثم رأت دمعة سقطت من عين أجينور فما شككت بسلامة قلبه وحكت له جميع حكايتها حتى أخبرته بعدها أن المال الذي ستقبضه منه سيفرج عنها كل ضيق.

ولما وصل الاثنان إلى المنزل ودعها أجينور معتذرًا وأعطاها ورقة مالية بألف فرنك، فأخذتها شاكرة وصعدت إلى مدام رينود وهي تكاد تطير سرورًا، فقالت لها: أتذكرين يا أماه مدموازيل دي بوفرت التي كنت أدرس وإياها في مدرستك؟

فقالت مدام رينود: مسكينة هذه الفتاة فإني لا أزال أذكرها إلى الآن.

فقالت أنطوانيت: ولماذا ترثين لها ألعلها كانت فقيرة؟

– كلا بل إنها كانت غنية.

وقالت في نفسها: ولعل هذه الفتاة علمت بشقاء مدام رينود فلفقت لقريبها هذه الحكاية، ولكن الاضطراب عاودها فقالت لمدام رينود: لماذا قلت يا أماه مسكينة هذه الفتاة؟

– لأنها ماتت في الليلة الثانية لزواجها في التاسعة عشرة من عمرها.

وأدركت الفتاة عند ذلك حيلة أجينور وصاحت صيحة يأس وسقطت مغميًا عليها.

٤

ولنعد الآن إلى ١١٧؛ أي إلى روكامبول، بطل هذه الرواية فنقول إنه برح مياه طولون على تلك السفينة بأصحابه وفاندا الروسية، وذهب إلى البلاد الإيطالية، وأقام متنكرًا مع رفاقه ستة أشهر، ثم ذهب إلى باريس بتلك العصابة وقد تنكر باسم الماجور أفاتار الروسي، فاتخذ منزلًا في شارع معتزل، تكتنفه حديقة فيحاء، وكانت فاندا امرأته في عيون مجاوريه.

وبعد أن ألقى عصا التيسار في باريس تحصل بدهائه المعروف وبمساعدة فاندا على أوراق تثبت أنه نفس الماجور أفاتار، ودخل عضوًا في ذلك النادي القديم، الذي كان أحد أعضائه منذ عشرة أعوام أيام كان معروفًا في باريس باسم المركيز دي شمري.

وقد عاد في ليلة من ذلك النادي إلى منزله، فقالت له فاندا: أقبلوك في النادي؟

– نعم، وقد عرفت فيه جميع أصحابي القدماء دون أن يعرفني أحد، وتعرفت بهم من جديد باسم الماجور أفاتار.

وسرت فاندا بنجاحه وقالت له: إن ميلون قد عاد من سفره وهو ينتظرك منذ ساعة بفارغ الصبر.

– سأراه ولكننا لا نستطيع أن نبحث في هذه الليلة عن الصندوق المخبوء.

وكان ميلون قد تنكر أيضًا باسم غريب، وحصل على أوراق تثبت اسمه الجديد بفضل روكامبول الذي فعل مثل هذا الفعل مع جميع رجال عصابته وغير هيئاتهم حذرًا من مطاردة الشرطة لهم. ولما دخل لمقابلة ميلون الذي كان ينتظره قبل يده باحترام ووقف أمامه وقوف التابع للمتبوع، فأمره روكامبول بالجلوس وقال له: لنتحدث الآن. أبقي معك شيء من النقود؟

فأجاب ميلون: كلا فقد أصبحت صفر اليدين، ولكني أعلم أين يوجد الصندوق؟

– أتظن أننا نهتدي إلى مكانه بسهولة؟

– نعم، فقد قلت لك إني خبأته بيدي وإني أعرف مكانه.

– وأين خبأته؟

– في قبو المنزل الذي كانت تقيم فيه والدة أنطوانيت ومدلين، فانتزعت حجرًا من جدران القبو ووضعت الصندوق ثم أرجعت الحجر إلى ما كان عليه بحيث لا يهتدي أحد سواي إلى مكانه.

– ولكن باريس قد تغيرت منذ عشرة أعوام، فقد يتفق أنهم هدموا المنزل أو أصلحوه واهتدوا إلى كنزك المخبوء.

– لا تخش يا سيدي فقد مررت بذلك المنزل وهو لا يزال على ما كان عليه من عشرة أعوام.

فتنهد روكامبول تنهد المنفرج وقال: سوف ننظر في أمره غدًا والآن أصغ إلي ألعلك مشفق على أحوال الأختين؟

– لماذا تسألني هذا السؤال؟

– لأني لا أريد أن أرجع لهاتين اليتيمتين ذلك الصندوق فقط بل أحب أن أرجع لهما ثروة أمهما بجملتها التي اختلسها أخواها.

فاغرورقت عينا ميلون بالدموع وقال: أتفعل ذلك أيضًا يا سيدي؟

– نعم، وسأجعل هاتين الابنتين من أسعد النساء.

ففرح ميلون فرحًا لا يوصف وغسل يد روكامبول بدموعه وهو يقول: ليبارك الله مساعيك يا سيدي فقد أحييت آمالي.

٥

لقد تركنا أنطوانيت مغميًّا عليها عندما علمت أن أجينور موركيلس كانت حكايته كاذبة وأن المال الذي دفعه لها لم يكن من قريبته لمدام رينود، بل كان منه لها.

فلما صحت من إغمائها كتمت أمرها أشد الكتمان وقالت في نفسها: إني سأدفع نصف تلك القيمة لصاحب المنزل وأشتغل ليلي ونهاري، ومتى تكامل عندي ماله أرجعته له وصرفته عني متلطفة، إذ قد يكون علم ضيقي اتفاقًا ودفعته عواطف الرحمة إلى ما فعل.

وكانت تتراوح بين استهجان فعله واستحسانه فتنفر منه تارة وتميل إليه طورًا، ولكنها أقرب إلى الميل لانطباع قلبها على السلامة، فقد رأت من مظاهر احتشامه ما دفعها إلى الظن خيرًا به، وكان عزاؤها أنها ستجد وتشتغل وتفيه المال ولا تعود مدينة له بغير الجميل.

ومضى على تلك الحادثة عدة أيام وهي لا تراه، ولكن خياله لم يكن يبرح عن بالها. وكانت لا تزال كاتمة أمرها إلى أن أعياها الكتمان ونحل جسمها، فكاشفت بما اتفق لها امرأة البواب وهي ترجو أن تجد بها معزية لها في مصابها.

غير أن امرأة البواب أظهرت من السرور لتلك الخادمة ما أدهش الفتاة، وذلك أنها أملت لها كل خير من هذا الاتفاق وقالت لها: إن الشاب شريف واسع الثروة ولا بد أن يكون أحبك لأدبك وجمالك، فإذا كان ذلك فهو سيتزوج بك لا محالة.

فهزت أنطوانيت رأسها إشارة إلى الاستغراب وقالت لها: أيمكن أن يتزوج هذا الغني فقيرة مثلي، ومتى كان الأغنياء يتزوجون الفقيرات؟

– متى ألف الحب بين قلبيهما لأني عندما تزوجت كنت غنية إذ كان لي خمارة لحسابي الخاص فأحببت زوجي وهو ليس له غير يديه وأسنانه يستعملها للأكل فما أنفت من فقره وتزوجته.

ثم احترقت الخمارة فاحترفت معه هذه الحرفة ودخلنا بوابين في هذا المنزل، وإن قلبي يحدثني بأن هذا الرجل سيكون زوجك.

وفيما هما على ذلك إذ دخل البواب وأعطى أنطوانيت كتابين رأت على إحداهما طوابع رسمية فعلمت أنه من أختها مدلين، ورأت على الآخر تاج الكونتية، فعلمت أنه من أجينور دي موررليكس، فاضطربت الفتاة اضطرابًا شديدًا.

وعند ذلك خرج البواب وامرأته فألقت كتاب أختها على المنضدة فبدأت بفتح الكتاب الآخر وأسرعت بنظرها إلى التوقيع وقرأت اسم الفيكونت.

وجعلت تقرأ كتابه الطويل وهو يتضمن أشرف عبارات الحب وأجمل الوعود والأماني الطاهرة، وقد ذكر لها في ختامه أن حكاية قريبته كانت من مخترعاته وإنما فعل ذلك كي يحملها على قبول المال الذي أعطاها إياه على سبيل الإعانة؛ لأنه وقف على مجمل حالتها بالتدقيق، ثم ختمه معتذرًا عن تلك الحيلة التي لم يدفعه إليها غير محض الإخلاص.

ولما فرغت أنطوانيت من تلاوة الكتاب احمرت وجنتاها وجعل قلبها يخفق خفوقًا شديدًا فإنها ما رأت أجينور دي موررليكس غير مرة واحدة ولكنها حنت إليه لما رأته من لطفه واحتشامه.

ثم إن لهجة كتابه كانت متلبسة بلباس من مظاهر صدق تجوز على من ألف خوض معارك الحياة، فهي تجوز بالطبع على تلك الفتاة العذراء، فوضعت رأسها بين يديها وقالت في نفسها: ما يمنع أن يكون هذا الشاب شريفًا وأن يكون صادقًا في أقواله؟

وعادت إلى الكتابة فقرأته مرة ثانية وكلما أمعنت في تلاوته اندفعت في مجال الهواجس والتفكير.

وفيما هي على ذلك نظرت كتاب أختها وقالت: تبًّا لي من ناكرة لحب الإخاء فقد شغلت بكتاب هذا الرجل عن كتاب أحب الناس عندي.

ثم أخذت كتاب أختها وما لبثت أن فضَّت غلافه حتى سقط منه على الطاولة ورقة مالية قيمتها ألف فرنك، فدهشت دهشًا عظيمًا وقالت: هو ذا سر جديد فإن أختي لم تر هذا المبلغ الضخم في حياتها فكيف يتفق أنها ترسله إلي.

وقد انقبض صدرها بدلًا من السرور كأنها أوجست شرًّا وأسرعت إلى قراءة كتاب أختها وخلاصته: إن تلك الأسرة الروسية التي كانت بينها أطلقت سراحها بعد أن كافأتها بعشرين ألف فرنك تعويضًا لها، وإنما عجلت بإبعادها لأن ابن ذلك الكونت الروسي الذي كانت في منزله هام بها وهامت به، ولما علم أبوه بغرامهما عزم على إرحال ابنه إلى بطرسبرج كي يتزوج فيها بقريبة له من ذوات الثروة الطائلة، وأرجعها إلى بلادها لأنه رأى أن ابنه قد تمادى في حبها وعاهدها على الزواج.

ومما قالته في كتابها أنها ستبرح موسكو بعد يوم من إرسال كتابها إلى الحدود البولونية وهناك يستقبلها وكيل الكونت الروسي فيوصلها إلى بلادها، وأنها أرسلت إليها ألف فرنك لأنها علمت بحالتها.

وكان الكتاب بجملته يدل على الحزن الشديد لشدة ولوعها بالفتى الروسي.

وحزنت أنطوانيت لحال أختها ولكنها قالت في نفسها: إن الفيكونت الروسي لا بد أن يكون أراد خداع أختي بوعوده لها بالزواج، كما يحاول الفيكونت الفرنسي أن يخدعني، ومن كان مثل هؤلاء الأغنياء فكيف يخطر له الزواج بأمثالنا، على أني أحمد الله لورود المدد إلي من أختي فقد أنقذتني من أحرج المواقف.

ثم أخذت قلمًا وكتبت إلى أجينور دي مورليكس رد كتابه وأظهرت له شدة ما بينهما من تباين المقام، وأنه من الأسرات الشريفة، في حين أنها لا تعرف لها اسمًا غير أنطوانيت وشكرته لمساعدته إياها ثم وضعت الورقة المالية التي أرسلتها إليها أختها في طي الكتاب.

وبعد أن ختمته نادت امرأة البواب وقالت لها: أيستطيع زوجك أن يرسل لي هذا الكتاب إلى شارع سيرسنس.

– لمن ألعله لذلك الشاب الجميل الذي كلمك في الطريق؟

– نعم ولكن كيف عرفت أنه جميل؟

– ذلك لأني رأيته، فقد جاء إلينا وعلمت منه أنه مجنون بهواك وأنه سيتزوج بك لا محالة.

– لقد أخطأت إذ كان يجب أن تخبريني بذلك ولكني في كل حال لا أستطيع الزواج بهذا البارون.

– لماذا؟

– لسببين أولهما أنه ليس لي مهر.

– وما حاجته بمهرك وهو من الأغنياء؟

– والثاني أنه ليس لي اسم حتى إني لا أعلم اسم أمي، ولا بد أن تكون ماتت فإننا لم نرها منذ عهد الحداثة فاذهبي وادعي لي زوجك.

ولم يسع امرأة البواب غير الامتثال، فذهبت وعادت بزوجها وكتبت على الغلاف عنوان البارون أجينور دي موريليكس وأعطته إياه فانصرف به دون أن يسألها سؤالًا واحدًا.

غير أن امرأته كانت أشد منه جرأة فإنها افتتحت الحديث مع أنطوانيت وقالت لها: أواثقة يا سيدتي من أن أمك قد ماتت؟

– إن آخر مرة رأيتها فيها أنا وأختي كان عمر الواحدة منا ثمانية أعوام، وكانت تقبلنا بحنو شديد كأنها كانت تعلم أنها تنظرنا النظرة الأخيرة، وغاية ما نعلمه أنها وضعتنا في عهد الطفولية عند مدام رينود دون أن نعرف السبب.

– ألم تعرفي اسمها؟

– كلا فإننا كنا ندعوها بأسماء الأمومة وكان الخدم ينادونها سيدتي البارونة وهذا كل ما أذكره؟

– أتذكرين المنزل الذي كنتم تقيمون فيه؟

– إنه كان منزلًا كبيرًا تكتنفه حديقة واسعة.

وجعلت امرأة البواب تفكر كأنها تذكرت أمرًا ثم قالت لها: لا بد أنه كان عندكم كثير من الخدم.

– كلا، بل كانوا ثلاثة فقط، وهم امرأتان ورجل وقد نسيت اسم المرأتين، أما الرجل فلم أنس اسمه؛ لأنه كان يحبني حبًّا شديدًا ويدعى ميلون.

ولم تكد أنطوانيت تلفظ الاسم حتى اضطربت امرأة البواب وقالت: تقولين إنه كان يدعى ميلون؟

– نعم.

– أهو ضخم الجثة يتكلم بلهجة القرويين؟

فاضطربت أنطوانيت وقالت: هذه هي أوصافه ألعلك تعرفينه؟

– كيف لا أعرفه وهو ابن عمي؟

– ميلون ابن عمك؟

– نعم يا سيدتي كما أنك أنت ابنة بارونة.

– ماذا تقولين وكيف تعرفين ذلك؟

– لأني ذهبت مرة لزيارة ابن عمي ميلون في منزلكم وكنت أنت طفلة، أما أمك فهي ألمانية وهي تدعى البارونة ميلر.

– رباه ماذا أسمع هو الحق ما تقولين فقد ذكرت الآن أن أحد الزائرين دعاها أمامي بهذا الاسم، ثم أطرقت برأسها وقالت: إنها ماتت أليس كذلك؟

– نعم وا أسفاه.

فسقطت دمعة من عين أنطوانيت وساد السكوت بينهما.

وبعد هنيهة سألتها أنطوانيت قائلة: ماذا حدث بثروة أمي؟

– لا أعلم وليس من يعلم أمرها غير ميلون.

– وماذا جرى لميلون ألعله مات أيضًا؟

– كلا، ولكنه أصيب بما هو أشر من الموت فإنه في سجن طولون منذ عشرة أعوام.

– أية جناية ارتكبها فاستحق هذا العقاب؟

– إنه سرق مجوهرات أمك يا سيدتي؟

فتراجعت أنطوانيت منذعرة وقالت: كلا إن ميلون بريء؟

– وا أسفاه يا سيدتي فإني كنت أعتقد من قبل ما تعتقدين الآن، ولكن السرقة ثابتة.

– مهما يكن من ثبوتها فإني أقسم أغلظ الأيمان أن الرجل بريء وأن هناك يدًا شريرة دفعته إلى هوة السجن، ولقد كنت من قبل لا اسم لي ولا عائلة، أما وقد عرفت عائلتي فسأذهب مع أختي إلى القضاء ونضمن لهم براءة هذا المسكين فإنه كان لنا خيرًا من أب.

وعند ذلك دخل البواب يحمل إلى أنطوانيت جواب الكتاب الذي أرسلته إلى البارون دي موريليكس، ففضته أنطوانيت بلهف وقرأت فيه عبارة استدلت منها أن هذا الفتى قد تدله بغرامها وقنط منها، وعول على أن يهجر أوطانه بغية نسيانها وأن يهيم على وجهه.

وأثر فيها الكتاب تأثيرًا شديدًا وقالت: لقد أحسنت فيما كتبت قبل الآن فقد بتنا أكفاء بعد أن عرفت أني من أسرة ولا بد لنا صديق يعيننا على إنقاذ ميلون من سجنه.

ثم أخذت ورقة وكتبت إلى أجينور ما يأتي:

سيدي البارون

كنت منذ ساعة فتاة فقيرة لا أهل لها ولا صديق فكتبت إليك ما أملته علي الواجبات، أما الآن فقد تبدلت حالي وكشف النقاب عن أسرار حياتي فإذا شئت أن تكون لي صديقًا مخلصًا فلا تسافر وتفضل بزيارة مدام رينود الليلة.

وبعد أن وقعت على الرسالة وختمتها أعطتها للبواب وقالت له: أسرع بإيصالها إلى البارون.

ولنعد الآن إلى روكامبول فلقد تركناه مع ميلون وقد اتفقا على أن يبحثا عن الصندوق في الغد ثم ذهبا إلى المنزل الذي كان يقيم فيه ميلون فلم تطل إقامتهما حتى وافاهما نويل الحداد، فسر روكامبول لقدومه وقال: أقضيت ما أمرتك به وذهبت إلى شارع سيرسنس؟

– نعم يا سيدي فرأيت المنزل الذي وصفته لي باقيًا على حاله.

– ألم تتمكن من رؤيتها؟

– كلا ولكني رأيت طفلها.

فارتعش روكامبول وقال: أرزقت غلامًا؟

– نعم يا سيدي وهو من أجمل ما تراه العيون يشبه أباه شبهًا غريبًا وقد رأيته يلعب في الحديقة.

فمسح روكامبول دمعة سقطت من عينه ثم غير الحديث فقال له: هلم بنا الآن إلى المنزل الذي تقيم فيه لأني أحب أن أغير تنكري.

– إني أسكن في غرفة مرتفعة في الدور السادس ولكن صندوق ملابسك موجود فيها.

– إذن هلم بنا.

وسار الثلاثة حتى بلغوا إلى تلك الغرفة، فقال روكامبول لنويل: من يجاورك في غرفتك؟

– لا يجاورني فيها غير المجنون.

– أي مجنون تعني؟

– هو طبيب يلقبه أهل هذا المنزل بالمجنون على طول باعه بالمعلوم وشدة تضلعه في صناعته، وذلك لأنه يتكلم مع نفسه طول الليل حتى إنه لا يكاد ينام.

– ألعله فقير ليس له زبائن؟

– إنه على عكس ما تقول، فلقد أخبرتني صاحبة المنزل أنه من أشهر الأطباء وأنه ينفق جميع دخله في سبيل الخير، ولكنه يناجي نفسه طول الليل كما تقول تلك المرأة، أما أنا فإني ما سمعته يتكلم.

– لقد شغل هذا الطبيب بالي وهاج بي عاطفة الفضول ولا بد لي من كشف سره فأين غرفته؟

– هي هذه المتصل جدارها بجدار غرفتي.

فنظر روكامبول إلى الجدار فرأى به عدة ثقوب في أعلاه لتقادم عهده ولأنه كان من الخشب الرقيق، فوضع منضدة وأراد الصعود عليها فقال له نويل: لقد فاتني أن أقول لك يا سيدي إن هذا الطبيب يقيم في الغرفة نفسها منذ عهد بعيد أي منذ كان تلميذًا.

– كم عمره؟

– لم يتجاوز الأربعين ولكن ثنايا وجهه وشعوره البيضاء تدل على أنه قد تجاوز الستين.

وبينما هما يتحادثان إذ سمعا من غرفة الطبيب تنهدًا عميقًا يشبه الأنين ثم سمعوه يقول: أف لليالي الشتاء ما أشد طولها، فمتى تطلع الشمس وتطرد عني هذا الخيال؟

فدنا روكامبول من أذن نويل وقال له: اخرج أنت الآن من الغرفة ودعني فيها مع ميلون.

فامتثل نويل وأقفل روكامبول الباب وراءه ثم قال لميلون: اخلع ملابسك هذه والبس ملابس التنكر الإيطالي أما أنا فسأنظر هذا الرجل.

ثم صعد على المنضدة وجعل ينظر من ثقوب الخشب إلى داخل غرفة الطبيب فرأى فيها سريرًا من الحديد وكرسيين وطاولة عليها أكداس الكتب والأوراق ولم يكن في تلك الغرفة من الأثاث غير ما تقدم.

وقد رأى الطبيب مضجعًا على السرير وهو في الهيئة التي وصفها له نويل وكان ينظر نظرًا مضطربًا إلى الجدار ويقول: نعم إنك أنت هي يا سيدتي لا تزالين كما كنت حين دفعتني الأبالسة إلى سريرك. نعم إنك كنت لابسة ثوبًا أسود، وهو نفس الثوب الذي تلبسينه الآن، ولا يزال لك ذلك الجمال الذي كنت تفتنين به النساك، وا أسفاه إني لو كنت من الوحوش الضارية لأشفقت على جمالك وشبابك ولكني كنت أقسى قلبًا من تلك الوحوش.

ثم أنَّ أنينًا مزعجًا وعاد إلى مخاطبة الخيال فقال: لقد مر يا سيدتي عشرة أعوام على هذه الحادثة وأنا أراك كل ليلة كما أراك الآن صفراء صامتة كالأموات، ولو علمت أني أستحق العفو لالتمست منك الرحمة، ولكني أعلم أني وحش أثيم جرعتك السم بيد جانية كان الأولى بها أن تقطع فأنا لا ألتمس منك رحمة لا أستحقها بل أطلب موتًا أستحقه وأستريح فيه، أيقنعك يا سيدتي البارونة أن يهدر هذا الطبيب الذي يجله الناس دمه كما هدر دمك؟

فلما وصل بمحادثة نفسه إلى هذا الحد أسرع روكامبول إلى ميلون وقال له: أجبني بسرعة أكانت سيدتك والدة الابنتين بارونة؟

– نعم؟

– كيف ماتت؟

– شعرت يومًا أنها متوعكة فأحضروا لها الطبيب ولما عادها قال لي إنها لا تعيش.

– أتظن أنها ماتت مسمومة؟

– نعم.

– أتريد أن تنظر قاتلها؟ تعال وانظر.

فصعد ميلون مكان روكامبول وجعل يحدق نظره بهذا الطبيب فرأى أنه شديد البعد عن ذلك الطبيب القاتل فإنه كان في عنفوان الشباب منذ عشرة أعوام وهو الآن قد بلغ حد الهرم.

وبينما هو يحاول النزول لاعتقاده أن الطبيب هو غير الذي قتل البارونة رفع الطبيب نظره بعد إطراقه.

وارتعش ميلون وعرفه للحال من عينيه فنزل إلى الأرض وقال لروكامبول: إنه هو بنفسه يا سيدي ليس لدي فيه أقل ريب.

فقال روكامبول: أصغ إذن لما سأحدثك به، بينما أغير تنكري، واعلم أني عندما كنت شقيًّا سفاكًا لصًّا كنت موفقًا في تلك المهنة الشنعاء، وكنت أستطلع الأسرار وأستكشف الغوامض بلحظة في حين أن سواي من أهل المهنة كان يقضي السنين الطوال لاستجلائها.

وكأنما ذلك التوفيق الذي كان يعينني في تلك الأيام لا يزال عائد أعمالي إلى الآن فإنه خدمني اليوم باكتشاف قاتل مولاتك.

غير أنه لا يزال يشغلني أمر واحد وهو أنه كيف يدعون للبارونة مولاتك مثل هذا الطبيب الساكن في أحقر المنازل ولم يكن له شيء من الشهرة منذ عشرة أعوام؟

فقال ميلون: لقد تذكرت الآن فإنهم أرسلوني إلى طبيب بيتهم بالليل، وهو من الأطباء المشاهير فقيل لي إنه كان مسافرًا، وفي صباح اليوم التالي عدت إليه ولقيت هذا الطبيب على باب منزله فقال لي إن طبيبكم لم يعد بعد من سفره، وقد كلفني بعيادة مرضاه لأني من تلامذته فجئت به وكأني أنا القاتل لسيدتي وا أسفاه.

فقال روكامبول: ليس المقام مقام أسف الآن بل مقام انتقام وسنكسر الآن باب غرفته وندخل إليه.

ففرح ميلون فرحًا وحشيًّا وقال: سأقتله بضربة واحدة.

– إياك أن تفعل شيئًا فإن الطبيب لم يكن غير آلة بيد سواه ويجب علينا معاقبة الرأس الآمر بالقتل ثم ننظر في شأن اليد المنفذة.

وفيما هما على ذلك إذ سمعا طرق الباب الخارجي ثم سمعا أنه فتح وأن الطارق يسأل عن الطبيب ويطلب أن يذهب حالًا إلى منزل البارون موريليكس، وصعدت صاحبة المنزل إلى غرفة الطبيب وأخبرته بما كان فقال: قولي له أن ينتظرني فإني ذاهب معه.

ثم أسرع يلبس ملابسه، وعاد وجهه إلى البشاشة الفطرية بعد ذلك القنوط وخرج من غرفته فقال روكامبول لميلون: هلم بنا نتبعه فإني أحب أن أقتفي أثره إلى ذلك المنزل الذاهب إليه.

٦

ليس البارون دي موريليكس الذي ذهب الطبيب لمعالجته نفس ذلك البارون الذي يحاول إغواء أنطوانيت بل هو أبوه، وقد كان عائدًا في الليل من النادي، وفيما هو ينزل من المركبة زلت قدمه فسقط وكسرت رجله.

ولما بلغ الطبيب إلى غرفته أبعد عنه الناس وجعل يجبر رجله غير مكترث لآلامه بتلك القسوة التي عرف بها الجراحون، وكان لا ينظر في خلال العمل إلا إلى تلك الرجل التي كان يجبرها.

ولما فرغ من عمله جلس بإزاء سرير المريض يحادثه، ولم يكد يتبين وجهه وعينيه حتى اضطرب وانذعر، فنظر إلى الخادم الذي كان واقفًا في الغرفة وأمره بالخروج.

ثم نظر إلى البارون وقال له: يخال لي يا سيدي البارون أني رأيتك قبل الآن؟

– ربما كان ذلك أما أنا فإني ما رأيتك من قبل.

– كلا فإنك لو تذكرت قليلًا لعلمت أنك رأيتني ورأيتك.

فاصفر وجه البارون وقال: أظن أنك مخطئ يا حضرة الطبيب.

– لا يمكن أن أكون مخطئًا فإن شعوري لم تبيض إلا بسبب هذه المعرفة. فزاد اضطراب البارون وقال: أين تظن أني رأيتك؟

– نعم إني كلما زدت إليك نظرًا زدت اعتقادًا فقد كان أصل هذه المعرفة أنك أتيت إلي في منزلي.

– لا أذكر شيئًا.

– بل تذكر كما يدل عليك اضطرابك فقد زرتني وأنا تلميذ طب، وكنت أقيم يومها في غرفة حقيرة في شارع سيرسنس ولا أزال أقيم فيها إلى الآن.

وكنت في ذلك العهد فقيرًا أشتغل الليل والنهار كي أكون يومًا في عداد الأطباء الماهرين، فاغتنمت فرصة فقري ونفحتني بكيس مملوء بالذهب كي أعلمك طريقة القتل إذ طلبت إلي سمًّا قاتلًا لا يترك بعد الموت أقل أثر للجناية.

فانذعر البارون ولم يعد يسعه الإنكار ونظر إلى ما حواليه نظرة الخائف وقال: بربك كفى قد يسمعك الخدم.

– أرأيت الآن كيف أني أعرفك أنت الذي تنكر باسم كاذب وخدعني مغتنمًا فرصة طيش صباي وشدة فقري، غير أن الله لم يعاقبك وأنت الرأس المدبر لهذه الجناية بل عاقبتني أنا اليد المنفذة لها.

– اسكت كفى بالله.

– إنك غني سعيد تتكنى بأشرف الألقاب ولكنك قاتل سفاك.

– ما عسى تريد أيها التعس أتريد أن تفضحني وتفضح نفسك؟

وكأن الطبيب لم يسمع كلامه وقال: أما أنا فإن الفقراء يدعون لي في خلواتهم، والعلماء يستشهدون بأعمالي في مجتمعاتهم، وكل دواعي المجد تحيط بي، ولكني لو كنت في جهنم لكنت خيرًا مما أنا فيه، وحسبي عذابًا أن خيال تلك الشهيدة لا يغيب عن عيني طول ليالي فأبيت منه بليلة الملسوع، وهذا شأني منذ دفعتني إلى ارتكاب تلك الجريمة الهائلة، فإنها تظهر لي بملابس سوداء وترسل إلي من عينيها أشعة نارية تحرق جوارحي وتقول لي: كيف كان ندمك فلا عفو لك عند الله أيها السفاك، أما أنت أيها البارون فإن عقاب الله لم ينقض عليك بعد ولا تزال معدودًا في زمرة السعداء، ولكن ثق بأن الله لا يتغاضى عن المجرمين أمثالك وسيأتيك يوم تتمنى لو لم تخلق.

ثم تركه مغضبًا وانصرف دون أن يتدانى إلى وداعه أو النظر إليه، ولما خرج من قصر البارون كان مضطربًا اضطرابًا شديدًا فلم ينتبه أقل انتباه إلى رجلين كانا يترصدانه، ومر بهما دون أن يراهما فاقتفيا أثره حتى وصل إلى منزله فدخل إليه، ودخلا بعده، وكان هذان الرجلان روكامبول وميلون.

٧

فصعد روكامبول إلى غرفة نويل وطلب إليه أن يأتيه بحبل رفيع، ثم تنكر بملابس رجال البوليس وقال لميلون: إني سأخاطر من أجل الفتاتين بالعودة إلى السجن فإني لا أريد الانتقام من الطبيب وحده بل من أخوي سيدتك البارونة ميلر؛ أي من البارون موراليكس وأخيه.

ثم قال لنويل: سِر بنا الآن إلى غرفة الطبيب.

وسار نويل أمامهما وطرق الباب فقال الطبيب: من أنت؟

– أنا البواب وقد قدم اثنان يريدان أن يرياك.

– العيادة طبية؟

فقال نويل: كلا، بعد أن استشار روكامبول بالنظر.

وأبى الطبيب أن يفتح بابه وقال: ليعودا إلي في الصباح فإني لا أقابل أحدًا بعد انتصاف الليل إلا المرضى.

وعند ذلك قرع روكامبول الباب وقال له: افتح باسم الشرع.

ولم يجسر الطبيب بعد ذلك على العصيان وفتح الباب ودخل إلى غرفته روكامبول يتبعه نويل وميلون وهما متنكران أيضًا.

فدنا منه روكامبول وقال له: ألست أنت الطبيب فنسلت؟

– نعم!

وأشار روكامبول إلى ميلون أن يخرج إلى غرفة أخرى وقال لنويل بلهجة الآمر: اذهب وأتنا بمركبة. فامتثل الاثنان.

ولما أصبح روكامبول منفردًا مع الطبيب قال له: يعز علي يا سيدي الطبيب أن أقبض على عالم مثلك ولكني آلة بيد الشرع.

فخاف الطبيب وقال: كيف تقبض علي وبأية تهمة تتهمني؟

– إنهم يتهمونك يا سيدي بتسميم البارونة ميلر منذ عشرة أعوام بالاشتراك مع البارون دي موراليكس وأخيه.

فوهت رِجلَا الطبيب وسقط على كرسي خائر القوى.

وعند ذلك عاد نويل وقال إن المركبة على الباب.

ثم خرج وتولى خفارة الباب.

أما الطبيب فقد كان يتنازعه عاملان، وهما عامل كان يمثل له جريمته بأقبح مثال فيحني رأسه صاغرًا ذليلًا، وعامل يمثل له ندامته وما فعل من الخير تكفيرًا عن ذلك الذنب الذي لم يدفعه إليه غير نزق الشباب، ويرفع رأسه شامخًا واثقًا من عفو الله.

ولما ذهب نويل نظر الطبيب إلى روكامبول وقال له: إنك لست يا سيدي قاضي التحقيق كما يظهر ولست أنت الذي سيتولى التحقيق في أمري.

– هو ما تقول يا سيدي فإني أحد مفتشي البوليس.

– إذن أنا مستعد للذهاب معك غير أنهم لا يسألونني حين وصولي كما أظن، فأرجو أن تأذن لي بكتابة بضعة أسطر إلى زميل لي أسأله فيها أن ينوب عني في عيادة زبائني.

– افعل ما تشاء.

وقام الطبيب إلى منضدة فكتب رسالته ووضعها في غلاف ثم قال دون اكتراث إني أرى هذا الغلاف لا صمغ فيه ولا بد لي من ختمه بالشمع، وعند ذلك أخرج من درجه قطعة من الشمع الأسود وأدناها من الشمعة المنارة.

وكان روكامبول ينظر إليه نظر المراقب، ولم تكد تلك الشمعة السوداء تحترق ويظهر دخانها حتى هجم عليه من ورائه وضربه على يده، فسقطت الشمعة السوداء وانطفأت.

ثم أسرع إلى النافذة ففتحها كي يخرج منها ذلك الدخان وقال: لقد علمت قصدك يا حضرة الطبيب فإن هذه الشمعة سم نقيع إذا بلغ دخانها إلى الرئتين قتل للحال.

وعند ذلك قبض عليه ونادى ميلون كي يستعين به، وأسرع ميلون وتعاون الاثنان على ربط فمه بمنديل كي لا يصيح وحملاه بمساعدة نويل إلى المركبة الواقفة على الباب، وأمر روكامبول السائق أن يذهب بالمركبة إلى إدارة البوليس.

ولكنه قبل أن يصل إليها بعدة أمتار أوقف المركبة وقال للسائق: قف قليلًا هنا إلى أن أعلم أوامر المدير.

ثم مشى إلى منعطف في الطريق وهو يوهم السائق أنه ذهب إلى إدارة البوليس وأقام مختبئًا إلى أن انتهى من تدخين سيكارته وعاد وقال: إن المدير يحب أن يسمع أقوالك في منزله. وأمر السائق أن يسير إلى منزله؛ أي إلى منزل روكامبول الذي يقيم فيه مع فاندا، ولما وصل إليه أخرجوا الطبيب وصعدوا به إلى المنزل وأطلقوا سراح السائق.

٨

وكان الطبيب قد سكن روعه بعض السكون لطول المسافة، وخلا به روكامبول في غرفة، بعد أن أقفل بابها وجلس بإزائه وقال: والآن لنتحدث يا حضرة الطبيب.

– بماذا نتحدث، ألعلك أنت الذي تتولى التحقيق بأمري؟

– نعم!

– إذن من أنت؟

– أنا رجل يعمل أعمالًا عظيمة، فإن العدالة يا سيدي من أخص الأمور المقدسة، وما أنا من الشرطة ولا من القضاة كما تتوهم، بل أنا رسول العدل وقد أصبحت في قبضتي خاضعًا لسلطاني؟

فذعر الطبيب وقال: زدني إيضاحًا أيها الشقي فمن أنت؟

– أنا رجل من كبار المجرمين وقد أرسله الله لعقاب كبار الآثمين.

– إذا كنت كما تقول فقد وجب عليك احترام القوانين والشرائع المقدسة، ومن كان يريد عقاب المجرمين لا يرتكب جرائمهم ويقلد رجال الشرطة ويسرق الناس من منازلهم، دعني أخرج أيها الشقي.

وأخرج روكامبول مسدسًا من جيبه وقال: إني كنت أدعى في السجن مائة وسبعة عشر وكنت أدعى قبل أن أسجن روكامبول، وأنا الآن أدعى الماجور أفاتار، فأنا أقسم لك بهذه الأسماء الثلاثة إنني أقتلك شر قتل إذا لم تصغ إلي وتطيعني فيما أريد.

– ماذا تريد؟

– أريد أن تعترف لي.

– إني لا أعترف إلا لله.

– ولرسول العدل.

– إنك لست بإله وما أنت برسول العدل بل أنت شقي هارب من الليمان أستطيع أن أرجعك إليه إذا ذكرت اسمك.

– ولكننا نعود سوية يا سيدي الطبيب فإن السجون أعدت للقتلة المجرمين، وسواء كان القتل بالخنجر أو بالسم فإن الجريمة واحدة، ثم إن هناك أمرًا آخر وهو أني كنت في السجن فلا أخاف العودة إليه، وما أنا برسول العدل، ولكني الآلة التي أرسلها الله للقضاء على الآثمين، فإذا لم أنل منك ما أريد قتلتك في الحال.

وقال له الطبيب باحتقار: ماذا تريد مني ألعلك طامع بمال؟

– لو كنت لصًّا عاديًّا لنهبت ما لقيته في منزلك، ثم إنك لست غنيًّا فإنك تهب جميع ما تكسبه للفقراء.

– إذن ماذا تريد؟

– أريد أن أتحدث معك.

– قل فإني مصغ إليك.

– أول ما أبدأ به يا حضرة الطبيب هو أنه عندما يرتكب المرء جريمة، لا يخلق به أن يحدث نفسه بها طول ليله على مسمع من الناس.

– أتظن أني ارتكبت جريمة؟

– لا أظن بل أؤكد ولو كنت على شيء من الشك فإن عزمك على الانتحار بدخان تلك الشمعة السوداء أزال مني كل ريب، ولكني أعلم أنك سممت امرأة لم تكن تتجاوز الثلاثين من عمرها وهي غنية حسناء، وأن هذه المرأة تدعى البارونة ميلر.

– أتعرف اسمها أيضًا؟

– أعرف كل شيء، أما إذا كنت تريد أن تعرف ما أريد منك فاسمع، إنك قبل أن ترتكب تلك الجريمة بيوم واحد لم تكن تعرف البارونة ولم يدفعك إلى قتلها عامل من حقد أو طمع بإرث، بل لأنهم أعطوك أجرة هذا القتل عشرة آلاف فرنك.

وكانت هذه الأقوال صادقة صحيحة فلم يسع الطبيب إنكارها بل غطى وجهه بيديه وقال له إذن سلمني إلى القضاء بدل تعذيبي.

– لم يحن الوقت بعد فإن من يجسر على أن يفعل ما فعلته معك لا يقنع بعقاب اليد المنفذة للجريمة بل يرجو سحق الرأس المدبر لها أفهمت الآن؟ إني أريد أن أعرف شريكيك لأنهما اثنان.

فذعر الطبيب ذعرًا شديدًا وقال: إذن أنت تعرف كل شيء؟

– أصغ إلي فإن البارونة ميلر قد قتلت منذ عشرة أعوام وإن الحكومة لا تعرف شيئًا عن جريمتك، على أنك إذا كنت قد استحقيت العفو عن جريمتك لحسن توبتك وصالح أعمالك، فإن شريكيك الذين اغتنما فقرك ونزق شبابك لا يزال يتمتعان بأموال أختهما التي قتلاها.

– ماذا تقول؟ أختهما؟

– نعم أختهما قتلاها بيدك كي يسرقا أموالها وأنت لا تعلم.

– رباه ماذا أسمع ويا ويحي كيف ألقاك يا ربي بعد هذه الجريمة الشنعاء؟

– وليس هذا كل ما فعلاه فإن أختهما كان لها بنتان فجرداهما من أموالهما وهما طفلتان يتيمتان، وليس من يعلم الآن مصيرهما فاختر الآن بين أمرين وهما إما أن أسلمك للشرطة وأسلم نفسي معك أو أنك تساعدني على الانتقام من هذين الأثيمين اللذين أغرياك على قتل أختهما فتكون لي أطوع من البنان.

فتنهد الطبيب وقال: رباه إذا لم تصفح عني لقتل تلك الأم المنكودة فأفسح في أجلي كي أنفق حياتي في خدمة ابنتيها. ثم جعل يبكي.

فأخذ روكامبول يده وقال: لقد وثقت منك الآن فإن دموعك تدلني على صدق نيتك في مساعدتي.

– وا أسفاه إني سأشتغل الليل والنهار لمساعدة هاتين اليتيمتين.

– يجب أن تصنع أكثر من ذلك أيها الطبيب؛ أي يجب أن تساعدني على إرجاع تلك الثروة المسروقة.

– لقد أصبت وسأكون لك أطوع من العبيد فقل ماذا يجب أن أصنع.

– سأقول لك بعد حين والآن فما عليك إلا أن ترجع لعيادة مرضاك.

– كيف ذلك أتطلق سراحي؟

– نعم فقد وثقت من ندمك وإخلاصك في خدمتي.

– أقسم لك بتربة تلك الضحية التي يزورني خيالها كل ليلة إني سأفعل كل ما تريد، قل ماذا أفعل اليوم؟

– لا حاجة لي بك اليوم، وغدًا سأزورك في منزلك أو أكتب لك فأعين موعدًا آخر.

ثم نادى ميلون وقال: أحضر مركبة للطبيب. فامتثل ميلون وهو منذهل، وهو لا يجسر على سؤاله وبعد عشر دقائق ركب الطبيب بها ومضى فقال روكامبول لميلون: الآن يجب البحث عن الصندوق المودعة فيه أموال البنتين فاتبعني.

وسار روكامبول وميلون إلى ذلك المنزل الذي كان مخبوءًا في أحد أقبيته الصندوق، فاستأجره ميلون وقد ادعى أنه تاجر خمر قسمًا من ذلك المنزل مشترطًا أن يكون له قبو، وبعد أن تفقد الأقبية اختار واحدًا منها وهو القبو الموجود فيه الصندوق.

وفي اليوم الثاني أحضر الأدوات اللازمة للحفر وجعل يبحث مع روكامبول عن الحجر المخبوء وراءه الصندوق حتى إذا عثر عليه أخذ روكامبول يشتغل بنزع الحجر، وبعد ساعة تمكن من نزعه وأخرج ذلك الصندوق الصغير من مخبئه، فصاح ميلون صيحة فرح لأنه عرف الصندوق.

وحمل روكامبول الصندوق بيديه فوجده خفيف الوزن فقال له: كيف تقول إنه يوجد فيه مليون فرنك فإن خفَّته لا تدل على شيء من ذلك؟

– ذلك لأنه يحتوي على أوراق مالية.

فاصفر وجه روكامبول، فقال له ميلون: بأي شيء تفتكر؟

– أفتكر أني كنت أدعى روكامبول ولو وجدت وإياك منفردين من قبل وأمامنا هذا المليون لكنت قتلتك كي يكون المال لي وحدي.

فاضطرب ميلون وقال: إن هذا المال ليس لي بل إنه مال اليتيمتين.

وأدرك روكامبول معنى اضطرابه وقال له: اطمئن فإني نزعت من نفسي ذلك المبدأ القديم فهلم بنا إذن لنرى ما في الصندوق.

٩

ولندع الآن روكامبول يفحص ذلك الصندوق مع ميلون، ونعود بالقارئ إلى عاشق أنطوانيت، فإنه لما وصل إليه كتاب أنطوانيت الأخير الذي تمنعه فيه عن السفر فرح فرحًا لا يوصف، وقد وجد من أدب هذه الفتاة ما غير نيته بشأنها فما صدق أن دنا الموعد المعين حتى أسرع إلى منزلها فلقيها مع مدام رينود.

وقد رأى في ذلك المنزل آثار الفقر والشقاء، غير أنه ما لبث أن حادث هاتين المرأتين حتى علم أن في نفسيهما خير ما يغرس من الفضائل والآداب، واندفعت أنطوانيت في حديثها معه فأخبرته بما كانت تجهله من أمر ماضيها، إلى أن قيضت لها الصدفة أن تعرف أنها ابنة البارونة ميلر وأن أمها كانت غنية، ثم طلبت إليه ببساطة الأطفال أن يساعدها في سبيل إيجاد ثروة أمها إذ ليس لها من تعتمد عليه في هذا الوجود إلاه.

فتأثر أجينور من حديثها تأثيرًا عظيمًا حتى إنه نسي غرامه فلم يكاشفها بكلمة حب وانصرف إلى تطمينها، فوعدهما وعدًا صادقًا أن يكون لها خير خادم وصديق وأظهر لها ما لأبيه البارون دي مورليكس من الوجاهة والكلمة النافذة، وأنه سيستعين به على إيجاد هذه الثروة الضائعة. ثم ودعها بعد أن التمس منها أن تأذن له بالعودة مرة ثانية. وانصرف وقد عزم عزمًا أكيدًا على الزواج بها لا سيما بعد أن علم أنها من النبلاء، وأن أباه لا يعارضه بزواجه ابنة بارون.

وذهب توًّا إلى أبيه وهو في فراشه لانكسار رجله كما تقدم فأخبره بجميع حكاية تلك الفتاة وهو لا يخطر له في بال أن أباه وعمه هما سارقا ثروة والدة الفتاة، وأن تلك الفتاة التي يهواها هي أقرب قريبة له.

أما والده البارون فقد وقع هذا النبأ وقع الصاعقة عليه فتظاهر بألم رجله، وهو إنما يشكو حقيقة من ظهور تلك الفتاة وظهور ذلك الطبيب، ثم طيب خاطر ابنه ووعده خيرًا، وكتب في الحال رسالة إلى أخيه الأكبر يطلب إليه فيها أن يحضر سريعًا لأمر خطير، وأمر ابنه أن يذهب بالرسالة إلى عمه بعد أن أوصاه بكتمان أمر الفتاة وأن لا يذكر شيئًا من أمرها لأحد من أصدقائه. فامتثل أجينور وذهب بالرسالة إلى عمه.

وبعد ساعة قدم أخوه الفيكونت كارل دي موريليكس ودخل إليه فقال له البارون: أقفل باب الغرفة!

ففعل وهو يعجب لهذا التحفظ الشديد. ولما جلس بإزائه، ورأى اضطراب أخيه، علم أن الأمر جلل فقال له: ماذا دهاك؟ وما هذا الاضطراب؟

– لقد فضح أمرنا يا كارل!

– كيف ذلك وأي أمر تعني؟

– لقد حلت ساعة العقاب!

– قيل لي إنك كسرت رجلك فهل أصبت بالهذيان؟

– كلا ولكنك لا تعلم من هو هذا الطبيب الذي جبر كسر رجلي. إنه هو ذلك التلميذ الطبي الذي كان يقيم في شارع سرسنس.

– ما هذا الاتفاق الغريب ألعله عرفك؟

– نعم، وأشار علي بالندامة والاستغفار. وليس هذا كل السبب في اضطرابي، فإن ولدي أجينور يريد أن يتزوج فتاة تدعى أنطوانيت ميلر أعلمت الآن؟

فقطب كارل جبينه وقال: وبعد ذلك؟

– إنها تعرف اسمها وتعرف أن ثروة أمها قد سرقت وأن ميلون الخادم في السجن، وقد جاءني ولدي يسألني أن أساعده في إخراج ميلون من السجن، أفهمت الآن؟

– فهمت كل شيء وأخص ما فهمته أن ولدك أبله؛ لأنه قص عليك جميع هذه الأمور، فوضع نفسه في أحرج المواقف. ثم جعل يضحك ضحك الساخر.

١٠

أما روكامبول فإنه عالج الصندوق الحديدي وفتحه فوجد فيه قيمة ميلون فرنك أوراقًا مالية، ووجد كتابًا بخط البارونة ميلر، فأخذ الكتاب ودفع الصندوق باشمئزاز إلى ميلون، كأنه خشي أن يؤثر عليه منظر ذلك المال الكثير. ثم جعل يقرأ ذلك الكتاب المسهب على مسمع ميلون.

والكتاب معنون باسم أنطوانيت ومدلين ابنتي البارونة ميلر. وهو يتضمن حكاية تلك البارونة وخلاصتها أنها لم تكن أخت الفيكونت كارل والبارون دي مورليكس لأمهما وأبيهما بل لأمهما فقط، ولدتها حرامًا وكتمت أمرها عن جميع الناس حتى مات زوجها فعرف والدها بأمرها وأشارا عليها أن تتبناها وأن تقيم في باريس بصفة قريبة.

ولم يكن ذلك من قبيل الرأفة بتلك الأم بل طمعًا بأموال ابنتها، فإنها تزوجت البارون ميلر وبعد ولادة ابنتيه أنطوانيت ومدلين توفي عن ثروة تبلغ عشرة ملايين فرنك، وإنما طلبا إلى أمهما أن تتبناها شرعيًّا كي يحق لهما الإرث منها بعد وفاتها، ولذلك لم يكن أحد من الناس يعلم أن البارونة ميلر هي شقيقة البارون والفيكونت دي مورليكس.

وبعد أن تم عقد التبني وقدمت البارونة بابنتيها إلى باريس توفيت أمها. وقد اتضح فيما بعد ذلك أن ولديها قتلاها بالسم، ثم جعلا يطاردانها ويحاولان قتلها بطرق مختلفة خفية ويظهران الأنس والبشاشة فدسا لها السم مرة في برلين فنجت منه، وأحرقا المنزل بها مرة في فيينا فسلمت مع ابنتيها. ولما كانت في باريس أتاها أحد خدم أخيها الفيكونت كارل، فأخبرها بجميع مكائد أخيها وأنه عازم على قتلها وقتل ابنتيها كي يرثها. فجمعت ما استطاعت جمعه من المال وأعطته لخادمها ميلون وأوصته أن يخبئه كي يكون مهرًا لبنتيها ثم وضعت هاتين البنتين في مدرسة مدام رينود دون أن تذكر لهما اسم عائلتيهما ومكثت في باريس بعد أن اطمأنت على ابنتيها.

هذه خلاصة الكتاب الذي يظهر منه كيف أن أجينور دي مورليكس لم يعلم أن أنطوانيت ابنة البارون ميلر قريبة له لأن سر ولادة البارونة كان مكتومًا عن جميع الناس ولم يعرفه غير الفيكونت وأخيه البارون.

ولما فرغ روكامبول من تلاوة الكتاب قال لميلون: إننا قد وجدنا الصندوق وعرفنا أمورًا كثيرة من هذا الكتاب فماذا تريد أن تعمل الآن؟

– نبحث عن أنطوانيت ومدلين ونرد لهما المال.

– حسنًا غير أن المليون لا يكفي البنتين؛ لأن مالهما عشرة ملايين لا مليونًا واحدًا.

– سنطالب بالباقي.

– تطالب مَن؟

– الحكومة!

فضحك روكامبول وقال له إنك لا تزال على بلاهتك. أنسيت أنك هارب من السجن وأنك كل يوم تتنكر في زي فكيف يصح أن يكون لك علاقة بالحكومة؟

– إذن كيف نعمل؟

– سوف ترى ماذا أعمل. غير أن عملًا عظيمًا كهذا يقتضي له المال الكثير وقد رأيت ما صنعت من قبل ولا بد أن تثق بما سأصنع في المستقبل.

فقال ميلون بإعجاب: لا ريب عندي بأن عقلك أسمى من عقول البشر.

وأجاب روكامبول بسكينة: إني سأجد البنتين وأرد لهما كل ثروتهما وأنتقم لأمهما. غير أنه لا بد لي من المال لتحقيق هذه الآمال.

وكان ميلون يثق ثقة عظيمة برفيقه في السجن فدفع إليه الصندوق وقال: خذ ما تشاء.

– إني أحتاج إلى مائة ألف فرنك على الأقل.

– خذ ما تشاء.

فأخذ روكامبول مائة ألف وقال: هلم بنا إذن، فقد آن أوان العمل ولك أن تدعوني منذ الآن بروكامبول.

١١

بينما كان روكامبول منهمكًا مع ميلون بفتح الصندوق وتلاوة الكتاب كان الفيكونت كارل مورليكس جالسًا على كرسي أمام سرير أخيه وهو يباحثه في جنايتهما القديمة.

وكان كارل هذا شديد الدهاء لا ترهبه الصعاب ولا يقف بجرأته عند حد خلافًا لأخيه والد أجينور، فقد هاله ثبات أخيه وعدم ظهور شيء من علائم الاضطراب عليه فقال له: ألست بنادم على تلك الجناية؟

– إن من تجاسر على سرقة ثروة، يجب عليه أن يتجاسر أيضًا على حفظها.

– ولكننا لا نستطيع الاحتفاظ بها أمدًا طويلًا، ما زالت الفتاتان في قيد الحياة.

فهز كارل كتفيه إشارة إلى عدم الاكتراث وقال: كيف حصلنا على ثروة أختنا بعد وفاتها.

– بفضل عقد التبني الذي ظهر فيه أن البارونة ميلر أختنا، وأنه يحق لنا إرثها.

– نعم ولكنه كان للبارونة ابنتان فلم يكن يحق لنا إرثها إلا بعد إثبات وفاة ابنتيها، وقد أثبت وفاة أنطوانيت ومدلين ميلر يوم وفاة أختنا ولولا ذلك لما حق لنا أن نرث شيئًا وقد كان صك وفاتهما مذيلًا بتواقيع كثيرة لا تدع أقل مجال للريب ولا يمكن نقضها.

– وإذا ظهرت البنتان؟

– لا يفيد ظهورهما شيئًا.

– كيف ذلك؟

– لأن الحكومة لا تصدقهما إذ ليس لديهما ما يثبت نسبهما.

– ولكن ميلون يثبت هذا النسب.

– إنه مسجون.

– ومتى خرج من سجنه فإن سجنه غير مؤبد؟

– لا يجد هاتين الفتاتين أو يجدهما غير صالحتين لهذا النسب.

فأجفل البارون وقال: لقد أدركت قصدك ولكنه قصد هائل لا أوافقك عليه، فقد كفى ما فعلناه.

– إذن، فاختر بين أمرين: إما أن تبقى متمتعًا بثروتك وجاهك بالقضاء على هاتين الأختين، أو تمتعهما بها بالقضاء على نفسك وقضاء الحكومة عليك.

– رباه! كلاهما شديد ولكني أختار أهون الويلين فافعل ما تشاء.

– سأفعل إنما يجب أن تعلم بأني سأستخدم ابنك أجينور آلة وسأتعب قلبه، غير أن أمراض الحب سريعة الشفاء وسأزوجه خير فتاة ترضية له.

فقال البارون ببلاهة: لم أفهم إلى الآن كيف أنك ستستعين بولدي كي تصم تلك الفتاة التي يهواها بوصمة عار.

– كن مطمئنًّا فلا خوف على ولدك لأنه ولدي. أما طريقة استعانتي به فستعلمها بعد حين، إنما لا بد لي الآن من إخبارك أني أعرف رجلًا في باريس أحيل من ثعلب، تقلب في جميع أنواع الشرور وتمرس بجميع الأعمال، فقد كان لصًّا شريرًا ثم رأى رئيس البوليس ما كان من حذقه فجعله بوليسًا سريًّا ثم عزله لأنه لم ينقطع عن السرقة ومشاركة اللصوص، وهو الآن يعتزل في منزله يأتيه رزقه من العصابات الشهيرة لخوفها من كيده. فإذا أعطيته ثلاثين أو أربعين ألف فرنك فعل لي ما أريد.

– كل ذلك سافل مكروه.

– ولكنه واجب ولا بد منه، إذا كنت تخشى السجن والإقامة فيه بدلًا من ميلون.

فلم يجب البارون بشيء. ولما رآه أخوه مطرقًا يفكر خشي أن تتغلب عليه عاطفة الشهامة فنهض وقال: إني ذاهب إلى هذا الرجل وسأعود إليك بعد أن أراه.

– ولكن ولدي أجينور سيعود الآن فماذا أقول له؟

– طيب خاطره ما استطعت، وقل له إني ذهبت للسعي فيما يريد.

ثم ودعه وركب مركبته وانطلق بها إلى شارع سانت جرمين، فأوقفها عند باب منزل وصعد إلى الدور الثالث، فطرق الباب وسمع صوتًا يقول له: ادخل ففتح الباب ودخل، فوجد رجلًا يناهز الخمسين فحياه وناداه باسم تيميلون.

١٢

وكان أول من افتتح الحديث الفيكونت فقال لتيميلون: أعرفتني؟

فنظر إليه تيميلون نظرة عدم اكتراث، وقال له: إن ذلك يتعلق بالأحوال.

– كيف ذلك؟ إني لا أفهم ما تريد.

– ذلك لأننا نحن معاشر رجال الأعمال السرية ننظر إلى من يزورنا لقضاء مهمة من المهمات، فإذا شاء أن نعرفه عرفناه، وإذا رأينا أنه لا يريد أن نعرفه أنكرناه.

فابتسم الفيكونت وقال له: إني أريد أن تعرفني.

– إذن أنت الفيكونت كارل موريليكس ومنزلك في شارع بيبينار وأنا مستعد لخدمتك.

– سأحكي لك أمري بكلمتين فاعلم أن لي أخًا.

– إنه يدعى البارون دي موريليكس ويقيم في شارع أوكاليه.

– ولي ابن أخ.

– إنه يدعى أجينور ويقيم في شارع سيرسنس منفصلًا عن أبيه.

– يسرني أنك تعرفنا جميعًا بهذا التدقيق. اعلم الآن أن أجينور هذا يريد أن يتزوج زواجًا لا يوافقنا.

– وإنك تريد أن تمنع هذا الزواج أليس كذلك؟

– هو ما تقول.

– كل شيء ممكن متى وُجد المال.

– المال موجود.

– إذن فلنتحدث: من هي هذه الفتاة؟

– هي فتاة فقيرة تعلم الموسيقى في البيوت، طاهرة السريرة بديعة الجمال ليس لها أهل وهي تقيم مع معلمة عجوز.

وكان تيميلون يسمع ما يقول كارل ويكتب مذكرات بأقواله بلغة اصطلاحية لا يعلمها سواه فلما فرغ من استعلامه عن أنطوانيت قال له: لدي طريقتان إحداهما سهلة ميسورة وهي أن أنصب شركًا للصبية وأقودها إلى محل شائن ثم نبرهن لأجينور أنها غير خليقة به.

فأبى كارل هذه الطريقة وقال إن أجينور شاب متفلسف يحسب نفسه خلق لإصلاح خطأ الناس وأن المرء ضعيف لا يؤاخذ بخطأ، فقد يحمله إيلام عرضها على الزواج بها سترًا لشرفها.

– إذن فلنبحث في الطريقة الثانية؛ لأنها أكثر مشقة وأغلى ثمنًا، وهي أن نلقي تلك الفتاة في مشاكل تدعو إلى مداخلة البوليس وإرسالها مؤقتًا إلى سجن بنات الهوى.

– إنها خير من الطريقة الأولى ولكني لا أريد أن يكون السجن مؤقتًا.

فنظر إليه تيميلون محدقًا مستكشفًا وقال له: إذن أنت مستعد لدفع الأجرة الباهظة التي يقتضيها المشروع.

– كم تريد؟

– خمسين ألف فرنك وليس ذلك بكثير إزاء هذه المهمة الصعبة.

– ليكن لك ما تريد.

ففكر تيميلون هنيهة وقال: إن الأمر سهل وهو أننا نستطيع أخذها بالحيلة إلى منزل ترتكب فيه جريمة سرقة فيحضر البوليس ويقبض عليها مع اللصوص فيعترفون أنها شريكة لهم وأنها داخلة في عصابتهم.

– إنه فكر مصيب ولكن أين تجد أولئك اللصوص؟

– إن لدي منهم من أثق به.

– ولكني أخشى أن تتمكن الصبية من إثبات براءتها بإثبات اسمها.

– ألم تقل لي إنها لا أم لها وإنها تخرج وحدها لإعطاء الدروس.

– إنها تخرج كل يوم في أوقات معينة.

– إذن، سأجد لها أمًّا تلتمس إخراجها من السجن، وتحاول تبرئتها فتزيد بها الظنون، وتؤيد الجريمة. إنما قل لي اسمها، واسم الشارع الذي تقيم فيه.

– إنها تقيم في شارع سانت أونوريه واسمها أنطوانيت، إذ لا عائلة لها، غير أنها لفقت حديثًا لابن أخي فادعت أنها ابنة بارونة.

فأدرك تيميلون أن في الأمر سرًّا ونظر إلى كارل نظرة المشكك من صدق كلامه فطمع وقال له: إذا وجدت أمًّا فاسدة السيرة لهذه الفتاة فسجنتها وأبطلت دعواها وأفسدت جميع براهين نسبها الذي يخال لي أنك تخشى ظهوره أتدفع لي مائة ألف فرنك؟

فاصفر وجه كارل وعلم أن كل إنكار مع الرجل محال وكل مساومة لا تفيد فقال: سأدفع لك المال.

– إذن فاذهب الآن في شأنك وسأخبرك غدًا بجميع ما أجريته.

فنهض كارل ومضى حتى إذا بلغ الباب عاد وقال: أتعلم شيئًا من أخبار سجن طولون؟

– إني أعرف جميع المسجونين فيه وأعرف من فر منهم ومن بقي، فسلني عمن تريد.

– أتعرف مجرمًا سارقًا يدعى ميلون.

فأخذ تيميلون دفترًا ضخمًا فقلب في صفحاته هنيهة وهو ينظر فيها ثم قال: نعم، إن الرجل قد فر من سجن طولون منذ ستة أشهر.

فاصفر وجه كارل اصفرارًا شديدًا لم يخف على تيميلون فقال له: ألعلك تخاف منه؟

– أخافه أكثر مما أخاف أنطوانيت، ولم يعد سبيل معك إلى الإنكار بعد اتفاقنا.

– إذن، فاعلم أن ميلون هذا قد فر مع رجل هائل، لا نستطيع أن نجاريه في مضمار، وكفى وصفًا له أنه يدعى روكامبول. واعلم يا سيدي الفيكونت أن كل مال ضائع في مقاومة هذا الداهية. وإذا كان متفقًا مع ميلون فأيقن أن مساعينا خائبة، وإني أتنازل لك الآن عن المائة ألف فرنك وأشير عليك أن تدع ابن أخيك يتزوج أنطوانيت، فذلك خير لنا جميعنا وأبقى إلا إذا أخبرتني بجميع أمرك دون أن تكتم عني شيئًا وأطلقت يدي في الاتفاق.

– سأخبرك بكل شيء.

– وأنا سأخاطر مع هذا الداهية فإذا ظفرت به بلغت أقصى درجات المجد والشهرة في مهنتنا.

١٣

في اليوم التالي لزيارة أجينور لأنطوانيت، كانت أنطوانيت راجعة من أحد المنازل التي تدرس فيها الموسيقى وهي تسرع خطاها وتخترق الجماهير المزدحمة في الشوارع وتفتكر تارة بأجينور وتارة بميلون وآونة بذلك الاتفاق الذي عرفت به اسم عائلتها، فتستطرد منها إلى أجينور ولا تجسر أن تتم تصورها.

وفيما هي تسير إذ رأت رجلًا خارجًا من باب ناد كبير، فوجف قلبها واضطرب سيرها لأن ذاك الرجل كان أجينور، وقد رآها فأسرع إليها ورفع قبعته بملء الاحترام وحياها فردت له التحية، وحاولت أن تتم سيرها فاستوقفها بافتتاحه الحديث معها وقال لها: اسمحي يا سيدتي إذ قد لقيتك أن أقول لك في الحال؛ لأني منذ الصباح أعد الدقائق وأنتظر المساء بفارغ الصبر.

– الحق يا سيدي أني أذنت لك بزيارتي في هذا المساء وأنا أنتظرك ثم حاولت أن تسير.

فقال لها: يا سيدتي إن الأمر يتعلق بميلون.

وكأن الاسم قد سحرها فوقفت في مكانها وقالت: ميلون؟

– نعم يا سيدتي لقد خابرت عمي بشأنه فقبل التماسي وذهب في الحال إلى دار الحكومة فعلم أن الرجل محمود السيرة في السجن وأن اسمه وضع في لائحة الذين سينعم عليهم بالعفو.

فسرت أنطوانيت سرورًا لا يوصف وقالت: متى يكون هذا العفو الكريم؟

– لا أعلم، غير أن عمي وعدني أن يبذل جميع ما لديه من النفوذ في سبيل الإسراع بالإفراج عنه، ثم إن هناك أمرًا آخر أحب أن أقوله لك وهو أني قابلت أبي أيضًا وكلمته عنك، وعن فضائلك، وعن حبي. فأجابني أبي يا سيدتي أنه سيلتمس منك بنفسه.

فاحمر وجه الصبية وتلعثم لسانها فلم تعلم ماذا تجيب، فزادت جرأة أجينور فأخذ يدها وقال: أيتها الآنسة المحبوبة إن أبي سيلتمس منك بنفسه، لا تقضي علي قضاء مبرمًا وتجعليني شقيًّا في غرامي إلى الأبد.

فاضطربت الفتاة اضطرابًا شديدًا وحاولت الإفلات منه وهي تقول: إلى المساء يا سيدي إلى المساء.

وفيما هي تحاول المسير رأت رجلين يسيران في مركبة سيرًا حثيثًا فصاحت صيحة دهشة عظيمة وقالت: هو هو بعينه ومحال أن لا أعرفه!

فأسرع إليها أجينور وسألها: من هو؟

– هو ميلون بذاته ذو اللحية البيضاء يسير بهذه المركبة.

ولم يمهلها أجينور وكانت مركبة معدة للأجرة واقفة في الشارع فأصعدها إليها وقال: سندركه يا سيدتي قبل أن يتوارى.

ثم جلس بجانبها وقال للسائق: إني أعطيك مائة فرنك إذا أدركت تلك المركبة.

وأشار إليها فضرب السائق جواد مركبته بالسوط فانطلق ينهب الأرض نهبًا، غير أن المركبة التي كان ميلون فيها حقيقة كانت ذات جوادين، فلم تستطع إدراكها ثم اضطرت إلى الوقوف لازدحام المركبات في الطريق فلم تستطع مركبة أجينور وأنطوانيت إدراكها فتوارت عن الأنظار.

وعند ذلك عاد أجينور بالفتاة وهو يبسط لها في الطريق أجمل الأماني وأشرفها، ولما بلغ بها إلى منزلها نزلت من المركبة وهي تضطرب فودعته والتمست منه أن لا يزورها في الليل لكثرة اضطرابها ولاحتياجها إلى الراحة فوعدها بالامتثال وانصرف.

أما أنطوانيت فإنها دخلت إلى المنزل فرحة بوجود ميلون في باريس منقبضة لعدم تمكنها من إدراكه، فلما دخلت إلى غرفتها وجدت فيها رسالة ففضتها وأسرعت بنظرها إلى التوقيع فقرأت البارون دي مورليكس.

١٤

وكانت الرسالة من والد أجينور وهي كما يأتي:

يا ابنتي العزيزة

لقد أخبرني اليوم ولدي بما كان بينكما وذكر لي عن فضائلك ما جعلني قرير البال على مستقبله، فأرجوك أن تغفري لي كتابتي إليك خفية عن أجينور وأن تكتمي عنه هذا الكتاب.

إن ولدي يحبك حبًّا لا يوصف ويرجو أن يعرف طريق قلبك بإرشاد غرامه الصادق.

وكنت أود أن أزورك بدلًا من أن أكتب إليك، غير أني عثرت أمس فكسرت رجلي واضطررت إلى ملازمة الفراش، وإني لا أجد بدًّا يا ابنتي العزيزة من أن أراك وأحادثك مليًّا في شأن ولدي محادثة لا يسمعها سوانا دون أن يعرف أجينور شيئًا من هذا اللقاء. فهل ترفضين لأبيه مثل هذا الطلب؟

إني واثق من أنك لا ترفضين، ولو كنت أستطيع الانتقال من سريري لأسرعت إليك، فلا بد لي من العبث بجميع المعاملات والعادات المألوفة وألتمس منك أن تزوريني، فإذا تفضلت يا ابنتي العزيزة بإجابة ملتمسي تجدين مركبة على باب منزلك في الساعة التاسعة من هذا المساء. وأختم كتابي بتقبيل يدك الجميلة التي يبحث عنها ولدي بملء الاحترام.

البارون دي مورليكس

ولما اطلعت أنطوانيت على هذا الكتاب وهي حائرة مبهوتة لا تدري كيف تحكم عليه فلم تجد مرشدًا في هذا المقام أفضل من مدام رينود، فأخبرتها بجميع ما اتفق لها مع أجينور وتلت عليها الكتاب.

فظهرت علائم الفرح الشديد على وجه العجوز وقالت لها: إن السعادة قد فتحت لك أبوابها يا ابنتي لأن كل كلمة في الكتاب تدل على نبل كاتبها وإياك أن تتخلفي عن الموعد فإن شرف هذا البارون لا ريب فيه.

وتركتها أنطوانيت وذهبت إلى غرفتها فجعلت تتجمل على غير عادتها لأنها على فرط جمالها أحبت أن تزيد جمالًا كي تروق للأب كما راقت لابنه.

ولكنها، مع سرورها لهذه السعادة المفاجئة، كانت تشعر بانقباض في صدرها كأنها تتوجس شرًّا، ثم تحمل هذه العوارض على محمل الرهبة فتطمئن.

وما زالت تتنازعها هذه العوامل إلى أن أذنت الساعة التاسعة فودعت مدام رينود ونزلت إلى الشارع فرأت مركبة جميلة واقفة على باب المنزل، ولكنها ترددت في ركوبها فرفع السائق قبعته وفتح لها باب المركبة فقالت: أهذه مركبة البارون مورليكس؟

– نعم يا سيدتي.

فصعدت إليها وأقفل السائق بابها ثم صعد إلى مكانه وانطلقت المركبة تجري بتلك الفتاة إلى حيث يريد السائق.

وكانت أنطوانيت تعرف جميع شوارع باريس غير أنها لم تنتبه إلى مسير المركبة لأن الخيانة لم تخطر لها في بال، ولأنها كانت مضطربة منشغلة بالتفكير في مقابلة البارون.

ولكنها بعد أن سارت المركبة سيرًا طويلًا استيقظت من سبات تصورها ونظرت في زجاج النافذة فعلمت أنها تسير في شارع مقفر تكتنفه الأشجار من الجانبين وأنها باتت في ضواحي باريس، فشغل قلبها ونادت السائق فلم يجبها وحاولت فتح باب المركبة فرأت

أنه محكم الإقفال من الخارج فوجف قلبها ولكنه لم يكلمها، بل إنه انتظر رجلًا صعد من الطريق إلى المركبة وجلس بجانبه وعادت المركبة إلى سيرها الحثيث.

ولما رأت أنطوانيت أنها محبوسة في تلك المركبة وأيقنت أنها منخطفة جعلت تستغيث حتى ملأ صوت صراخها الفضاء، ولكن صراخها لم يفدها لأن المركبة كانت تسير في مكان قفر لا يمر به أحد من الناس.

وما زالت حتى وقفت عند منزل يكتنفه شبه غابة فنزل الذي كان جالسًا بجانب السائق وفتح باب المركبة ثم قال لأنطوانيت بأدب: انزلي يا سيدتي ولا تخشي أمرًا وكُفي عن الصياح لأن الصياح لا يفيد.

غير أن أنطوانيت لم تكترث لإنذاره وجعلت تصيح وتستغيث راجية أن يسمعها أحد.

ولما قنط الرجل من إسكاتها جرد خنجره وأنذرها بالقتل فقالت: اقتلني أيها الشرير لأن الموت أحب إلي من حياة العار.

ثم عادت إلى الصياح فضغط على عنقها حتى أوشك أن يخنقها، فكانت تعود إلى الاستغاثة كلما أفرج عنها، حتى أعياه أمرها، فقال لها: إنك إذا استمررتِ على هذا الصياح، عرضت حياتك وحياة أجينور للأخطار.

وكأن هذه الكلمة سحرتها فسكتت فجأة وبدت على وجهها علائم الذعر الشديد وقالت: أي خطر على أجينور وإلى أين أتيتم بي وماذا تريدون مني؟

– خففي جزعك يا سيدتي فإننا لا نريد لك إلا الخير وما أتينا بك إلى هذا المكان إلا لدفع خطر عظيم عن خطيبك أجينور، وما هي إلا ساعة ويزول عنك ذلك الخطر الذي لا أعلمه فأبوح لك به فهلمي معي إلى هذا المنزل ولا يروعك هيئة المقيمين فيه وأخلاقهم فإنها ساعة وتنقضي ثم تعودين إلى مقابلة والد أجينور الذي بات يحبك كما يحب ولده.

فاطمأن خاطرها بعض الاطمئنان للهجة هذا الرجل لا سيما وقد علمت أن لا سبيل لها إلى المقاومة ومشت معه إلى ذلك البيت.

وكان هذا البيت مأوى لعصابة من اللصوص يجتمعون فيه نساء ورجالًا، فكلما حدثت في المدينة سرقة أو جناية خفي أمرها عن الحكومة باغت البوليس هذه العصابة وقبض على أفرادها فأودعهم السجن إلى أن تنجلي الحقيقة.

ولما دخلت أنطوانيت ذعرت لمرأى تلك العصابة، فقد كانت مؤلفة من عشرة لصوص من الجنسين وهم جالسون حول مائدة عليها آنية كبيرة من الخمر يشربون ويقهقهون ولا يكترثون لمن يدخل إليهم أو يخرج من بينهم.

ولما رأوا أنطوانيت داخلة وهي تقدم رجلًا وتؤخر أخرى صاحوا جميعهم صياح الفرح والاستبشار وتكلموا بلغتهم الخاصة قائلين: إن الطير وقع في القفص وقد حان زمن الكسب بعد العطلة.

ولكن أنطوانيت لم تكن تفهم شيئًا منهم فأقبلوا إليها وجعل بعضهم يمازحها وآخرون يتهكمون عليها وبعضهم يتظاهر بالغرام بها والغيرة عليها، وهي كلما حاولت الفرار أو الاستغاثة قال لها ذلك الرجل الذي صحبها: احذري أن تفوهي بكلمة إذا كنت تشفقين على أجينور.

وطال بها هذا الموقف الشديد حتى استولى عليها اليأس وجعلت تبحث بعينيها على تلك المائدة عن سكين تحفظها وتنتحر بها.

وفيما هي على هذا القنوط إذ علت صيحة من الخارج وسمعت أصوات السيوف تطرق على السلم فعلم اللصوص أن الشرطة فاجأتهم وقالوا: لا سبيل لنا إلى الدفاع فإنهم لا يهاجموننا إلا بعدد أكثر من عددنا وإذا دافعنا كبرت جريمتنا والتسليم خير لنا في كل حال.

وعند ذلك دخلت شرذمة من البوليس يتقدمها قائدها فأمر رجاله أن يوثقوا جميع الحضور.

وقبل أن يمتثلوا أسرعت أنطوانيت إلى القائد وقالت له بلهجة تبين الصدق عنها بأجلى مظاهره: إن الله أرسلك يا مولاي كي تنقذني من هؤلاء الأشقياء.

وبهت القائد لكلامها وهو يحسب أنها تريد التخلص من السجن بمثل هذه الحيل وقال لها: من أنت؟

– أنا يا سيدي أدعى أنطوانيت ابنة البارونة دي ميلر وقد …

غير أن أولئك اللصوص المتفقين على المكيدة لم يكادوا يسمعون قولها إنها ابنة بارون حتى ضحكوا جميعهم ضحكًا عاليًا فقال أحدهم: لله درك ما أسرع تقمصك بالبارونة.

وقال آخر: كفى عصابتنا شرفًا أن فيها النبلاء.

وقالت أخرى: أنا يا سيدي القائد، ابنة مركيز وقد اختطفني هؤلاء الأشقياء.

ودنت إحداهن منها وقالت لها همسًا على مسمع من رجال البوليس: بالله لا تنسي أني إحدى وصيفاتك.

وقال غيرها غير ذلك حتى علمت أنطوانيت أنه قضي عليها وأيقن قائد البوليس أنها من العصابة فقال لها: هلمي بنا يا حضرة البارونة فإن القضاء لا يخفى عليه مقام

أمثالك. ثم أمر رجاله أن يخفروا العصابة ويطوقوها وساروا بهم وبينهم أنطوانيت تسير مطرقة وهي تود لو تبتلعها الأرض أو تصعقها السماء إذ لم يعد لها رجاء إلا أمام القضاء.

١٥

أما قبض الحكومة على العصابة فكان بتدبير تيميلون، فإنه أرسل أحد أعوانه فادعى حدوث سرقة في منزله، وأرسل آخر إلى إدارة البوليس فوشى بالعصابة، واختطف أنطوانيت بالاتفاق مع كارل موروليكس، فأتى بها إلى هذا المنزل، وعلَّم رجال العصابة ما يصنعون مقابل أجرة معينة فامتثلوا له فيما أراد.

فلما مثلت أنطوانيت أمام رئيس البوليس جعلت تبكي بكاء متقطعًا يفتت الأكباد فحكت حكايتها بملء البساطة، فتوجع لها المدير ولكن محضر كل واحد من أولئك المتهمين كان أمامه، وقد تعود مثل هذه الأقوال فقال لها: تقولين إن اسمك أنطوانيت دي ميلر وإنك تقيمين في شارع سانت أونوريه فكيف خرجت من منزلك؟

قالت: بكتاب أرسله إلي البارون دي موروليكس.

– إذن أنت تعرفين هذا البارون؟

فحكت له أنطوانيت كل علاقتها مع أجينور.

فقال لها: أتعتقدين أن سائق مركبة البارون قد اختطفك؟

– نعم، ثم ذكرت له ما قال لها الرجل الذي كان يصحب السائق واسمه ميلون عن أجينور وتعرضه للخطر، فسأل رئيس البوليس هذا اللص فأنكر قولها وقال: إنه يعرفها منذ عهد قريب وإنها هي التي تبعته إلى ذلك المنزل من تلقاء نفسها دون أن يختطفها. ثم قال: إنها قد يكون لها معرفة بأجينور دي موروليكس فإنه شاب جميل واسع الثروة كثير الإنفاق.

فغطت أنطوانيت وجهها بيدها وقالت: كذب هذا المنافق فإني ما رأيته في حياتي.

فقال لها المدير: أتعلمين أين يقيم أجينور دي موروليكس؟

– نعم، في شارع سيرسنس.

فنادى أحد رجاله وقال له: اذهب في الحال إلى منزل أجينور دي موروليكس فأيقظه من رقاده وقل له: إن فتاة تدعي أن اسمها أنطوانيت دي ميلر وجدها البوليس الليلة بين عصابة لصوص متهمة بسرقة، وأنها تدعي معرفته. ثم قل له إني لا أجد بدًّا من أن أضعها هذه الليلة في السجن.

فصاحت الصبية منكرة وقالت: رباه أنا أبيت في السجون؟

فجعل رجال العصابة يضحكون ضحكًا معنويًّا ويكلم بعضهم بعضًا على مسمع من البوليس فيقولون ما معناه: إن هذه الفتاة تفضلنا جميعًا ولو احترفت صناعة التمثيل بدلًا من صناعتنا لبلغت أقصى درجات الشهرة.

وبعد حين عاد البوليس الذي أرسله المدير إلى منزل أجينور فقال: إنه سافر مساء أمس إلى بريطانيا وإن بواب منزله حمل له أمتعته إلى السكة الحديدية.

فلما سمعت أنطوانيت كلامه هلع قلبها وقالت: رباه لقد ضاع كل رجاء.

فقال لها المدير: إذا لم يكن لديك غير هذا البرهان فإني مضطر إلى إرسالك إلى السجن.

فذعرت وقالت: أرسل من تشاء إلى منزلي فإن البواب وامرأته ومدام رينود يعرفونني.

وقبل أن تتم كلامها دخلت امرأة عجوز إلى غرفة المدير فدنت من ميلون وقالت له مغضبة: تبًّا لك من شقي فإنك أنت الذي أفسد أخلاق ابنتي.

فما صبر ميلون عن مجاوبتها وقال: إنها فاسدة قبل أن أعرفها حين كانت في أحضانك.

أما العجوز فلم تجبه وأقبلت إلى أنطوانيت تؤنبها بالنظر ثم قالت لمدير البوليس: أرجوك يا سيدي أن ترد لي ابنتي وأنا أقسم لك إني أردعها عن عشرة هؤلاء الأشقياء.

ثم جعلت تقبل أنطوانيت وتضغط عليها ضغطًا شديدًا يمنعها عن الكلام فقال لها المدير: كفى فإني لا أستطيع الليلة إطلاق سراح هذه الفتاة وستنظر المحكمة في أمركم غدًا.

ثم أمر رجاله بإيداعهم السجن وخرج، أما أنطوانيت فإنها أغمي عليها ولما استفاقت وجدت نفسها في السجن مع أسافل اللصوص والمجرمين.

١٦

ولنوضح الآن كيف أن أجينور برح باريس فجأة وما حمله على هذا السفر السريع، دون أن يبلغ أنطوانيت وذلك أن عمه كارل مدبر هذه المكيدة بالاتفاق مع تيميلون كان يديرها بحذق شديد بحيث رأى أنه ليس من الحكمة أن يبقى أجينور في باريس بعد اختطاف حبيبته لأنه يشكل خطرًا عظيمًا على مشروعاته الهائلة.

وكان من عادة أجينور أن يذهب في الساعة السادسة من كل مساء إلى منزله في شارع سيرسنس فيأخذ رسائله ويذهب إلى النادي فيتعشى ويسهر فيه.

ولما أوصل أنطوانيت إلى منزلها بعد يأسه من إدراكه مركبة ميلون عاد إلى منزله حسب عادته فدهش لأنه رأى على الباب مركبة عمه كارل وقال له البواب: إن عمه ينتظره في المنزل منذ ساعة.

فصعد مسرعًا إليه فاستقبله عمه ببشاشة وقال له: إنك لم تكن تتوقع أن تراني في منزلك أيها العاشق المفتون فلا تعلم السبب في وجودي.

– هو الحق ما تقول يا عماه فقد شغلت بالي.

– ليس ما يشغل البال فقد جئت لأحادثك بشأن زواجك.

– أقال لك أبي كل شيء؟

– إن أباك لا يكتم عني أمرًا وأنا مسرور جدًّا لزواجك فإنه غاية ما تتوق إليه نفسي.

– إذن فأنت راض عن زواجي بتلك الفتاة الطاهرة.

– كل الرضى فقد ذكر لي أبوك عن فضائلها ما يجب أن يكون زينة كل امرأة طاهرة ولولا رضاه لما كنت بدأت بخدمتك.

– كيف ذلك؟

– ألم يخبرك أبوك عن اهتمامي بأمر ميلون؟

– نعم ولكن تعليماتك كانت مخطئة بشأنه ولم يعد سبيل لالتماس العفو عنه وإخراجه من السجن فقد عفا عن نفسه كما يظهر وبرح السجن من تلقاء ذاته.

فاضطرب كارل وسأله كيف ذلك فأخبره أجينور بجميع ما اتفق له وكيف أنه اقتفى أثره مع أنطوانيت فلم يتمكنا من إدراكه، فشعر كارل بالخطر وأحب الإيهام على ابن أخيه وقال له: لا شك أن خطيبتك قد رأت رجلًا يشبه ميلون لأنه قد يصح أن يتمكن من الفرار من سجن طولون ولكنه لا يعقل أن الحكومة لا تعلم بأمر فراره ولو كان فراره حقيقة لكنت عرفت ذلك أمس وفي كل حال فسنبحث في هذا الأمر بعد رجوعك.

فأجفل أجينور وقال: ماذا تريد برجوعي ألعلي مسافر؟

– نعم يا بني فستسافر بعد ساعة إلى بريطانيا وهو سفر لا بد منه، فإن عمتك على فراش النزاع وهي تطلب أن تراك في الحال فتقيم عندها يومًا أو يومين ثم تعود.

فذعر أجينور لهذا السفر الفجائي وبعد جدال طويل اضطر إلى الاقتناع لا سيما وأنه سيرث ثروة عظيمة من عمته فقال له: ألا أرى أبي قبل سفري؟

– لا حاجة إلى ذلك فهو يعلم أنك مسافر الليلة وقد حان سفر القطار.

– ألا أكتب كلمة على الأقل لأنطوانيت؟

– اكتب ما تشاء وأنا سأحمل كتابك إلى ابنتنا الجديدة فيكون وسيلة معرفتي بها.

فسُر أجينور من تلطف عمه وكتب الكتاب وأعطاه إياه ثم ذهب معه إلى المحطة ولم يفارقه لحظة حتى رأى القطار قد سافر وهو فيه.

وبعد أن وثق كارل من سفر ابن أخيه عاد إلى منزله فوجد تيميلون ينتظره فيه فنظر تيميلون ساعته وقال: لقد دنت الساعة العاشرة فلا بد أن يكون قضي الأمر، ومع ذلك فهلم بنا نتحقق الأمر بأنفسنا كي تعلم أني لم آخذ مالك من غير حق.

فذهبا إلى منزل أنطوانيت ووجدا أن المركبة المعدة لاختطافها برحت المكان الواقفة فيه فعلما أنها سارت بالفتاة ثم قال له: هلم بنا الآن إلى إدارة البوليس حيث تعلم منها الحقيقة وتطمئن.

١٧

بعد أن وجد روكامبول الصندوق وقرأ أسرار البارونة قال لميلون: هلم بنا الآن للبحث عن الأختين فقد آن الآوان فقد قلت لي إنهما كانتا مقيمتين في مدرسة وإن أمهما عهدت إلى ناظرتها بتربيتهما أتتذكر أين كانت تلك المدرسة؟

– نعم.

– إذن لنذهب إليها.

وسار الاثنان إلى الشارع الذي كانت فيه تلك المدرسة فرأيا أنها قد تحولت إلى منزل مأجور ونظر ميلون في ذلك الشارع فرأى كل شيء قد تغير ولكنه رأى دكانًا لبائع دخان لا يزال في موضعه على حاله ورأى صاحب الدكان واقفًا على بابه فعرفه وأخبر روكامبول بأمره فجاء روكامبول واشترى منه لفافة من التبغ وحادثه بشأن هذا الشارع وسأله عن المدرسة فعلم منه أن ناظرتها تدعى مدام رينود وأنها أفلست منذ عهد طويل فضبط أثاثها وبيع بالمزاد وهو لا يعلم أين تقيم الآن.

فقال له روكامبول: أتعرف المحضر الذي ضبط الأثاث؟

– نعم وهو يقيم في آخر عطفة من هذا الشارع.

فتركه روكامبول وذهب مع ميلون إلى منزل هذا المحضر فعلما منه أين تقيم مدام رينود.

وبعد ساعة كان روكامبول وميلون واقفين عند باب منزل أنطوانيت فنادى روكامبول البواب وقال له: أليس هنا منزل مدام رينود؟

– نعم.

– قل لي في أي دار تقيم فإني أريد أن أراها في الحال.

– لا سبيل إلى مقابلتها الآن يا سيدي فإنها لا تزال في فراشها إلا إذا ...

– قلت لك إنه يجب أن أراها في الحال.

– ألعلك قادم بأخبار من المدموازيل أنطوانيت؟

– وأين هي تلك السيدة؟

– إنها خرجت من المنزل في الساعة التاسعة من المساء ولم تعد إلى الآن وقد بحثنا عنها في كل مكان فلم نجدها، حتى إننا جميعًا لم ننم ليلة أمس، وفي الصباح ذهبت امرأتي إلى منزل البارون الذي يظهر أنه كتب إلى المدموازيل أنطوانيت وأرسل لها مركبته.

– من هذا البارون؟

– هو والد أجينور دي مورليكس وهو شاب غني يحب أنطوانيت حبًّا شديدًا.

فأنَّ ميلون أنين الموجوع غير أن روكامبول ضغط يديه ضغطًا شديدًا وقال له: اسكت.

وعند ذلك دخلت امرأة كانت امرأة البواب وقالت بصوت مضطرب: لم أجدها.

فلما رآها ميلون صاح صيحة دهش: ابنة عمي!

فانذهلت امرأة البواب أشد من انذهاله وقالت: ميلون!

ثم جعل الاثنان يتعانقان.

فبهت الزوج لهذا العناق ولكنه اطمأن لكلمة القرابة التي كانا يتبادلانها.

أما روكامبول فإنه خشي أن يفتضح أمر ميلون فدخل بهم جميعًا إلى الداخل وأقفل الباب.

ثم قال لامرأة البواب: سنخبرك فيما بعد كيف عاد ابن عمك من السجن، أما الآن فإننا ما جئنا إلى هنا إلا كي نرى مدام رينود والأختين المقيمتين معها.

– لا يقيم هنا غير أنطوانيت، أما أختها مدلين فإنها سافرت إلى روسيا، وحكاية هذه المسكينة أن ابن البارون دي مورليكس فتن بها وأراد الزواج منها، وقد جاءها أمس كتاب من والده وأنا قادمة من عنده.

– ماذا قال لك والده عن هذا الكتاب!

– قال إنه كتاب زور وإن مركبته لم تخرج من اصطبله أمس وإنه يظن بأن ابنه احتال على الصبية واختطفها.

غير أني أعتقد أن أجينور يحب أنطوانيت حبًّا شريفًا وأنه لم يحتل عليها في شيء.

– أعرِفَ أحد من الجيران بهذه الحادثة؟

– كلا غير أن زوجي في نيته إخبار البوليس.

فقال روكامبول: احذروا أن تخبروا البوليس بشيء وإياكم إطلاع أحد على هذه الحادثة.

ثم التفت إلى ميلون وقال: لقد أتينا متأخرين فإن الفتاة أصبحت في قبضة أعدائنا.

فقال ميلون وهو يضطرب: على ماذا عولت؟

– لا أعلم بعد، ولكني سأعلم ما أريد بعد ساعة.

– ألا تريد أن ترى مدام رينود؟

– لم يعد لنا بها حاجة الآن.

ثم التفت إلى امرأة البواب وقال لها: إنك تعلمين دون شك أن ابن عمك ميلون يحب هاتين الأختين حبًّا شديدًا فاعلمي الآن أني صديقه وأني لا بد لي من إيجاد الصبية، ولكن لا بد لي أيضًا في هذا السبيل من إخلاصك في طاعتي.

– قل ما تشاء.

– يجب بعد ذهابنا أن تعودي إلى مدام رينود وتخبريها أن أنطوانيت لم تصب بسوء، وأن البارون دي موريليكس نفسه هو الذي قال لك هذا القول أما أنطوانيت فستعود قريبًا.

– ولكن يا سيدي كيف يمكن أن أقول لها هذا القول إذا لم أكن واثقة من عودتها.

– كوني واثقة فإني أعرف مكانها، وإذا عصيتني فيما أوصيتك به أفسدت علي جميع أمري فطمئنيها كما أخبرتك واطمئني أنت أيضًا فإذا لم تعد أنطوانيت اليوم فهي ستعود قريبًا إذ لا بد لي من إيجادها. ثم أشار إلى ميلون وقال له: هلم بنا إلى الطبيب فنسانت ولم يعد لنا ما نعمله في هذا المكان.

ثم ودَّعا البواب وامرأته بعد إعادة الوصايا عليهما وركبا مركبة وذهبا بها إلى منزل نويل وهناك تنكر روكامبول بلباس عمال المستشفيات وتنكر ميلون بزي آخر ودخلا كلاهما إلى غرفة الطبيب المجاورة لغرفة نويل كما يذكر القراء.

فلما رأى الطبيب روكامبول بزيه الجديد أنكره وسأله من أنت وماذا تريد؟

– أنا صاحبك بالأمس فاجلس على مائدة الكتابة لأخبرك بما أريد.

فعرفه الطبيب من صوته وامتثل له فأخذ القلم بيده وأملا عليه روكامبول ما يأتي:

سيدي البارون

أغتنم فرصة علائقنا السابقة فأسألك قضاء مهمة لا أظنك تبخل عليَّ قضاءَها، وهي أني في عسر مالي شديد، فأرجو أن تبعث لي مع رسولي بعشرين ألف فرنك.

فقال له الطبيب: ما هذا السؤال؟ فإنه شبيه بالنصب، بل هو النصب بذاته.

قال روكامبول: كلا ولكنها حيلة تذرعت بها للدخول إلى منزل البارون، وسوف ترى ما يكون.

فامتثل الطبيب وأتم كتابة الكتاب دون اعتراض.

١٨

كان البارون دي موريليكس ينتظر عودة أخيه الفيكونت كارل. أما كارل فإنه توقع حدوث ما حدث؛ أي إنه توقع أن مدام رينود ستسأل أخاه البارون عن أنطوانيت. فعلمه ما يجب أن يصنع، فلما جاءت إليه امرأة البواب أنكر الكتاب أتم الإنكار وكان صادقًا في إنكاره؛ لأن ذلك الكتاب لم يكتبه عن لسانه إلا تيميلون بالاتفاق مع كارل.

غير أنه قبل أن يحضر كارل لعيادة أخيه حضر إليه رجل آخر فقال لخادمه: إني قادم من قبل الطبيب للسؤال عن صحة مولاك، وإني أحب أن أراه.

فأدخله الخادم إلى غرفة البارون.

وكان هذا الرجل روكامبول وهو لا يزال متنكرًا بزي رجال المستشفيات فلما مثل أمام البارون قال له: إني يا سيدي أحد تلامذة الطبيب فنسانت وقد أرسلني إليك أستاذي للاطمئنان عن صحتك، ولأرفع إليك هذا الكتاب.

فمد البارون إلى الرسالة يدًا مرتجفة وفضها فلما قرأ ما فيها قال لروكامبول: إن الطبيب فنسانت من أصدقائي المخلصين فلا يسعني التغاضي عما يطلبه غير أني مهما كنت غنيًّا …

فقطاعه روكامبول وقال: نعم، فإنه لا يمكن أن يوجد في منزلك عشرون ألف فرنك.

– هو ما تقول. ولهذا فلا بد لي من أن أحملك على الانتظار ساعة إلى أن أحضر هذا المبلغ من عند عميلي.

– لا بأس فسأنتظرك.

ثم جلس على كرسي وجعل البارون يكتب إلى عميله، فلما أتم كتابته نادى أحد الخدم وأمره أن يذهب بالكتاب إلى عميله.

وقد حاول البارون أن يعلم إذا كان روكامبول واقفًا على شيء من أمر الطبيب، فكان روكامبول يجيبه على أسئلته ببلاهة اطمأن لها خاطر البارون.

وعند ذلك سمع صوت مركبة وقفت على الباب وكان روكامبول جالسًا أمام النافذة فأطل منها فرأى اثنين قد نزلا من المركبة ودخلا إلى ردهة المنزل وكان هذان الرجلان الفيكونت كارل وتيميلون.

وبعد هنيهة دخل كارل وجلس على جانب سرير أخيه ثم كلمه بلغة حسب أن روكامبول يجهلها فقال له: من هذا الرجل؟

فأخبره البارون بأمره بنفس اللغة قائلًا: لقد بدأ بالنصب فإذا كان قد بدأ بعشرين ألف فرنك فأنا لا أعلم كيف ينتهي؟

– لا بأس ادفع له وسترى بعد ذلك في أمره، والآن قل لهذا الرجل أن يدخل إلى الغرفة المجاورة.

فقال البارون لروكامبول: يسوءني أني سأدعوك إلى الانتظار ساعة فقد تدركك السآمة فإذا شئت فإن في الغرفة المجاورة كثيرًا من جرائد الصباح تتسلى بقراءتها إلى أن يعود الخادم.

فشكره روكامبول ودخل إلى الغرفة وأخذ جريدة كبيرة وغطى بها وجهه وهو يوهمهما أنه يقرأ ويصغي إلى حديثهما أتم الإصغاء.

وكان الحديث بين الأخوين دائرًا على أنطوانيت. فأخبره كارل كيف أنهم قبضوا عليها وهي بين جماعة اللصوص وكيف ثبت عليها اشتراكها مع العصابة بالرغم عن دفاعها وكيف أنهم اخترعوا لها تلك الأم التي جاءت إلى إدارة البوليس تطيبها فنقضت جميع أقوالها إلى آخر ما عرفه القراء.

كل ذلك وروكامبول مصغٍ إلى الحديث أتم الإصغاء بحيث لم يفته كلمة منه إلى أن قال كارل لأخيه اصبر إلى أن ينصرف هذا الأبله — مشيرًا إلى روكامبول — فأدخل عليك تيميلون لأن هذا الداهية قد وضع خطة هائلة تضمن لنا بقاء أنطوانيت في سجن لازار إلى آخر العمر فتعلم أن الرجل يخدمنا أجل خدمة ولا يختلس مالنا دون حق.

فلما سمع روكامبول اسم تيميلون عض على شفته من الغيظ لأنه كان يعرف ذاك اللص ويعلم أنه لا يقف بجرائمه عند حد.

وعند ذلك عاد الخادم الذي أرسله البارون إلى عميله ودفع ليده غلافًا يحتوي على أوراق مالية قيمتها عشرون ألف فرنك، فنادى البارون روكامبول وأعطاه المال فأخذه وخرج.

وقبل أن يبلغ الردهة العمومية رأى تيميلون جالسًا فخشي أن يعرفه إذا رآه، فأخذ منديلًا من جيبه وعطس عطسًا متتاليًا بحيث اضطر إلى إخفاء وجهه بالمنديل فمر دون أن يتمكن من النظر إليه.

ولكن تيميلون لم يخطر له التنقيب عنه؛ لأن ملابسه كانت تدل على اشتغاله بالطب، ووجود مثل ذاك الرجل عند البارون العليل لا يحمل على شيء من الشبهة.

أما روكامبول فإنه بعد أن اجتاز تيميلون جعل يبحث بنظره عن ذلك الخادم الذي أحضر الأوراق المالية، فرآه واقفًا عند باب الردهة. ولما خرج أشار إليه أن يتبعه فتبعه حتى وصلا إلى باب المنزل الخارجي فخلا به روكامبول ثم نظر إليه تلك النظرات الساحرة وقال له: أتعلم ماذا حملت لمولاك من عند عميله؟ إنك قد حملت إليه ثروة طائلة لو علمت بأمرها لما دفعتها إليه بل كنت هربت بها إلى مكان تعيش فيه سعيدًا بفضلها.

ثم أخرج من جيبه تلك الأوراق المالية وجعل يقلبها أمامه حتى بهر ناظريه ثم قال له: ولكن هذه الثروة التي كنت تستطيع أن تستولي عليها خلسة وحرامًا أدفعها لك بجملتها إذا طاوعتني فيما أريد دون أن تقع عليك تبعة أو يطالبك أحد بشيء.

ولما رأى أن الخادم المسكين قد ضغطت الأوراق على صوابه أخرج منها ورقة قيمتها ألف فرنك وقال له: خذ هذا المال الآن عربون اتفاقنا وإذا طاوعتني أعطيتك جميع ما في هذه الحقيبة.

فاندهش الخادم وقال له: قل ماذا تريد مني؟

– لا أريد الآن إلا أن أسمع حديث سيدك مع أخيه دون أن يراني أحد من سكان المنزل فإذا بلغتني مرادي كان لك مني خير عظيم.

فبرقت أسرة الخادم وقال: إذا لم تكن تريد مني غير هذا فهو سهل ميسور ثم قال له: اتبعني.

فسار روكامبول في أثره إلى غرفة متسعة ففتح بابًا فيها يتصل بغرفة صغيرة فأدخله إليها وقال له همسًا: إن هذه الغرفة ملاصقة لغرفة نوم البارون المقيم فيها الآن

لا يفصل بينهما غير الحائط الخشبي الرقيق وانظر إلى النافذة المفتوحة فيها فإنها تطل على سرير البارون فإذا وقفت على كرسي وأطللت منها رأيت وسمعت كل شيء.

فصرفه روكامبول بالإشارة ووضع كرسيًّا تحت النافذة وصعد عليها فرأى الأخوين وتيميلون يتحادثون وظهورهم إلى النافذة، وكان تيميلون يشرح للأخوين الخطة الهائلة التي اختطها لسجن الصبية، فعرف روكامبول جميع ما يريد معرفته وأسرع بالخروج من هذا المنزل الجهنمي، فرأى الخادم ينتظره على الباب فأعطاه ألف فرنك أيضًا وقال له: سأراك فيما بعد.

ثم مشى عطفة في الطريق حيث كان ميلون ينتظره بمركبته، فركب بجانبه وأمر السائق أن يسير بمركبته إلى منزل أنطوانيت.

وكانت علائم الاضطراب بادية على وجهه فقال له ميلون: أعلمت أين هي أنطوانيت؟

– نعم، وليتني لم أعلم. فإنها وقعت في قبضة أعدائها وقد توفق هذان الأخوان إلى لقاء شريك قد يشابهني بالدهاء. ولكني لا بد لي من الفوز عليهم بإذن الله، فإني أقصد منزلها، غير أني أخشى أن أصل قبل فوات الأوان.

وما زالت المركبة تسير بهما حتى وصلت إلى منزل أنطوانيت. وكان روكامبول قد خلع ثوب تنكره في الطريق فاستقبلهما البواب فرحًا مسرورًا وقال لقد وجدنا أنطوانيت.

ففرح ميلون فرحًا لا يوصف خلافًا روكامبول فقد اصفر وجهه وسأل البواب: كيف وجدتموها؟

– إنها أرسلت تطلب إليها مدام رينود وقد جاءت برسالة منها امرأة عجوز قالت إنها في خدمة عمة أجينور، فلما اطلعت مدام رينود على رسالة أنطوانيت ذهبت بمركبة تلك العجوز لموافاة أنطوانيت تصحبها امرأتي.

فاضطرب روكامبول وسأله: والعجوز؟

– إنها أقامت في منزل مدام رينود ثم رجاء رجلان فصعدا إليها وأقاما عندها هنيهة ثم نزلا ونزلت معهما وقالت لي: كن مطمئنًا فسأعود قريبًا، وركبت مع الرجلين في مركبة واحدة.

– إنك لا تعلم أين ذهبت ولكني أنا أعلم فإنها ذهبت إلى دائرة البوليس ومنها إلى المحكمة وسيزجون أنطوانيت في سجن لازار.

فاضطرب ميلون حتى أوشك أن يذهب صوابه وقال: أمثل هذه الفتاة الطاهرة يزج في السجون؟

فقال له روكامبول: احذر من أن تذكر حرفًا عنها بعد الآن فإننا لا نستطيع التداخل بشأنها لدى الحكومة لأننا هاربون من السجن وإن تيميلون قد نال الفوز الأول ولكن الفوز سيكون لي في النهاية.

١٩

أما هذه المرأة العجوز فقد أرسلها تيميلون إلى منزل مدام رينود لتحل محلها لدى القضاء. فقد عرف القراء أن إدارة البوليس إذا كانت اكتفت بشهادة اللصوص على أنطوانيت فحكمت بإيقافها توقيفًا تدعو إليه الظواهر الأولية، فإن المحكمة لا تنظر في قضيتها نظرًا عارضًا، وأنها لا بد أن تخبرها على محل إقامتها وعن مدام رينود فإذا عرفت من مدام رينود حقيقة أمرها أطلقت سراحها في الحال. ولذلك فقد جعل همه إبعاد مدام رينود عن المنزل، وإقامة تلك المرأة العجوز مكانها فيه، حتى إذا جاءها البوليس وسار بها إلى المحكمة كانت لدى القضاة مدام رينود نفسها، فتبني حكمها على أقوالها.

ويذكر القراء أن أنطوانيت كتبت مرة إلى أجينور وقد وقع الكتاب بيد عمه كارل فأعطاه لتيميلون فقلد خطها تقليدًا غريبًا وكتب بلسانها إلى مدام رينود تخبرها فيه أن والد أجينور معارض بعض المعارضة في زواجه وأنها مقيمة عند عمة أجينور وترجوه الحضور إليها.

ولما وصل هذا الكتاب فرحت به فرحًا لا يوصف لأنها رأت أن الخط خط أنطوانيت وأن مظاهر تلك العجوز تدل على النبل والشهامة فأسرعت إلى موافاتها.

وقد قالت لها العجوز: إن عم أجينور يريد أن يقابلها في هذا المنزل مقابلة سرية للبحث في شئون زواج ابن أخيه وسألها أن تسمح لها بالبقاء في منزلها إلى أن يحضر الفيكونت كارل.

فقبلت مدام رينود بملء الارتياح وركبت المركبة مع امرأة البواب التي اضطرت إلى مرافقتها لأنها كانت مريضة.

ومما أجراه تيميلون إتمامًا لمكيدته أنه أرسل اثنين من عماله لاستئجار غرفة في ذلك المنزل الذي تقيم فيه أنطوانيت. فصعد أحدهما مع البواب لمشاهدة الغرف الفارغة واختيار واحدة منها وبقي رفيقه في المكان الذي يقيم فيه البواب.

وعند ذلك حضر اثنان من رجال البوليس السري وسألا هذا البواب الكاذب قائلين: أهنا تقيم مدام رينود؟

– نعم في الدور الثالث نمرة ١٩.

فصعدا إليها وبعد حين نزلا بها وهما واثقان أنها مدام رينود بعينها، كل ذلك والبواب لا يعلم شيئًا لانشغاله مع المستأجر الجديد.

أما روكامبول فإنه بعد أن علم هذه التفاصيل من البواب صعد إلى غرفة مدام رينود فرأى كتاب أنطوانيت المزور على الطاولة فقال بعد قراءته: إن خصمنا قوي ولكني أنا قوي أيضًا.

أما ميلون فكان ينتف شعوره من الغيظ، فطيب روكامبول خاطره وقال له: لقد رأيت من أعمالي ما استدللت منه على قوتي ودهائي، فإذا كنت تشكك بي ولا تطيعني كما أريد، تخلفت عنك وتركت الصبية لأعدائها.

فأجفل ميلون وقال: بل أطيعك فمر بما تشاء.

– اذهب الآن إلى السكة الحديدية وسافر بأول قطار إلى الرين، حيث يقيم هناك أجينور دي مورليكس، فابحث عنه حتى تجده، ومتى وجدته قل له إنك ميلون وإن أنطوانيت في خطر شديد وقدومه إلى باريس لا بد منه.

ثم خرج الاثنان، فذهب ميلون إلى المحطة، وذهب روكامبول في أمر آخر.

أما تلك المنكودة أنطوانيت فإنها دافعت عن نفسها دفاع القانطين أمام المحكمة، وطلبت إلى القضاة أن يسألوا عنها مدام رينود، فأمر القاضي اثنين من البوليس بإحضارها وأعيدت أنطوانيت إلى مكانها في محل التوقيف. وبعد ساعة عاد البوليس بتلك المرأة العجوز صنيعة تيميلون وهم يحسبونها مدام رينود، فاختلقت عن أنطوانيت أمورًا تفسد جميع أقوالها السابقة. فحكمت المحكمة عليها بالسجن في سانت لازار مع السارقات والمومسات، فحملت معهن بمركبة السجون الخاصة إلى ذلك السجن الرهيب وهي مغمى عليها. فلم تعي على نفسها إلا وهي في السجن بين أولئك الفتيات الآثمات اللواتي تعودن العيش في السجن، فلم يؤثر عليهن وجودهن فيه، بل كن يضحكن لبكاء أنطوانيت. وقد انقسمن إلى حزبين: حزب رثى لبلواها، وحزب ساءَه كبرياؤُها فاندفع في عدائها وزيادة بلائها، حتى أوشكت أن تجن لهذا المصاب.

ولنعد الآن إلى فاندا الروسية التي بسطنا تاريخها في مقدمة هذه الرواية فإنها أصبحت عبدة لروكامبول بعد إنقاذه بونفير من الإعدام وكانت تقول له في كل يوم: متى تحتاج إلي؟

فيقول لها: لم يحن الوقت بعد.

وكان روكامبول معروفًا لدى الهيئة الباريسية باسم الماجور أفاتار وأن فاندا الروسية امرأته، فلم يكن يشكل من أمرهما على خدم المنزل غير تأخر الماجور أفاتار بعودته إلى المنزل، فكانوا يعللون تأخره بميله إلى المقامرة مثل أكثر أغنياء الروسيين.

وقد عاد إلى المنزل بعد الحوادث المتقدمة عند الظهر، فدخل توًّا إلى غرفة فاندا، فوجدها جالسة تنتظره فقالت له: ألعلك عرفت شيئًا عن الأختين؟

– نعم، عرفت كل شيء. وأنا محتاج إليك لأني سأبعث بك إلى السجن.

فبرقت أسرة فاندا من الفرح وقالت بإخلاص لا حد له: ابعث بي إلى الموت إذا شئت.

– كلا بل سأرسلك إلى سجن سانت لازار.

– لأي قصد؟

– لإنقاذ أنطوانيت ميلر منه وهي إحدى الأختين.

ثم حكى لها جميع ما قدمناه من التفاصيل من حين عثوره على الصندوق إلى النهاية وقال لها: إني أحاول أن تبقى فضيحة هذه الفتاة مكتومة لا تحول دون زواجها بأجينور.

– كيف يمكن ذلك، وهي ستحاكم أمام المجالس وينشر الحكم عليها في الجرائد؟

– إنها لم تحاكم بعد المحاكمة النهائية، وهي مقيمة مؤقتًا في السجن إلى أن يصدر الحكم النهائي، وسترد إليك تعليماتي وأنت في السجن، فخذي هذا الدبوس الذهبي وخبئيه بين شعورك، واحذري من أن يضيع لأن كل السر فيه وإذا فقد منك فلا يعود لنا رجاء بإنقاذ الصبية من السجن، ثم تهيَّئِي للدخول إلى السجن فالبسي غدًا ملابس الفتيات الماجنات واحضري إلي في القهوة الإنكليزية بعد العشاء حيث تجدينني أنتظرك فيها فأخبرك بما يجب أن تصنعيه.

وبعد أن اتفقا على ذلك تركها روكامبول وذهب إلى حيث يقيم نويل فقال له: لقد بدأ دور عملك فإني أريد أن تبحث لي عن امرأة تعرف جميع خفايا سجن سانت لازار.

– إن ذلك ميسور فإني أعرف فتاة تدعى شيفيوت من مشاهير السارقات بحيث إنها تقيم معظم أيامها في هذا السجن، وربما كانت مقيمة فيه الآن وهي كثيرة المهارة وافرة الذكاء حسنة الإخلاص.

وسار الاثنان إلى بيت تلك الفتاة وسألا صاحبة المنزل عنها فقالت لهما: إنها لم تعد منذ يومين.

فسألها نويل عن عشيقها جوزيف فقالت له: إنه في هذه القهوة القريبة.

فتركها نويل وذهب مع روكامبول فرأى جوزيف جالسًا معتزلًا في تلك القهوة فجلس بالقرب منه مع روكامبول ودعاه إليه، فلبى الدعوة مسرعًا وسلم عليه سلام الأحباب لأنهما كانا في عصابة واحدة منذ أعوام.

وبعد أن سأل كل منهما الآخر عن حاله قال له جوزيف: في أية عصابة تشتغل اليوم وهل أستطيع أن أفيدك في شيء؟

– نعم، إني أتيتك لأمر خطير قد يكون لك منه فائدة إذا اتفقنا.

– حبذا ذاك؛ لأن أشغالنا باتت في كساد ولو لم تكسب خليلتي شيفيوت أمس ألف فرنك لكنت اليوم في مصاف القانطين.

– كيف كسبت هذا المبلغ ألعلها سرقته حسب العادة؟

– كلا بل كسبته بطريقة أفضل من السرقة فإننا نشتغل اليوم لحساب أبناء العائلات الكبرى تحت أوامر تيميلون.

فأصغى روكامبول إصغاء تامًّا لذكر تيميلون، وجعل جوزيف يقص عليهما جميع ما علمناه من أمر تلك المكيدة التي كادها لأنطوانيت، وكيف أن شيفيوت سجنت معها في سجن سانت لازار بعد أن قبضت من تيميلون ألف فرنك.

ولما انتهى من حكايته قال له: والآن، أية خدمة أستطيع أن أخدمك إياها؟

وكان روكامبول نظر نظرة خفية إلى نويل، فقال نويل: إن خطتنا لم يتم وضعها بعد، أفلست تقيم كل يوم في هذه القهوة؟

– نعم.

– إذن سأمر بك غدًا وسترى.

ثم ودعه وانصرف.

فلما صارا خارج القهوة قال له روكامبول: يجب أن تراقب هذا الرجل في الليل والنهار لأني سأحتاج إليه.

وما سارا بضعة خطوات حتى وقفا على بائعة تبغ فقال له روكامبول: أهذه هي المرأة التي قلت لي عنها.

– نعم.

– إذن ادخل إليها واتفق معها أن تقبض غدًا على فاندا حين تمر بها وتدعي أنها سرقتها، وادفع لها نصف الأجرة مقدمًا ثم قل لها إن الحادثة ستجري قرب القهوة الإنكليزية، فلتحضر إليها غدًا بعد العشاء بحجة أنها تحضر لي صندوقًا من السيجار.

فامتثل نويل، وبعد ربع ساعة عاد إلى رئيسه وقال له: قضي الأمر وتم الاتفاق.

٢٠

وفي اليوم الثاني كان روكامبول مع نويل في القهوة الإنكليزية يتناولان طعام العشاء مع فاندا الروسية، ثم أقبلت بائعة التبغ حسب الاتفاق فعلمها روكامبول ما يجب أن يصنعاه وافترق عنهما بعد أن أوصى بالاحتراس على الدبوس الذهبي.

وعند منتصف الليل انطلقت فاندا في أحد الشوارع الكبيرة تمشي فيها مشية تحمل على الريبة فكان الشباب يستوقفونها على الطريق.

وفيما هي تكلم أحدهم أقبل البوليس فتظاهرت بالخوف الشديد وحاولت الفرار غير أنه قبض عليها وسألها إلى أين أنت ذاهبة، فلم تجبه بل كانت تتظاهر بالرعب وتلتمس منه أن يطلق سراحها.

ولما أوشك البوليس أن يطلقها لتأثره من مظاهر خوفها أقبلت بائعة الدخان وتظاهرت أنها تنظر إلى تلك المرأة نظرة المتفرج مع الواقفين ولكنها ما لبثت أن دنت منها وتبينت وجهها حتى علقت بأردائها وصاحت بالبوليس قائلة: إياك أن تطلق سراحها لأنها سارقة وقد سرقتني أمس فما عثرت بها إلا هذه الليلة وأنا بائعة دخان وهذه رخصتي النظامية.

فلما رآها البوليس لم يعد لديه شك بجريمة فاندا فقبض عليها وساقها إلى إدارة البوليس تصحبها بائعة الدخان، وبعد استنطاقها وسماع أقوال البائعة فتشوا جيوبها فوجدوا معها ورقًا للعب ومائتي فرنك وكانت فاندا تدافع عن نفسها دفاعًا ضعيفًا لا يثبت التهمة عليها ولا ينفيها، فأمر مدير البوليس بإرسالها مؤقتًا إلى سجن سانت لازار، فأخذت إليه وسجنت في سجن التوقيف مع أنطوانيت وبقية العصابة التي لم يصدر عليها الحكم النهائي.

وهناك أخذت الراهبات ما كان معها من المال فأخذت فاندا مشطًا ذهبيًّا من رأسها فأعطته لإحداهن والتمست منها أن تبيعه كي تستعين بثمنه وهي في السجن إلى أن يخرجوها منه، فأخذت الراهبة المشط منها ووعدتها خيرًا دون أن تنظر إلى ذلك الدبوس الذي خبأته في شعرها الكثيف.

ولقد تقدم لنا القول أن بنات السجن انقسمن إلى قسمين قسم كان مشفقًا على أنطوانيت راثيًا لبلواها لأن تلك العصابة كانت عارفة بأنها ضحية تيميلون، وكان في طليعة هذا القسم فتاة تدعى مرتون الحسناء، وقسم كان مغضبًا عليها مستاء منها لكبريائها، في طليعة هذا القسم شيفيوت خليلة ذلك الرجل الذي قابله روكامبول وطلب

إلى نويل أن يراقبه، فكانت شيفيوت تعذبها بقوارص كلامها السافل، وكانت مرتون تعزيها لمصابها وتتولى خدمتها والدفاع عنها حتى أنست بها أنطوانيت وطلبت إليها أن تعينها على إرسال رسالة إلى أجينور، فوعدتها خيرًا وقالت لها: اكتبي رسالتك وأنا أتولى إرسالها فقد ألفت عيشة السجون حتى تعلمت كل خفاياها.

ولما وصلت فاندا إلى السجن أقبل عليها جميعهن ولم يطل فحصهن لها حتى جعل حزب شيفيوت يعاملها معاملة أنطوانيت لما رأوه من مظاهر عظمتها، فكن يدعونها بالبارونة والدوقة والأميرة تهكمًا عليها، فصبرت فاندا على تهكمهن صبر الكرام وأنست شيفيوت منها الضعف لسكوتها وصبرها، وجعلت تتمادى في احتقارها حتى أحرجتها وأثارت سخطها فهجمت عليها هجوم الكواسر وهشمت جسمها تهشيمًا.

ولما انجلت تلك المعركة عن فوز فاندا مال أولئك الساخطات إليها شأن الإنسان بميله إلى الغالب وتقهقرت شيفيوت بغير انتظام وهي تتوعدها بخليلها حين خروجهما من السجن.

ثم تفرق عنها الفتيات ولم يبق أمامها غير مرتون، فوقفت أمامها باحترام وقالت لها: لقد أصابك يا سيدتي من اضطهاد هذه الفاجرة ما أصاب تلك الفتاة البائسة التي دخلت معنا إلى السجن منذ ثلاثة أيام.

ثم حكت لها حكاية أنطوانيت وما لقيته من جَوْرِ شيفيوت وكيف أنها تدافع عنها وتحميها.

فوثقت فاندا من ميلها إليها وقالت لها: أأنت التي يلقبونك مرتون الحسناء؟

– نعم.

– أترين أنطوانيت كل يوم؟

– بل كل ساعة لأني توليت خدمتها وحمايتها.

– إذن اعلمي أني ما دخلت السجن إلا لإنقاذها.

فأكبت مرتون على يدي فاندا تقبلهما باكية من الفرح، فسارت بها فاندا إلى زاوية السجن وقالت لها: قلت لك إني ما دخلت هذا السجن إلا طائعة مختارة بغية إنقاذ أنطوانيت.

– إن هذا محال لأن سجن سانت لازار لا يمكن الهرب منه.

– كل شيء ممكن لأن لكل قاعدة شواذًا، ولذلك لا بد لي من أن أرى أنطوانيت.

– سأجمعك بها في الحال، قولي لي اسمك.

– لا حاجة إلى معرفة اسمي، قولي لها فقط إنني آتية من قبل ميلون.

أسرعت مرتون إلى أنطوانيت وقالت لها: بشراك يا سيدتي.

– ماذا ألعلك أرسلتي رسالتي إلى أجينور؟

– نعم ولكني ما أتيت إليك من أجل هذا.

ثم قصت عليها حكاية فاندا فسرت سرورًا لا يوصف بنجاة ميلون وأسرعت لمقابلة فاندا ودار بينهما الحديث الآتي: قالت فاندا: إنك لم تريني في حياتك يا سيدتي ولكني ما قدمت إلى هذا السجن إلا من أجلك.

– أأنت آتية من قبل ميلون كما قيل لي؟

– نعم.

– إذن فقد صدق نظري إني رأيته في باريس منذ ثلاثة أيام.

– ولكنه ليس مقيمًا فيها الآن لقد سافر إلى بريطانيا لمقابلة أجينور دي مورليكس.

فاحمر وجه أنطوانيت وقالت: أتعرفينه أيضًا؟

ولم تجبها فاندا على هذا السؤال واستطردت في حديثها قائلة: إنهم أخبروك الحقيقة في إدارة البوليس بأنهم رموك في الفخ بينما كان أجينور مسافرًا في طريق بريطانيا.

– رباه ماذا أسمع إذن يوجد من يسعى بمنع زواجنا؟

– هذا لا ريب فيه.

– أبمثل هذه الوسائل السافلة؟ ولكني لا أبالي لأن ميلون سيعود مع أجينور ويخرجانني من السجن.

فهزت فاندا رأسها وقالت: كلا ليس هو الذي سيخرجك منه بل أنا فأصغي إلي الآن إن أمك قد سلبت ثروتها.

– علمت ذلك.

– غير أنك لست في السجن بسبب زواجك مع أجينور؛ بل لأن الذين سرقوا ثروة أمك باتوا يخشون مطالبتك بها، فهم يحاولون إبقاءك في هذا السجن الرهيب إلى الأبد؛ ولذلك يجب أن تخرجي من هذا السجن دون أن يعلم بأمرك أحد، ولا يجب أن يقفوا على أثرك متى خرجت منه.

– ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

– إني سأنقذك من السجن وإن كل شيء ممكن لي وللذين أخدمهم.

فنظرت إليها أنطوانيت بانذهال وقالت لها: من أنت يا سيدتي؟

– أنا صديقة رجل أخرج ميلون من السجن وأقسم أن يرد إليك ثروتك، وهو رجل لا تعرفينه أنت ولكنه أحب مساعدتك لحبه لميلون.

– إذا كان هذا الرجل قادرًا كما تقولين ألا يستطيع إخراجي من السجن بدلًا من الفرار منه؟

– نعم ولكنه يريد أن يخفي أثرك عن عيون مضطهديك فإن ساعة فضيحة القتلة السارقين لم تحن بعد.

– وأي قتلة تعنين يا سيدتي؟

– قتلة أمك فإنها ماتت مسمومة؛ ولهذا فإننا لا نسعى إلى إنقاذك فقط بل للانتقام أيضًا.

– أواه يا سيدتي إن الانتقام ليس على شرائع المسيح.

– ولكنه ينطبق على شريعة الإنسان، فإن الهيئة الاجتماعية لا تصفح عن الإخوان إذا قتلوا إخوانهم، وبعد فإني أراك ذكية الفؤاد وأرى بين عينيك دلائل الهمة والنشاط، فأصغي إلي إن المجرمين يخونون أنفسهم حين يحسبون أنهم باتوا في مأمن من الخطر.

– لا ريب فيما تقولين يا سيدتي ولكني لا أعلم إلى أين تريدين أن تصلي بحديثك هذا.

– أريد أن تعلمي أن من تجاسر على أن يلقيك بمثل هذه الهوة الهائلة فهو أهل لكل إثم فإذا أردنا إطلاق سراحك بقوة القضاء لوجب علينا إظهار أسماء أولئك القتلة الآثمين وفضيحة أمرهم، ولكن مركزهم في الهيئة الاجتماعية عظيم فلا تبلغ إليه يدي ولا يد ميلون ولا يد ذلك الرجل الذي يقودنا.

– لقد فهمت ما تريدين غير أني زججت في هذا السجن بصفة مجرمة أثيمة فإذا هربت أفلا تثبت علي الجريمة؟

– وماذا تهمك ثبوتها؟

– إنهم يقبضون علي مرة ثانية ويحكمون علي في الحال بدليل فراري، أما الآن فإن الحكم النهائي لم يصدر بعد وأنا لا أزال أرجو البراءة.

– أعدك قبل كل شيء أنك متى خرجت من السجن لا يقبض عليك أحد، ثم إنك لم تسجني باسم أنطوانيت دي ميلر فإنك ادعيت أنك ابنة البارون ميلر فلم يصدقوك، وهم يحسبون أنك ابنة ماريوت تلك العجوز التي جاءت تطلبك مدعية أنها أمك.

– هذا أكيد غير أنه بقي بين هذه المشاكل المعقدة مشكلٌ لم أستطع حله، وهو أن القاضي الذي كان يحقق في قضيتي كان يظهر عليه أنه واثق من براءتي وأرسل يدعو إليه مدام رينود فكيف اتفق أنها لم تحضر.

فابتسمت فاندا بحزن وقالت: إنها حضرت وقالت للقاضي إنك ابنة ماريوت وخليلة ذلك اللص الشقي بوليت.

فوهت رجلا أنطوانيت وقالت: إن هذا محال.

– بل هي الحقيقة. ثم قصت عليها كيف أنهم خدعوا مدام رينود فاختطفوها وأرسلوا إلى المحكمة امرأة من أتباعهم ادعت أنها مدام رينود، وأثبتت أمام القضاء ما عرفه القراء.

ولما فرغت من حديثها قالت لها: أعرفت الآن شدة دهاء هؤلاء المجرمين ولكن يد الله فوق يدهم، وإنك عندما تهربين من سجن لازار تهربين منه باسم أنطوانيت السارقة، وليس باسم أنطوانيت دي ميلر، ومن يجسر بعد ذلك على أن يحب امرأة البارون دي موريليكس تلك الفتاة السافلة عشيرة اللصوص والمجرمين.

فارتعشت أنطوانيت وقالت: ماذا عسى أن يكون أصاب مدام رينود؟

– إن أصحابنا سيريحون بالها والآن فلنهتم بأمر إنقاذها فإننا لا ننجو من هذا السجن إلا إذا نقلنا إلى المستشفى.

– ولكني لست مريضة.

– يجب أن تكوني مريضة.

– تريدين أنه يجب أن أتظاهر بالمرض؟ ولكني لا أستطيع الكذب.

– كلا، بل ستكونين مريضة في الحقيقة.

فزاد انذهال أنطوانيت وقالت لها: كيف ذلك؟

فأخرجت فاندا من شعرها هذا الدبوس الطويل الذي أعطاها إياه روكامبول، فانتزعت قمعه وأخرجت من ذلك القمع أربعة حبوب صغيرة ذات لونين، فقالت لها: إن هذه الحبوب تتضمن الداء والدواء، فإذا ابتلعت الحبة السوداء أُصبت بقيء وإسهال، ولكن ذلك لا يحمل على الخوف فإن العاقبة محمودة ولا خطر من ابتلاع هذه الحبة.

– والحبة البيضاء؟

– إنها مفتاح هذا السجن فإذا ابتلعتيها بعد أربع وعشرين ساعة فتحت لك أبواب السجن.

فنظرت أنطوانيت إليها نظر الحائر المرتاب وقالت لها: أصادقة فيما تقولين أم أنت تخدعينني؟

فابتسمت فاندا وقالت: إني كنت أتوقع مثل هذا السؤال ولكنني سأجيبك عنه خير جواب.

ثم أخذت حبة سوداء وابتلعتها.

فقالت لها أنطوانيت باضطراب: ماذا فعلت؟

– إني ابتلعت هذه الحبة كي أكون مريضة مثلك وأذهب معك إلى المستشفى كي أنقذك.

– عفوك يا سيدتي فلقد شككت بإخلاصك لأن هذه الأيام الثلاثة وما لقيت فيها من ضروب المكر فتحت لقلبي سبل الريب بكل إنسان، والآن هاتي الحبة الثانية.

ثم أخذتها وابتلعتها.

وعند ذلك قرع جرس السجن فافترقتا وذهبت كل منهما إلى محبسها.

وفي الساعة الثامنة من المساء بينما كان طبيب السجن جالسًا في غرفته إذ أسرع إليه الخدم يصيحون أسرِع فإن الهواء الأصفر قد انتشر في السجن.

فهرول الطبيب منذعرًا في أثر الخدم فساروا به إلى محبس أنطوانيت فلما فحصها ورأى أنها مصابة بالقيء والإسهال قال: ليس هذا الداء بالهواء الأصفر ولكنه مرض هندي يشبهه.

وقبل أن يتم كلامه أقبل عليه خادم يقول إن امرأة أخرى أصيبت بهذه الأعراض نفسها وهي ذاهبة إلى غرفتها.

فاضطرب الطبيب وزاد خوفه فأخذ يد أنطوانيت وأجلسها أمامه وجعل يفحصها باعتناء عظيم.

٢١

بينما كانت أنطوانيت يفحصها الطبيب وهو لا يدري كيف يشخص هذا الداء الذي رماها به روكامبول، كان كتابها الذي أرسلته إلى أجينور يسير به أوغست إلى منزل أجينور.

وأوغست هذا رجل في مقتبل الشباب كان يهوى مرتون المدافعة عن أنطوانيت بملء جوارحه، وكان كثيرًا ما يؤنب مرتون على سيرتها الفاسدة، ولكنه على طول عشرته لها واختلاطه مع أمثالها لم ينزع منازع أولئك اللصوص ولم يقف مرة في مواقف القضاء،

ذلك لأن الحب قد طهر نفسه ونزهها عن الآثام، وهو ابن أخ جواني الجلاد الذي أنقذه روكامبول من السجن وأتى به باريس.

وكان أوغست قد تعود من حبيبته أن تنفق معظم أيامها في السجن، فكان يزورها كل يوم في سجنها حتى علمته التجارب جميع مكائد السجون، فلما اجتمع بها أخيرًا أعطته رسالة أنطوانيت سرًّا وقالت له: إنها للبارون أجينور دي مورليكس المقيم في شارع سيرسنس نمرة ١٧ فأعطيه إياها يدًا بيد واحذر من أن يخدعوك.

وقد تعود أن لا يخالف لها أمرًا لفرط هيامه بها، فخبأ الرسالة في جيبه وانطلق يهرول إلى ذلك الشارع وهو يعجب أشد العجب لأن هذا الشارع لا يقيم فيه عادة غير الأغنياء الذين لا علاقة لهم بفتيات السجون، ولكنه قال في نفسه: لعل في الأمر سرًّا لا يهمني معرفته وقد تعهدت بإيصال الرسالة فلا بد لي من الوفاء.

وما زال يسير حتى وصل إلى منزل أجينور، فهاله ما رآه من الفخامة ومظاهر العظمة، ونادى البواب فقال له: أهنا منزل البارون أجينور دي مورليكس؟

– نعم، ماذا تريد منه؟

– إني أحمل رسالة إليه.

– إنه مسافر فدع الرسالة هنا يأخذها عند رجوعه.

– كلا، فإن مرتون أمرتني أن أسلمها إليه يدًا بيد.

فحملق البواب بعينه وجعل ينظر إليه نظرات الشك وقال له: من هي مرتون هذه؟

– إنها خليلة لي.

فقال البواب باحتقار: إن مولاي البارون لا علاقة له مع أمثال خليلتك.

– وأنا من رأيك ولكن هذه الرسالة من امرأة سواها مقيمة معها بالسجن.

فلم يطق البواب سماع حديثه وقال له بجفاء: اعلم أنك هنا في منزل شريف وأنا أرجوك أن تنصرف وحدك برسالتك.

ولم يستأ أوغست من كلامه وقال له: إني ذاهب ولكني سأعود متى عاد سيدك، إذ لا بد لي من إيصال الرسالة.

ثم انصرف يمشي الهويناء دون أن ينتبه إلى رجل خرج بعده وجعل يقتفي أثره.

وكان هذا الرجل سائقًا يتجول أمام منزل أجينور كل يوم بعد هذه الحوادث الأخيرة، فلما جاء أوغست يسأل البواب عن أجينور كان هذا السائق واقفًا بالقرب منهما فسمع جميع ما دار بينهما من الحديث.

وبينما كان السائق يسير في أثره التقى بسائق آخر من أصحابه وسار وإياه في اقتفاء أوغست، أما أوغست فإنه ما زال يسير على مهل حتى انتهى إلى قهوة فدخل إليها وجلس على مائدة الطعام يشرب كأسًا من الخمر، فدخل السائقان بعده، وجلسا بالقرب منه بحيث إنه كان يسمع حديثهما فقال أحدهما للآخر: أتشاركني بشرب زجاجة خمر أيها البارون؟

فأجابه الآخر: كما تريد أيها الفيكونت.

ثم دعا أحدهما الآخر أجينور وهما يشربان ويتحادثان وأوغست لا تفوته كلمة من حديثهما إلى أن سمع السائق يقول لرفيقه: كيف حال زميلنا المركيز في خدمة مولاه؟

فأجابه رفيقه: إنه لم يعد مركيزًا وهو الآن فيكونت لأنه لا يثبت في منزله.

فتنبه أوغست وقال في نفسه: تبًّا لي من أبله لقد نسيت أن الخدم يتسمون بأسماء أسيادهم، فإذا كان أحدهم خادمًا عند كونت أطلقوا عليه في خلواتهم لقب كونت، وقد سمعت هذا الرجل يدعو رفيقه بارونًا، ثم ناداه باسم أجينور فلا بد أن يكون هو أجينور دي مورليكس وأنه صاحب الرسالة وإلا فأي اتصال بين فتاة في السجن وبين بارون حقيقي.

ثم جعل يسمع حديثهما بإصغاء فعلم من خلاله أن هذا السائق في خدمة البارون أجينور، وأن له خليلة مسجونة في سانت لازار، ولم يعد لديه شك أنه هو صاحب الرسالة، فنهض من مكانه ودنا منهما فقال إلى الذي كان يدعى أجينور: ألعلك من خدم البارون دي مورليكس؟

– نعم أيها الرفيق.

فأحب أوغست أن يستوثق منه فقال له: أين يسكن البارون؟

– في شارع سيرسنس نمرة ١٧.

– إني كنت أود أن أكون سائسًا في اصطبله فقد قيل لي إنه محتاج إلى سائس.

– إن هذا الأمر خاص بي، فتعال غدًا صباحًا فإذا كنت ماهرًا في مهنتك اتفقنا.

– في أية ساعة؟

– بين التاسعة والعاشرة والآن أتريد أن تشرب كأسًا من الخمر؟

فجلس بينهما وقال: حبًّا وكرامة.

وعاد السائق إلى إتمام حديثه مع رفيقه وقال له: إن لها صديقة في السجن تدعى مرتون يستطيع الناس مقابلتها في السجن، وهي لا بد لها أن ترى أنطوانيت وتساعدها على إرسال رسائلها لي.

وعند ذلك ذهب كل شك من فؤاد أوغست فقال له: أتعرف مرتون؟

– أعرفها أتم المعرفة بواسطة خليلتي أنطوانيت، ولكن قل لي لماذا سألتني هذا السؤال؟

– دعني قبل ذلك أن أسألك سؤالًا آخر قبل أن أجيبك وهو كيف كانت تدعوك أنطوانيت؟

– أجينور، وأنت تعلم بصفتك سائسًا أن المحترفين حرفتنا يدعون أنفسهم بأسماء أسيادهم.

– لست بسائس ولكني أيقنت الآن أن الرسالة لك.

ثم أخرج الرسالة من جيبه وحاول إعطاءه إياها، فمد السائق يده بلهف إليها، فتنبه أوغست وقال: كلا لا أسلمك إياها هنا فإني وعدت مرتون أن أسلم الرسالة يدًا بيد لأجينور المقيم في شارع سيرسنس نمرة ١٧.

– إذن فلنذهب إلى المنزل كي لا تخل بوعدك ونشرب كأسًا أيضًا قبل أن نذهب. وعند ذلك استأذن السائق الآخر وانصرف.

وبعد هنيهة خرج أوغست والسائق في طريق منزل أجينور حتى إذا مرَّا بمنزل عمه قال له السائق: أرجوك أن تنتظرني قليلًا عند بواب هذا المنزل إلى أن أكلم أحد خدامه في شأن خاص.

فامتثل أوغست وجلس مع البواب لينتظره، أما السائق فإنه صعد إلى المنزل حيث كان فيه الفيكونت كارل.

ولما رآه الفيكونت اندهش لمرآه إذ عرف أنه تيميلون متنكرًا بشكل سائق، فأخبره تيميلون بما حدث وقال له: لا بد لي أَنْ أحصلَ على هذه الرسالة لكي أتمكن من الدخول إلى منزل أجينور.

– إن ذلك سهل ميسور، فأرسل معك خادم غرفتي فتصل إلى المنزل دون أن يعترضك أحد فتجوز حيلتك على هذا الرجل.

ثم قرع الجرس فأسرع إليه الخادم فأمره بالذهاب مع تيميلون والخضوع له ونزل الاثنان.

ومن الغريب أن أوغست لم يكن حيث تركه تيميلون فاضطرب وسأل عنه البواب فقال له: إنه بينما كان جالسًا ينظر إلى الشارع إذ صادف نظره رجلًا من المارة فصاح صياح الدهشة والفرح قائلًا: «خالي.» ثم خرج مهرولًا إلى هذا الرجل فلم أعد أراه.

فتهدد تيميلون السماء بقبضتيه وجعل يتوعد ويقذف الشتايم واللعنات.

٢٢

أما أوغست فإنه حين خرج من غرفة البواب للقاء خاله فرح به فرحًا لا يوصف وكان خاله هذا جواني الجلاد، وقد جعله روكامبول يراقب منزل الفيكونت كارل كما كان تيميلون يراقب منزل أجينور.

ولم يكن أوغست قد رآه بعد خروجه من السجن فجعل يعانقه ويناديه باسمه، فقال له: كفى تناديني باسمي فإنك ستنبه إلي البوليس لأني هربت من السجن.

فسكت أوغست وابتعد وإياه وقال له: ماذا تصنع هنا؟

– إني أراقب الداخلين والخارجين إلى هذا المنزل وأشار بيده إلى منزل كارل.

فقال له أوغست: إني كنت فيه حين رأيتك. ثم أخبره بأمر الرسالة، وكيف اتفق قدومه إلى هذا المنزل.

وكان جواني يسمع حكايته بأتم الانتباه، فلما فرغ منها قال له: إذا لم يكن رئيسنا مخطئًا بمزاعمه، وهو لا يخطئ، فما هذا السائق إلا تيميلون.

– من هو رئيسكم ومن هو تيميلون؟

فأخبره خاله بأمر روكامبول وتيميلون ثم قال له: هلم بنا الآن لنرى الرئيس قبل أن يخرج تيميلون فيقبض علي دون شك.

وركب الاثنان مركبة وانطلقت بهما إلى المكان الموجود فيه روكامبول فأخبره جواني بجميع ما اتفق، فسُر روكامبول لهذا الاتفاق وأخذ الرسالة من أوغست بعد أن أقنعه خاله على تسليمه إياها، ففضها وقرأها، ثم كتب رسالة غيرها قلد بها خلد أنطوانيت تقليدًا غريبًا وقال لأوغست: يجب أن تسلم الرسالة إلى ذلك السائق الذي ادعى أنه أجينور دي مورليكس ولا بد أنه ينتظرك الآن في المنزل، واحذر أن يعلم شيئًا من الحقيقة.

ثم حكى له حكاية أنطوانيت دون أن يذكر له اسمها، ووصف له حب أجينور لها، وكيف أن عائلته احتالت على تلك الفتاة الشريفة فزجتها في السجن، إلى غير ذلك من حكايتها. ولكي لا يبقى في فؤاده أثر للريبة أعطاه الكتابين وقال له: سلم هذا الكتاب الحقيقي؛ أي كتاب أنطوانيت، إلى أجينور عند عودته من السفر، وأعط هذا الكتاب المقلد؛ أي الذي كتبته أنا مقلدًا فيه خط أنطوانيت لذلك السائق الذي ادعى أنه أجينور، وإنما كتبته تقليدًا لأعدائنا.

فأخذ أوغست الكتابين فخبأ كتاب أنطوانيت وذهب بالآخر إلى منزل أجينور، فرأى ذلك السائق فيه أي تيميلون فاعتذر إليه لخروجه من عند البواب وأعطاه الرسالة ثم قال له: إذا أحببت أن تجيب عليها فإني مستعد لخدمتك بإيصال الرسالة.

فشكره تيميلون وقال: أين أجدك مساء الغد؟

فذكر له اسم قهوة يجلس فيها وذهب.

وبعد خروجه فتح تيميلون نافذة الغرفة وصفر بصفارة فأقبل رجل كان واقفًا في الطريق فأشار له بيده إلى أوغست حين خروجه من الباب ثم أغلق النافذة. وبعد ساعة ذهب تيميلون إلى منزل الفيكونت كارل وأخبره باستيلائه على الرسالة ثم قال بلهجة المتهكم: ولكني أرسلت جاسوسًا يقتفي أثر حامل الرسالة.

فعجب كارل وسأله: لماذا؟

– لأنهم قد عبثوا بنا يا سيدي ونحن غافلون.

– ماذا تعني بذلك؟

– أعني أن هذه الرسالة التي قرأتها لم تكن بخط أنطوانيت.

– إنك مخطئ فقد عرفت أنه خطها بعينه لم يتغير.

– إن الخط مقلد أبرع تقليد وعندي أنه لا يحسن هذا التقليد إلا رجل واحد.

– من هو؟

– إن الرجل يدعى روكامبول وكنت أخشى من قبل أن يكون له دخل في أمرنا، أما الآن فقد أصبحت واثقًا من تداخله كوثوقي من حبوط مساعينا مع هذا الداهية، فإذا لم نتخذ طريقة ناجعة لإرجاعه إلى السجن في هذه الليلة فقد قضي علينا جميعًا، أما أنا فلا أستطيع أن أصنع شيئًا خلافًا لك فإنك تستطيع صنع كل شيء.

فذعر كارل لما رآه من اضطراب تيميلون وسأله: كيف ذلك وماذا تريد أن أصنع؟

– إن الأبواب مفتوحة لديك فإذا ذهبت إلى إدارة البوليس وقلت له: إنك تعرف مكان روكامبول الهارب من سجن طولون فإنه يرسل معك ثلة من الجند فتقبض عليه في الحال، وإذا لم تفعل ذلك فإن التبعة تقع عليك وحدك ولا أكون مسئولًا بشيء.

– ويحك وأين تريد أن أجد هذا الرجل؟

– لا أعلم الآن ولكني أرجو أن أعرف مقره في هذا المساء؛ ولذلك أرسلت جاسوسًا في أثر أوغست الذي حمل إلينا كتاب أنطوانيت المزور.

– وأنا لا أعلم أيضًا، كيف خطر لك أن تحسب ذلك من صنع روكامبول؟

– ذلك أنه عندما كان أوغست ينتظرني عند الباب رأى رجلًا في الطريق فخرج إليه مهرولًا وهو يناديه: يا خالي. ثم لما ذهبت مع خادم غرفتك إلى منزل أجينور جاءني أحد رجالي وقال لي: إنك لو كنت باقيًا في خدمة البوليس لكنت نلت جائزة حسنة. قلت: كيف ذلك؟ أجاب: إني رأيت من ساعة جواني الجزار وهو الذي كان جلادًا في سجن طولون وفر منه، فلو أرشدت الحكومة عليه لنلت الجزاء الحسن. ثم ذكر لي أنه رآه مع شاب تنطبق أوصافه على أوصاف أوغست فعلمت أنه خاله.

وقد علمت بالامتحان الكيماوي لحل الرسالة أنها كُتبت منذ ساعتين، ولما كان جواني هرب من السجن مع روكامبول والتقى بابن أخته حامل هذه الرسالة فلم يعد لدي شك أن لروكامبول يدًا في أمر أنطوانيت لا سيما وأن ميلون قد هرب معه أيضًا في يوم واحد.

فاقتنع كارل بهذا البرهان، وقال: إذن، إن روكامبول هذا رجل شديد الخطر.

– إنك إذا لم ترجعه إلى السجن ذهبت أنت إليه، وقتلت أنا بضربة خنجر، وتزوج أجينور أنطوانيت، فتدبر.

– إذن سأذهب إلى إدارة البوليس وأخبرها بأمره.

– كلا لم يحن الوقت بعد، إذ يجب أن نعرف مقر روكامبول لأن البوليس لا يستطيع أن يهتدي إليه، وسأعرف مقره بواسطة الجاسوس الذي أرسلته في أثر أوغست. والآن لا بد لي من الخروج من منزلك متنكرًا لأنه إذا كان جواني الجلاد وجد أمام منزلك فهو يخفره بأمر روكامبول دون شك ولا أحب أن يراني.

– وكيف تتنكر؟

– أتزيا بزي أحد خدامك وأركب أمام السائق في مركبتك حين ذهابك إلى النادي، فلا يعرفني بهذا التنكر غير روكامبول.

– إذن فلنذهب الآن فهذا الوقت الذي أذهب فيه إلى النادي.

ثم غير تيميلون زيه وخرج مع الفيكونت كارل. فسارت بهما المركبة إلى نادي أسبرج، وهو النادي الذي كان مشتركًا فيه روكامبول باسم الماجور أفاتار.

وقد اتفق أنه حين وصول المركبة إلى النادي وقفت عند بابه مركبة أخرى فخرج منها الماجور أفاتار وحَيَّا الفيكونت كارل ودخل قلبه.

وعند ذلك أسرع تيميلون إلى كارل وقال له وهو يضطرب منذعرًا: هذا هو بعينه.

فانذهل الفيكونت وقال: من هو؟

– إن هذا الرجل الذي سلم عليك هو روكامبول بعينه، عرفته وأرجو أن لا يكون قد عرفني.

فقهقه كارل ضاحكًا وقال: لقد بلغ منك الوهم مبلغًا عظيمًا لأن هذا الرجل روسي يعرفه جميع أعضاء النادي.

– سترى أني لست واهمًا، والآن إني ذاهب للنظر في أمرنا فانتظر مني رسالة. ثم تركه وانصرف.

أما كارل فإنه دخل إلى النادي فوجد الماجور أفاتار جالسًا بين حلقة من أصدقائه يحدثهم بالأخبار الروسية، فخلا بأحد أصحابه المخلصين وقال له: أتعرف هذا الماجور؟

– نعم، وأنا الذي قدمته إلى أعضاء النادي.

– أتعرفه حق المعرفة؟

– كيف لا أعرفه، وقد أقمت ستة أسابيع في ضيافة أبيه، في بلاد القوقاز.

فرجع كارل عنه، وقد وثق أتم الوثوق من أن تيميلون كان واهمًا فيما ادعاه.

ولكنه لم يطل بقاءه في النادي حتى وردت إليه رسالة من تيميلون يقول فيها: «عثرت بهم فاحضر في الحال.»

٢٣

وكان السبب الذي دعا تيميلون من أجله كارل، هو أن الجاسوس الذي أرسله في أثر أوغست عاد إليه وأخبره أنه تعقبه حتى رآه دخل إلى خمارة، فاجتمع فيها بخاله جواني الجلاد، فدخل إلى الخمارة وجلس إلى جانبهما وهو يتظاهر بالسكر الشديد بحيث إنهما لم يكترثا له، وجعلا يتحدثان أمامه بحرية فعلم منهما أين تقيم عصابة روكامبول بجملتها. ثم علم أن روكامبول سيكون معهم في الليلة القادمة فذهب مع ذلك الجاسوس إلى ذلك المنزل وعرف أن العصابة تقيم في غرفة منه عند رجل يدعى ريكولو، كان في بدء أمره من كبار اللصوص ثم تاب من اللصوصية إلى السكر، ولكنه منذ ستة أشهر لم يذق الشراب لانشغال باله بامرأته؛ لأنها كانت محبوسة في سجن سانت لازار وهي حبلى، فنغص سجنها عيشه. ولكنه كان يتعزى بإقامة بعض رجال روكامبول عنده.

ثم علم تيميلون أيضًا أن لصًّا من الذين كانوا يشتغلون تحت رئاسته مقيم في غرفة هذا المنزل، فاجتمع به واتفق معه على ما سيعرفه القراء.

ولما عرف جميع ذلك وأيقن من القبض على روكامبول وعصابته ذهب إلى النادي وأرسل تيميلون التذكرة المتقدمة.

فلما وصلت التذكرة إلى كارل خرج مسرعًا إلى تيميلون وعرف منه جميع ما تقدم وأظهر له ثقته من أن الماجور أفاتار غير روكامبول.

فلم يكترث تيميلون لكلامه وقال له: يخلق بنا الآن أن لا نضيع الوقت إذ يجب التأهب لإبلاغ البوليس وإهدائه إلى مكان اجتماع العصابة.

– هو ما أراه أيضًا، إنما يجب أن نتخذ ذريعة لإبلاغ البوليس لأني لست من الجواسيس.

– إني أعددت تلك الذريعة وهي أننا ندخل إلى منزلك من جهة الحديقة فنكسر إحدى الخزائن ونأخذ محفظة ونكتب عليها اسمك، فأُخبِّئها بواسطة أحد رجالي في الغرفة التي تجتمع فيها العصابة، ثم تدعي عند البوليس بأنك عرفت من بعض رجالك أن الذين سرقوا منزلك هم فلان وفلان وأنهم يقيمون في منزل كذا، ومتى عرف البوليس تلك الأسماء وأن أصحابها هم الهاربون من سجن طولون يرسل إليهم في الساعة التي تعينها ثلة من الجند تحيط بالبيت من جهاته الأربع فلا يعود سبيل للفرار.

فوافق كارل تيميلون وقال له: متى يجب أن أبلغ البوليس؟

– في صباح غد، والآن هلم بنا إلى منزلك لكسر الخزانة كي لا يبقى في السرقة شك.

وسار الاثنان إلى المنزل فكسرا الخزانة وأخذ تيميلون محفظة عليها اسم الفيكونت كارل.

ثم افترقا وعاد كارل إلى النادي وذهب تيميلون إلى جاسوسه الذي كان يقيم في إحدى غرف المنزل الذي تقيم فيه العصابة، فتربص وإياه حتى أيقنا أنه لا يوجد أحد في غرفة العصابة. فعالج تيميلون بابها بما كان لديه من المفاتيح حتى فتحه، ثم أخذ المحفظة ووضعها بين فراشي السرير، ثم خرج من الغرفة وأقفل بابها، وعاد إلى منزله وهو مطمئن البال، واثق من القبض على روكامبول في الغد، وقبض المائة ألف فرنك من كارل.

وكان السبب في عزم روكامبول على زيارة الغرفة التي تقيم فيها عصابته بضيافة ريكولو أن نويل تمكن من ضم هذا الرجل إلى العصابة، وقد علم منه أنه يوجد تحت غرفته قبو وأن هذا القبو يخرج منه بدهليز سري يتصل بمقابر مونمارتر، فأراد روكامبول أن يرى هذا الدهليز وضرب له ذلك الموعد.

ولنعد الآن إلى روكامبول فإنه ذهب في صباح اليوم التالي إلى منزل الطبيب فأخبره بجميع ما فعله.

وفيما هو جالس عنده إذ جاء رسول من البارون دي مورليكس يدعوه لمعالجة رجله.

فخطر لروكامبول أن يذهب مكان الطبيب وقال له: أجبه أنك مريض وأنك سترسل له حالًا طبيبًا إنكليزيًّا من أصحابك يعالجه عنك، فامتثل الطبيب وأخبر الرسول ما عمله إياه روكامبول.

وما لبث أن ذهب الرسول حتى دخل روكامبول إلى غرفة نويل المجاورة لغرفة الطبيب، كما يذكر القراء، فتنكر ومضى إلى منزل البارون دي مورليكس فلقي عنده أخاه كارل، وكانا يتحدثان بتلك اللغة الريفية وهما يحسبان هذا الطبيب الإنكليزي يجهلها، فعلم منهما أن البوليس سيقبض عليه مع عصابته في هذه الليلة.

ثم خرج كارل من عند أخيه وجعل روكامبول يعالج رجل البارون بعنف بحيث جعله يصيح من الألم صياح الأطفال.

وبعد أن مل من عذابه ربط له رجله وانصرف في شأنه فما صدق البارون خروجه لفرط ما لقيه من العذاب.

٢٤

يوجد تجاه المنزل الذي تقيم فيه عصابة روكامبول خمارة قديمة العهد ليس لها غير باب واحد يشرف على الطريق بحيث إن المقيم فيها يشاهد كل من يمر بذلك الشارع.

وكان يوجد فوقها غرفة خاصة ممتازة لها نوافذ تطل على الطريق، فيرى الجالس فيها المارة دون أن يروه.

ففي الساعة الثامنة من مساء تلك الليلة التي تقرر القبض فيها على روكامبول وعصابته، كان الفيكونت كارل دي مورليكس وتيميلون جالسين في الغرفة الممتازة يراقبان المارة من نافذتها، وذلك المنزل الذي تقيم فيه العصابة.

ولم يطل جلوسهما حتى مر رجل ودخل إلى المنزل، فقال له كارل: من هذا؟

فأجابه تيميلون: إنه يدعى بونفير، وهو أحد الهاربين من السجن. ثم حكى له حكايته.

وبعد حين أتى جواني الجلاد فأضاف تيميلون هو ذا خال أوغست الذي حمل إلينا رسالة أنطوانيت.

ثم جاء في أثره ريكولو فقال له تيميلون: هو ذا صاحب الغرفة التي تقيم فيها العصابة بضيافته وسيذهب ضحية هذه الضيافة. والآن إن معظم رجال روكامبول قد وقعوا في الفخ.

فأجاب الفيكونت: وماذا يفيدنا وقوعها إذا لم يقع الرئيس فإني أراه قد أبطأ وأخشى أن يأتي الجنود فيكبسون المكان قبل حضوره.

وبقي تيميلون والفيكونت على أحر من الجمر، إلى أن أذنت الساعة، فبرقت أسرة تيميلون، ونظر الفيكونت إليه وقال له: ما هذا الاستبشار في وجهك؟

فأجابه تيميلون: انظر إلى هذا الرجل الهزيل المصفر الوجه الذي يدنو من المنزل.

– إنه رجل هندي كما يدل عليه لونه ولباسه.

– كلا، بل إنه رجل روسي يدعى الماجور أفاتار، بل رجل باريس يدعى روكامبول.

وما لبث أن أتم كلامه حتى دخل هذا الرجل إلى المنزل، وكان روكامبول بعينه، وقد تنكر بملابس الهنود. وبعد هنيهة يسيرة جاء الجنود وكانوا أربعين جنديًّا.

فأمرهم قائدهم بتطويق المنزل ثم جعل يطرق الباب الخارجي قائلًا: افتحوا باسم الشرع.

فطار فؤاد تيميلون فرحًا وقال: هو ذا روكامبول قد سقط ولا بد لي من قبض النقود.

ولندخل الآن إلى هذا المنزل للنظر في أمور هذه العصابة فنقول: إن بونفير كان أول الداخلين إليه فلم يجد أحدًا، ثم جاء جواني فعجب لوجود بونفير وحده فسأله: أين ريكولو؟

– إنه لم يحضر بعد كما أن الرئيس لم يحضر أيضًا.

– إنه قادم في أثري فقد أمرني أن أتقدمه بضع خطوات.

ثم جاء ريكولو فقال: إني موجس شرًّا، فقد رأيت الجنود ترود قرب البيت.

فرد بونفير: لا تخف. إن الرئيس لا يخاف أحدًا وقد قلت إن لديك قبوًا ولكني لا أرى أثرًا للأقبية في هذه الغرفة.

– سوف ترى متى جاء الرئيس.

وعند ذلك فتح باب الغرفة ودخل روكامبول وأوصد الباب من الداخل، وأسرع إلى السرير الذي ينام فيه بونفير فقلب فراشه ومد يده فأخرج تلك المحفظة التي وضعها عامل تيميلون إثباتًا للسرقة التي اتهمت بها العصابة.

فبهت بونفير وقال: ماذا تصنع يا سيدي وما هذا الذي أخرجته؟

– أخرجت ما يثبت عليكما جريمة السرقة ويرجعكما إلى الليمان، ولكني وصلت بحمد الله، في حين يجب أن أصل لأن المحفظة التي ترونها بيدي سرقها تيميلون من بيت الفيكونت كارل دي مورليكس برضاه وخبأها في هذه الغرفة كي تكون التهمة ثابتة عليكم.

ثم التفت إلى ريكولو وسأله لقد قلت لي إن لديك قبوًا أليس كذلك؟

– نعم أيها الرئيس، ومدخله في هذه الخزانة.

ولكنه قبل أن يتم كلامه سمعوا قرع الباب الخارجي وأصوات رجال ينادون: افتحوا باسم الشرع.

فأخذ روكامبول مسدسين من جيبه وحملهما بيديه واستل بونفير خنجرًا وأسرع جواني إلى منضدة فجعلها متراسًا وراء الباب.

أما ريكولو فقد كان ساكن الجأش فنظر إلى روكامبول وقال له إننا سننجو من هذا القبو قبل أن يخلعوا الباب ويدركونا.

– أين هو هذا القبو؟

فأسرع ريكولو وفتح مصراعي خزانة كبيرة ثم جلس على أحد لوحاتها الداخلية فهبطت به وظهر وراءها منفذ كبير يستطيع المرء أن يمر به.

ثم هوى من المنفذ وهو يقول اقتدوا بي وعادت اللوحة إلى مكانها.

فقال بونفير لروكامبول: انج يا مولاي.

– كلا؛ لأن قائد السفينة، عند غرقها، لا يكون إلا آخر من ينجو منها.

فدخل بونفير الخزانة وجلس على اللوحة مقتديًا بريكولو فهوى ثم اقتدى جواني ولم يفضل غير الرئيس.

وعند ذلك سمع روكامبول أن الجند يصعدون السلم وقد كسروا الباب الخارجي، فذهب بملء السكينة إلى المنضدة فأعادها إلى موضعها الأول وأصلح فراش السرير الذي أخذ من تحته المحفظة.

وبينما كانت الجنود تعالج باب الغرفة، دخل إلى تلك الخزانة المتسعة فأغلقها من الداخل، وجلس على اللوحة فهوى إلى أرض ذلك القبو الخفي وكسر الجنود باب الغرفة ودخلوا حين احتجابه في وقت واحد فلم يروا شيئًا مما كان.

وقد سقط روكامبول في قبو مظلم يبلغ ارتفاعه ستة أقدام، فلما بلغ إلى الأرض صاح الجميع بصوت واحد: لقد نجونا!

أما روكامبول فإنه بعد أن ثاب إلى رشده من أثر السقوط ورأى أن الظلام يكتنفه أخرج من جيبه كبريتًا وشمعة فأنارها وظهر له قبوٌ واسع، تحيط به الخوابي والبراميل من جميع جهاته، وبدأ يفحص جدرانه فقال مخاطبًا ريكولو: أيوجد في هذا القبو منفذ للمقبرة كما أخبر نويل؟

– نعم.

– من أين؟ ألعله من هذا الباب؟ مشيرًا إلى باب القبو.

فابتسم ريكولو وقال: كلا؛ لأن هذا الباب يؤدي إلى سلم ثم إلى رواق طويل، ولا بد للبوليس أن يهتدي إلى الخزانة ثم القبو فلا يجد أمامه غير هذا الباب.

– إذن كيف نخرج؟

– نخرج من الطريق المؤدية إلى المقبرة وهي طريق وعرة ولكنها تؤثر دون شك على الوقوع في شرك الجند انظر إلى هذا البرميل الضخم المستند إلى الجدار إن طريقنا ستكون من قلبه.

ثم رفس هذا البرميل فانفتح فيه باب يستطيع المرء أن يمر به.

فاقترب روكامبول وأدنى الشمعة فظهر له سرداب طويل عميق فقال لهم ريكولو: سيروا أمامي في هذا السرداب إذ لا بد لي من التأخر بعدكم كي أقفل باب البرميل.

هذا ما كان من أمر روكامبول وعصابته. وأما الجنود فإنهم بعد أن كسروا باب الغرفة جعلوا يترددون في الدخول إليها لخوفهم من روكامبول وعصابته إلى أن تحمس قائدهم فهجم ومسدسه بيده وهجم الجنود في أثره، ولكنهم لم يلبثوا أن دخلوا الغرفة حتى انذعروا ووقفوا حائرين مبهوتين لأنهم لم يروا فيها أحدًا.

ومما زاد في انذهالهم أنهم رأوا رجال العصابة قد دخلوا ولم يروا منفذًا في الغرفة فجعلوا يفعلون ما فعله روكامبول قبلهم فيفتشون الغرفة ويقلبون فرش أسرتها ويبحثون في أرضها وسقفها ويقرعون جدرانها فلا يسمعون صوتًا يدل على وجود منفذ.

وكان في هذا البيت كثير من الغرف المعدة للإيجار فخطر لهم أن العصابة مختبئة في أحدها وذهب بعضهم لتفتيشها فلم يقفوا على أثرها، ولكنهم علموا أن لهذا البيت أقبية فاهتدوا إلى مداخلها من الجيران وفتشوها ولم يفطنوا لسر البرميل ولم يخطر في بالهم هذا الخاطر.

أما الفيكونت دي مورلكيس وتيميلون فإنهما لما رأيا ازدحام الناس دخلا مع الداخلين وعلما ما كان من أمر فرار العصابة وعدم وجود آثار السرقة، فاصفر وجه تيميلون وانصب العرق البارد من جبينه ودنا من ذلك الرجل الذي عهد إليه أن يدس المحفظة بين فراش السرير وقال له: ماذا فعلت؟

فأقسم له أنه وضعها في المكان الذي أمره أن يضعها فيه.

أما الفيكونت فإنه لم يفهم شيئًا من هذه الألغاز فدنا من تيميلون وسأله: ما هذا الذي أراه وما هذه الألغاز؟

– تعال معي لأخبرك.

ثم خرجا حتى إذا أصبحا على الطريق العام قال تيميلون: إن الذي تراه هو أننا وقعنا في الفخ الذي نصبناه لروكامبول وأنا هارب من باريس وكن أنت على حذر من هذا الداهية.

٢٥

وقد استولى الرعب العظيم على تيميلون فجعل يسير مسرعًا كأنما روكامبول يطارده، فاضطر الفيكونت إلى اللحاق به حتى أدركه فوضع يده على كتفه وقال له: ماذا تفعل أجننت؟

– كلا، ولكني خائف فاتبعني.

– ومما هذا الخوف وإلى أين تريد أن أتبعك ألعلك تريد القبض عليه؟

– كلا، اركب معي هذه المركبة وهلم بنا.

وسارت بهما المركبة فسأله تيميلون: ألم تر كما رأيت أنا روكامبول وعصابتَه دخلوا إلى الغرفة ولم يخرجوا منها؟

– نعم رأيت ذلك وأنا أعجب لخروجهم.

– أما أنا فلا أعجب لفراره، بل أعجب لخطئي لأن هذا الرجل لا يؤخذ إلا مباغتة وهو نائم ولكنه متى نجا لا يدركه أحد، ثم ألم تقل لي إن ذلك الطبيب الذي كان يعالج أخاك أرسل إليه مرة أحد رجال المستشفيات وأرسل إليه اليوم حكيمًا إنكليزيًّا؟

– نعم.

– أكنتما تتحدثان أمام هذين الشخصين بشأن أنطوانيت.

– نعم ولكن حديثنا بلغة خاصة.

– لا يوجد لغة تخفى على روكامبول، وإن هذين الشخصين واحد وهو روكامبول، وقد عرف حديثكما فأنت الذي فضحت سرنا. فليهرب الآن من يستطيع الهرب.

– ولكن إلى أين نحن متوجهون؟

– إلى منزلي لأن روكامبول لا بد أن يكون فيه بعد ساعة.

فاستاء الفيكونت لما أظهره تيميلون من الخوف وقال له: كيف علمت أنهم لا يقبضون عليه؟ ألم تر أن المكان مطوق بالجند ولا منفذ له؟

– لا بد أن يكون فيه منفذ سري تحت الأرض يتصل بمقابر مونتمارتر.

– لا شك أنك فقدت صوابك.

– سوف تراني غير مخطئ في مزاعمي، وإن روكامبول نجا على ما وصفت لك.

– وإذا كان ذلك فما نعمل في منزلك؟

– إني ذاهب لأخلص أوراقي وأموالي من قبضته.

– إذن لا تزال تزعم أنه سيأتي إلى منزلك.

– بل أنا واثق. وإذا كنت لا أحب أن أموت مطعونًا بخنجر فلا بد لي من الفرار منه، وإذا كنت تضمن لي السلامة من كيده فإني أتخلى لك عن المائة ألف فرنك التي وعدتني بها.

وعند ذلك أوقف تيميلون المركبة وقال للفيكونت: انتظرني هنا ربع ساعة وسأعود إليك وأخبرك بما صنعت.

ثم ترجل من المركبة فمشى بضع خطوات في الشارع، وعطف منه على شارع مهجور فمشى فيه حتى انتهى إلى بيت مرتفع فصعد سلالمه إلى الدور الخامس منه، وأخرج مفتاحًا من جيبه وفتح الباب وولج منه إلى غرفة كان فيها امرأتان: إحداهما عجوز والثانية صبية نادرة الجمال.

فلما رأته الصبية داخلًا صاحت صيحة فرح وأسرعت إليه تعانقه قائلة: أين كنت يا أبي فإنك لم تحضر منذ يومين وقد شغلت بالي.

فقبل تيميلون جبينها وابتسم لها ابتسام الحنو فإن هذا الإنسان الجهنمي ما لبث أن رأى ابنته حتى استحالت أخلاقه وأصبح إنسانًا يشعر بحنو الوالد ثم اعتذر عن غيابه بكثرة مشاغله.

وبعد أن لاطفها وآنسها قال لها: ألا تذكرين يا ابنتي العزيزة أنني وعدتك بالسفر إلى نورمانديا والإقامة فيها مع عمتك؟

فانتعش فؤاد الفتاة وقالت: نعم، فقد طالما وعدتني هذا الوعد وكانت مشاغلك تحول دون وفائك بعد فهل كتب لنا السفر على لوح المقدور.

– نعم يا ابنتي وسنسافر في هذه الليلة عند انتصاف الليل فتأهبي له وأنا سأعود إليك في الساعة الحادية عشرة.

– ولكنك لم تقل لي شيئًا من ذلك أول أمس.

– لأني لم أكن حاضرًا للسفر فأسرعي بالتأهب لأن القطار يسافر عند منتصف الليل.

– ثم دخل إلى إحدى الغرف فأقام فيها هنيهة وعاد إلى ابنته فعانقها وخرج إلى حيث كان الفيكونت ينتظره في المركبة فركب بجانبه، وبعد أن سارت بهما أخبره: إني سأبرح باريس بعد ساعتين.

فاضطرب الفيكونت وسأله: كيف ذلك أتتخلى عني؟

– ذلك لا بد منه. على أنك إذا كنت تريد أن تموت أنطوانيت فإنها تموت غدًا مساء، ولا يكلفك موتها غير خمسين ألف فرنك، تدفعها لي مقابل هذه الجريمة الجديدة، ولا تخف فإنك لا تدفع هذه النقود إلا بعد ثبوت الوفاة.

ولبث الفيكونت هنيهة ساكتًا لا يجد جوابًا، وهو يتأمل موقفه الحرج، حتى أخرجه تيميلون من هذا الموقف بقوله: ما بالك ساكتًا؟ فإذا كان قتل هذه الفتاة يروعك فإني لا ألح عليك، وأنت شخصٌ ذكي الفؤاد قادر على مقاومة الصعاب وحدك، وأما أنا فلا أنكر عليك أن لا قِبَل لي بمقاومة روكامبول.

– كيف تتخلى عني؟

– إني سأبرح باريس عند منتصف الليل فأكون في الساعة السادسة صباحًا في الهافر وبعد ذلك بساعة أسافر.

– إلى أين؟

– إذا رضيت باقتراحي سافرت إلى إنكلترا، وإذا رفضته سافرت توًّا إلى أمريكا.

– هب أني قبلت اقتراحك فكيف تستطيع تنفيذه إذا كنت مسافرًا بعد ساعة كما أخبرتني؟

– ذلك لأن أنطوانيت لم تدخل إلى السجن وحدها بل دخلت معها امرأة من أتباعي تدعى شيفيوت.

– وما عسى أن تصنع هذه المرأة؟

– إنها تستطيع أن تضع في صحن أنطوانيت أو كأس شرابها سمًّا زعافًا يقتل في التو.

– متى تفعل ذلك؟

– غدًا.

– كيف يمكن ذلك وأنت مسافر الآن؟

– إني أعطي هذا السم قبل سفري لرجل من أتباعي وهو يسلمه غدًا إلى شيفيوت.

– وهل أنت الذي تسلمه السم؟

– كلا. بل أنت تسلم السم إلى هذا الرجل.

فجعل العرق ينصب من جبين كارل، وكانت المركبة قد وصلت إلى مكتب تيميلون فأوقفها ونزل منها وقال لكارل: إني أمهلك ربع ساعة للتفكير بأمرك وسأعود إليك فإذا وجدتك باقيًا في المركبة تنتظرني علمت أنك رضيت باقتراحي فأعطيك السم المذكور، وإذا لم أجدك علمت أنك غير محتاج إلى خدمتي. فافترقنا وكتمنا هذا السر في أعماق قلبينا.

ثم تركه تيميلون وصعد إلى مكتبه فأخذ منه جميع ما يهمه حفظه من أوراق وأتلف الباقي، وأخذ رشاش السم وعاد إلى المكان الذي ترك فيه كارل فوجد أنه باق بانتظاره، فقال له وهو يبسم ابتسامة المتهكم: أراك راضيًا باقتراحي؟

– نعم.

– لا جرم فإن من يكسب عدة ملايين لا يبالي بدفع خمسين ألف فرنك، إن أنطوانيت ستموت لا محالة.

ثم صعد إلى جانبه قائلًا: لنتحدث الآن فاعلم أني حين أعطيك السم وأرشدك إلى طريقة استعماله تدفع لي الخمسين ألف فرنك.

– ألعلك تشكك بكلامي؟

– إني أشك بكل ما لا تخطه اليد ولا بد لي كي أكون واثقًا من دفع المبلغ أن أفيدك بعهد.

– كيف ذلك؟

– ذلك أن تنزع من دفترك ورقة وتكتب فوقها ما يأتي:

عزيزي تيميلون

يجب التخلص من أنطوانيت ابنة أختي فافعل ما تشاء وإذا احتجت فاستعمل الخنجر أو السم.

ولما رأى تيميلون أنه يتردد تابع: إن الوقت قصير وركامبول في أثرنا ولا بد لي من السفر عند انتصاف الليل فكفى ترددًا وأسرع بالاختيار.

– إني إذا كتبت ما تمليه علي تصبح شريكي في الجريمة فتكون قيدت نفسك وأنت تريد تقييدي.

– إنك مخطئ في زعمك فإني مسافر إلى إنكلترا وسيأتيك رجل بعد موت أنطوانيت يحمل إليك هذه الرسالة التي أمليتها عليك، فإذا دفعت له خمسين ألف فرنك أعطاك الرسالة فتفعل بها ما تشاء، وإذا أبيت الدفع وَضَعَها في غلاف وكتب فوقه عنوان نظارة الحقانية، ثم يضعه في صندوق البريد، ومتى اطلعت عليها الحكومة قبضت عليك، أما أنا فأكون في طريقي إلى أميركا.

فأذعن كارل له وكتب الرسالة ثم وقَّع عليها ودفعها لتيميلون، فأخذها وأعطاه غلافًا مختومًا قائلًا له: تجد في هذا الغلاف السم والتعليمات اللازمة له.

– ولكنك لم ترشدني إلى طريقة إيصاله إلى السجن.

– اذهب غدًا في الساعة الثامنة من الصباح إلى شارع سانت أوبوتين نمرة ٧ واطلب أن ترى رجلًا اسمه لولو، ومتى لقيته أعطه هذا الغلاف وقل له: إنه مرسل من قبلي إلى شيفوت في سانت لازار فيوصله في الحال.

وعند ذلك وصلت المركبة إلى بيت تيميلون فودع الفيكونت ومشى في عطفة الشارع، قائلًا في نفسه: لا بد أن تكون ابنتي قد أعدت جميع معدات السفر وهي تحسب أني مسافر بها إلى نورمانديا ولكننا متى وصلنا إلى الهافر فلا بد لها من السفر معي إلى حيث أريد.

وجعل يصعد سلالم هذا البيت العالي، ولم يكن فيه أثر للنور، فشعر بانقباض خفي لم يدرك له سرًّا. ولما انتهى إلى الدور الرابع رأى في البيت الذي فوقه نورًا فاستنتج منه أن ابنته لا تزال في انتظاره.

وصعد حتى وصل إلى منزلها فطرق الباب فلم يجبه أحد وقد دهش حين رأى المفتاح في القفل.

فاضطرب فؤاد تيميلون وفتح الباب ودخل إلى أول غرفة، فرأى مصباحًا موضوعًا على منضدة عليها زجاجة فارغة وكأسان.

فنادى ابنته باسمها فلم تجبه فأعاد النداء فلم يجبه غير الصدى، فدخل وهو مضطرب إلى غرفة نومها فرأى مصباحًا آخر على المستوقد ووجد ابنته نائمة في سريرها، فناداها محاولًا إيقاظها فلم تجبه، فاقترب منها وهو يكرر النداء.

ولكنه قبل أن يصل إلى سريرها انشق سجف أمام السرير وبرز منه رجل يحمل بيديه مسدسين فقال له: إن صحت أقل صياح فإن ابنتك مائتة لا محالة.

فجمد الدم في عروق تيميلون ووقف شعر رأسه من الرعب وتراجع منذعرًا إلى الوراء.

أما هذا الرجل فكان روكامبول.

٢٦

ولم يسع قلم كاتب وصف ما لقيه تيميلون من الخوف على ابنته وعلى نفسه، وما أصابه من الاضطراب حين برز له هذا العدو الشديد، وخرج من وراء السجف خروج الشيطان الرجيم وبيديه آلات الموت ينذره فيها بالقتل الذريع، فمرت به دقيقة كانت دهرًا لا حَدَّ له وجعل يرتجف أمام روكامبول حتى تمكن منه الضعف وسقط على ركبتيه.

فقال له روكامبول: لا تخف فإن ابنتك لم تمت ولكنها نائمة وهي ستظل نائمة عدة ساعات.

فجعل تيميلون ينظر إلى ابنته نظرات الإشفاق والحنو وينظر إلى روكامبول نظرات التوسل والرجاء. فقال له روكامبول: إن من كان مثلك لا يخلو من سلاح فألق سلاحك إلى الأرض.

وكأنما تيميلون أراد أن يحنن قلب روكامبول على ابنته فأراد أن يطيعه طاعة عمياء، ولذلك لم يلبث أن أمره بإلقاء السلاح حتى فك أزرار سترته فأخرج من منطقته خنجرًا وألقاه أمامه.

فسأله روكامبول: أهذا كل ما لديك من السلاح؟

– أقسم بالله إني لا أحمل غير هذا الخنجر.

– إذن فابعد عني قليلًا.

فامتثل تيميلون، والتقط روكامبول الخنجر عن الأرض، ثم أخذ كرسيًّا فوضعه أمام السرير وبعد أن جلس عليه قال له: لنتحدث الآن فإنك أردت أن تلقيني بقبضة الشرطة فقل لماذا وأي ثأر لك علي؟

إلا أن لسان تيميلون التصق بحلقه من الرعب فلم يستطع أن يجيب فسأله روكامبول: إني أراك مضطربًا وأرى الرعب يعقد لسانك وسأقول لك عما فعلت أنا إلى أن تحل عقدة لسانك فتخبرني عما فعلت أنت، فاعلم أيها الأبله أني حين ذهبت إلى

الشارع الذي تقيم فيه عصابتي كنت أعلم أنك أقمت البوليس يترقبني وأنك كنت جالسًا مع الكونت كارل دي مورليكس في خمارة تجاه البيت حين دخلت إليه أليس كذلك؟

فهز تيميلون رأسه إشارة إلى الموافقة، فتابع روكامبول: وبينما كانت الجنود تبحث عني في ذلك البيت وهي منذهلة لفراري جئت أنا إلى منزلك بملء السكينة فأغريت خادمتك على أن تضع في كأس شراب ابنتك مخدرًا، فما لبثت أن شربته حتى تخدر جسمها فنامت كما تراها، ومن كان مثل روكامبول وقد تخرج في مدرسة السير فيليام فلا يصعب عليه إغراء خادمة وإيجاد مخدر.

أما ابنتك فلو لعلعت الرعود وقصفت المدافع لما تنبهت قبل ست ساعات وهذا ما أحتاج إليه من الوقت.

فتغلبت عواطف الحنو الأبوي على فؤاد هذا الرجل العاتي، فسقطت دمعة من عينه وأجاب: رحماك إن ابنتي لم تسئ إليك بشيء وليس من المروءة أن تنتقم منها فإذا شئت الانتقام فها أنا بين يديك وكل الإساءة مني.

فابتسم روكامبول وأجاب: إنك لا تعرفني الآن ولو اتفق مثل هذا الحادث منذ عشرة أعوام لكنت كمنت لك عند باب منزلك وطعنتك عند خروجك طعنة قاضية، ولا أبالي فإنك لا تزيد في حساب الذين سفكت دماءهم غير واحد.

أما اليوم فهو غير الأمس وقد عاهدت ربي أن لا أسفك دمًا بشريًّا إلا حين تفرغ جَعْبَتِي من وسائل السلم، ولهذا استخدمت ابنتك للانتقام منك أتدري لماذا أريد هذا الانتقام؟ إني أنتقم منك لأنك تخدم الفيكونت والبارون دي مورليكس.

– أتعرف هذا؟

– بل أعرف أيضًا أنك سجنت في سانت لازار فتاة طاهرة تدعى أنطوانيت.

– إذن أنت تعرف كل شيء؟

فهز روكامبول كتفيه قائلًا: إنك نهجت في هذه الجريمة مناهج كبار اللصوص والأذكياء، ولكن الفرق لا يزال بعيدًا بيني وبينك، إذ لست من أَكْفَائِي في هذا المضمار.

فأطرق تيميلون برأسه وقال: والآن ماذا تريد مني؟

– سترى.

ثم دنا من النافذة وصفر صفيرًا خاصًّا وعاد إلى تيميلون فقال: إذا كان يهم الفيكونت والبارون دي موريكس سجن أنطوانيت فأنا يهمني إنقاذها وقد وقعت في قبضتي لسوء حظك فلا بد لي من إزالتك عن طريقي.

وبينما كان روكامبول يكلمه كان يسمع وقع أقدام على السلم فأتم حديثه بقوله: إنك أخطأت خطأ عظيمًا بإقامة ابنتك في هذا البيت وبتعيين مثل هذه الخادمة لخدمتها فإنها باعتك بأبخس الأثمان، وإن البيت معتزل أتم العزلة فلم يحل دون ما أبغيه.

وعند ذلك طرق الباب فقال له روكامبول: افتح للداخلين.

فامتثل تيميلون صاغرًا وفتح الباب فظهر له بونفير وجواني الجلاد، فدفعاه إلى الداخل ودخلا ثم أوصدا الباب.

فقال له روكامبول ضاحكًا: أرأيت كيف استحال الأمر إلى ضده وكيف أنك وقعت في الفخ الذي نصبته.

ثم التفت إلى بونفير وسأله: هل المركبة مهيأة.

– نعم؟

– إذن أسرعوا إلى العمل.

فأجفل تيميلون وأجاب: ماذا تريد أن تصنع بي؟

– ليس لي مأرب بك بل بابنتك.

– ابنتي، رباه وما عسى أن تصنع بها.

ثم أسرع إلى السرير كي يحول بينها وبينهم.

فصوب روكامبول مسدسه عليها وسأله: قل أين تريد أن أصيبها؟ في القلب أم في الرأس؟

فتراجع تيميلون وجثا على ركبتيه وجعل يتوسل إليه: عفوًا ومرحمة فليس لهذه الفتاة ذنب.

– دعني أفعل ما أشاء وأصغ إلي.

– ابنتي ابنتي.

– قلت لك أصغ إلي فإن ابنتك ستكون رهينة عندي وأنت تعرفني، بل إنك عرفتني حين كنت تشتغل برئاستي في الجمعية السرية القديمة، أريد بذلك أنك تعلم شدة حرصي على الوفاء حينما أتعهد به فاعلم أن ابنتك ستكون رهينة عندي وأن حياتها موقوفة على حياة أنطوانيت، فإذا ماتت أنطوانيت فليس لابنتك مطمع في الحياة.

فطاش تيميلون من يأسه وقال: ما يريد هذان الرجلان؟

– سترى ما يريدان، ثم أشار لهما إشارة خفية، فدنا بونفير وجواني من السرير فكفناها بغطائه كما يكفن الميت، ثم حملها أحدهما على ظهره وخرجا بها.

فصاح تيميلون: اقتلني ولا تختطف ابنتي. وحاول أن يلحق بهما فأوقفه روكامبول وقال له: لا حاجة لي بموتك بل كل حاجتي إلى حياتك.

– ولكنهما ذهبا بابنتي.

– إنها سترد إليك حين تخرج أنطوانيت من سانت لازار وتتزوج أجينور دي موريليكس.

– وفي انتظار ذلك؟

– أقسم لك بكل مقدس عندي أني سأحرص عليها أكثر مما تحرص عليها أنت.

فجعل تيميلون يفرك يديه من اليأس ثم سمع روكامبول يأمرهما بالذهاب بالفتاة، فأجفل تيميلون وقال له: كيف ألا تذهب معهما أنت وكيف تضمن الحرص عليها من لصين؟

– إني واثق منهما كل الثقة فلا تخف.

وعند ذلك خرج بونفير وجواني بالفتاة، فكان تيميلون يسمع وقع أقدامهما على السلالم، ثم سمع صوت سير المركبة، فصاح صيحة يأس وأوشك أن يسقط على الأرض لأنه تذكر في تلك الساعة الرهيبة أنه أعطى السم للفيكونت كي يسمم به أنطوانيت وقال بلهجة الجنون: رباه، أخشى أن يفوت الأوان.

– ماذا تعني بما قلت؟

– أعني أنه إذا كانت حياة ابنتي موقوفة على حياة أنطوانيت فلا أحب أن تموت أنطوانيت.

فذعر روكامبول بدوره وأصابه من الرعب ما أصاب تيميلون.

٢٧

كان الفيكونت دي موريليكس رجلًا ثابت العزيمة قوي الإرادة رابط الجأش وقد تأثر هنيهة مما رآه من رعب تيميلون، ثم ذهب عنه هذا التأثير بعد افتراقهما فقال في نفسه: وما عساه يصنع روكامبول بعد موت أنطوانيت فإنه لا يستطيع إحياءها بعد الموت.

وقد قال لي تيميلون أن أذهب إلى لولو في الساعة الثامنة من الصباح فأعطيه السم، غير أن هذا الرجل إذا كان يوجد في منزله في هذه الساعة من الصباح فلا بد أنه يوجد فيه الآن، وقد أوشك أن ينتصف الليل، وخير لي أن أذهب إليه الآن فأنام مستريح البال بعد إعطائه هذا السم الفتاك الذي يحرق جوانبي وهو في جيبي.

وكان تيميلون قد أرشده إلى منزل لولو فذهب توًّا إليه وسأل البواب عنه فقال إنه لم يعد بعد، غير أنك إذا كنت شديد الاحتياج إليه تجده في هذه الخمارة القريبة منك يعاقر المدام مع إخوته، فشكره وذهب إلى تلك الخمارة فسأل صاحبها عن لولو فقال له: إنه في الزاوية مع رفيقين له.

فذهب إليهم الفيكونت وقال لهم: من منكم يدعى لولو؟ فانبرى له رجل شديد العضل ضخم الجثة ظاهر بين عينيه أثر الشراب وقال له: أنا هو فماذا تريد؟

– أريد أن أحدثك على انفراد.

– قل ما تشاء أمام إخواني فليس بيننا أسرار تكتم.

– كلا فإني قادم إليك من قبل تيميلون.

فأثر هذا الاسم على الجماعة وقام لولو في الحال فاعتذر من الجماعة وخرج مع كارل إلى الشارع.

وكان الشارع مقفرًا فرأى لولو مركبة واقفة أمام الخمارة فقال للفيكونت: أهذه المركبة لك؟

– نعم.

– يظهر أن تيميلون يحب الإسراع في المهمة التي ينتدبني لها.

– إنه يريد أن ترسل رسالة مستعجلة إلى شيفيوت في سجن لازار.

فغضب لولو وشتم وألقى سيكارته إلى الأرض قائلًا: إني أبحث منذ ثلاثة أيام عن تيميلون فلا أجده ولو وجدته لما انتدبني إلى هذه المهمة.

– لماذا؟

– لأني تخاصمت مع أحد مفتشي هذا السجن فأراد الانتقام مني ومنعني عن الدخول إليه.

– والآن ماذا نعمل، وكيف السبيل لنوصل هذه الرسالة المستعجلة؟

فأطرق لولو هنيهة يتمعن ثم أجاب: إذا كان تيميلون يدفع مائتي فرنك لا أعدم وسيلة لإيصالها.

– إنه يدفع دون شك.

– ولكن الدفع يجب أن يكون الآن إذا أراد أن تصل رسالته في الصباح.

– إنه عهد إلي أن أدفع لك مثل هذه النفقة والمال معي، فقل لي بأية طريقة تريد إيصالها؟

– إني أعرف فتاة إذا أعطيتها هذا المبلغ ترضى أن تزج نفسها في السجن طائعة مختارة فتوصل الرسالة إلى شيفيوت، فإذا شئت هلم معي إليها قبل أن يفوت الأوان.

وذهب الاثنان إلى المكان الذي توجد فيه تلك الفتاة فاجتمع بها لولو وأعطاها نصف المبلغ، فأخذت منه الرسالة وذهبت لفورها إلى الشارع فارتكبت جريمة سرقة في أحد المخازن فقبض البوليس عليها، وعاد الفيكونت إلى منزله وهو واثق أن السم في طريق السجن.

ودخل إلى غرفته فغير ملابسه وتأهب للذهاب إلى النادي وهو يتساءل في نفسه: سوف أعلم إذا كان الماجور أفاتار وروكامبول واحدًا فإن الماجور يذهب كل ليلة إلى النادي، فإذا كان الآن موجودًا فهو روسي دون شك لا علاقة له بروكامبول؛ لأن هذا اللص منهمك الآن بفراره من الجند.

ثم خرج إلى النادي فلما بلغ إليه لقي اثنين من أصحابه وهما خارجان منه فسلم عليهما وأراد الدخول، فاستوقفه أحدهما وسأله ما وراءك من أخبار أجينور ابن أخيك؟

– ليس لدي شيء من أخباره فإنه لم يذهب إلى عمته فيما أعلم.

– إذن إنك لا تعلم شيئًا من أخباره فإنه لم يذهب إلى عمته وقد توقف في مدينة لافال وهي في منتصف الطريق وهو فيها إلى الآن.

– وماذا يعمل فيها؟

– إنه أوصاني في كتابه أن لا أخبر أباه وعمه بشيء من أحواله، ولكني أخبرك بكل شيء فإن أجينور برح باريس مكرهًا؛ لأنه اضطر إلى مغادرة عشيقته للإقامة مع عمته وهو مصيب في استيائه كل الإصابة، ولكنه اضطر إلى السفر لأمور عائلية لم يجد بدًّا من قضائها.

وقد سافر وهو مضطرب الحواس فساءت أخلاقه حتى إذا وصل إلى شارته لقي ضابطًا مسافرًا إلى لافال فجلس بجانبه وكان أجينور يدخن والضابط يغني فاستاء الضابط من سيكارة أجينور، واستاء أجينور من غناء الضابط وبدأ بإظهار استيائه بالنظرات، ثم بالكلام المعمى إلى أن ضاق صدر أجينور فقال له: إن صوتك مزعج يثقل علي، فأجابه الضابط بكلام أشد وانتهى الأمر إلى المبارزة فأعطى كلاهما رقعة زيارته للآخر واتفقا على المبارزة في لافال.

ولما وصلا إليها تبارزا فأصيب أجينور بما اضطره إلى ملازمة الفراش ثمانية أيام، ولكنه بالرغم عما أصابه لا يزال يفتكر بعشيقته أنطوانيت وقد كتب إليها ثلاث رسائل فلم تجبه عليها حتى تولاه اليأس فعهد إلي بالذهاب إلى منزلها والسؤال عنها.

فاضطرب الفيكونت اضطرابًا شديدًا وقال له: ألعلك رأيت الفتاة؟

– كلا، فإن كتاب أجينور لم يصلني إلا في هذا المساء، ولكني سأراها في صباح الغد، ألعل في ذلك ما يسوءك؟

– كلا فإن ابن أخي قد تجاوز سن الرشد بمراحل، فهو حر أن يفعل ما يشاء.

– أتعلم أنه يريد أن يتزوجها؟

– نعم وهو زواج لا يقدم عليه غير المجانين، ولكنه أدرى بشئون نفسه، ثم ودعهما وصعد إلى النادي وذهب الاثنان في شأنيهما.

وكان كارل يقول في نفسه: غدًا سيعلم هذا الرجل أن أنطوانيت قد اختطفت، فيرجع أجينور مسرعًا ولكن رجوعه لا يفيدها لأنها ستلقى حتفها في الغد.

وظل صاعدًا حتى بلغ النادي ودخل إلى قاعة البلياردو فانذهل انذهالًا غريبًا لأنه رأى الماجور أفاتار يلعب مع أحد أعضاء النادي.

أما الماجور أفاتار؛ أي روكامبول، فقد تظاهر أنه منهمك في اللعب وأنه لم ير الفيكونت.

غير أن كارل نظر إلى الساعة فوجد أنها بلغت الأولى بعد منتصف الليل، فدنا من المركيز الذي كان يلاعب روكامبول وقال له: أين أنتما من اللعب؟

– في الدور الثالث فقد كسب مرة وكسبت مرة فمن كسب في هذه المرة كان له الفوز.

فحسب الفيكونت أن كل دور يقتضي له ساعة، فإذا كانا يلعبان الدور الثالث وهما الآن في آخره فلا بد أن يكون الماجور أفاتار هنا منذ ثلاث ساعات وفي ذلك ما يثبت أتم الثبوت أنه غير روكامبول.

وهو تعليل وجيه غير أن رفيق أفاتار لم يقل للفيكونت أن الدورين الأولين قد لعباهما أمس، فيكون الماجور قد حضر إلى النادي منذ أقل من ساعة.

أما روكامبول فإنه بقي في النادي إلى الفجر وعند خروجه لقي أوغست ينتظره على الباب فأعطاه رسالة قائلًا له: يجب أن ترسل هذه الرسالة إلى مرتون في السجن وتعطيها لفاندا، فأخذها أوغست وسار إلى السجن.

وكانت هذه الرسالة إلى فاندا الروسية وقد كتب لها فيها: لقد تم كل شيء فافعلي ما أوصيتك به.

وبعد ذلك سار روكامبول إلى منزله وهو يمشي الهوينا مشي المطرق المفكر، وفيما هو على ذلك إذ رأى تيميلون يركض إليه منذعرًا وعلائم الرعب بادية على وجهه، فلما

وصل إليه دق يدًا بيد وقال بلهجة القانطين: ويلاه إن السم قد وصل إلى السجن. فاهتزت أعصاب روكامبول وأدرك حرج الموقف.

٢٨

ولنعد الآن إلى سجن سانت لازار فإنه في الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم الذي أرسل فيه روكامبول الرسالة إلى فاندا دخلت مجرمة جديدة إلى سجن سانت لازار، وهي التي أرسلها لولو إليه تحمل السم إلى شيفيوت كي تسمم به أنطوانيت.

وكانت شيفيوت تكره أنطوانيت كرهًا شديدًا لا سيما وأنها صنيعة تيميلون وهي لم تدخل السجن إلا للحط من قدرها والتنكيل بها، وقد زاد في كرهها لها ما رأته من فضائلها وحسن أدبها وإجماع المسجونات على احترامها وعناية الراهبات بها، فأصبحت عداوتها لها شخصية حتى باتت تتمنى لها الموت بعد انخذالها في معركتها مع فاندا.

ولما جاءتها تلك المرأة برسالة تيميلون وبالسم المعد لأنطوانيت فرحت فرحًا وحشيًّا لا يوصف ووطدت النفس على قتلها في ذلك اليوم.

وكانت أنطوانيت منفصلة عنها لأنها نقلت بعد مرضها إلى مستشفى فأقامت فيه مع فاندا التي كانت مصابة بمثل مرضها وامرأة ريكولو التي بقيت في السجن بسبب ولادتها وقد لبثت في المستشفى على انتهاء مدة سجنها إلى أن تبرأ من النفاس، فلم يكن الحراس يمنعون زوجها ريكولو من عيادتها والاعتناء بأمرها.

أما شيفيوت فإنها لما وصلت إليها رسالة تيميلون أخذت ذلك الرشاش الذي يتضمن السم الزعاف وجعلت تفكر في طريقة تجمعها بأنطوانيت في المستشفى، فأرشدها الحقد إلى حالة فأخذت إبرة طويلة ووخزت بها أعصاب أنفها من الداخل وخزات كثيرة غير مكترثة بما وجدته من الألم، فتدفق الدم من أنفها بغزارة وانطرحت على الأرض وصبغت ثيابها بذلك الدم وجعلت تصيح وتعول وتتظاهر بالإغماء حتى اجتمع حواليها الراهبات والمسجونات وحملنها إلى صيدلية المستشفى لمداواتها والنظر في أمرها.

ولم يكن حينئذ في الصيدلية غير أحد الموظفين فيها، فأسرعت الراهبة إلى مناداة الحكيم وعند ذلك دخلت مرتون إلى تلك الصيدلية تحمل إناء وقالت للصيدلي: املأ لي هذا الإناء شرابًا لأنطوانيت.

وكانت مرتون قد التمست من الرئيسة أن تتولى خدمة أنطوانيت، وساعدتها أنطوانيت على هذا الالتماس فأجابتها الرئيسة إشفاقًا على أنطوانيت.

أما مرتون فقد كانت طاهرة القلب سليمة النية، فلما دخلت إلى الصيدلية طلبت إلى الصيدلي الشراب لأنطوانيت على مسمع من شيفيوت، ثم نظرت فرأت عدوتها اللدودة مضرجة بدمائها، فأشفقت عليها وقالت لها: ماذا تريدين أن أصنع لك؟

فجعلت تستغيث بها وبالصيدلي وتطلب إليهما الإسراع بإحضار الطبيب، فحن قلبيهما وأسرع الاثنان إلى الباب يستحثان الطبيب على الإسراع.

وكانت مرتون قد تركت إناء الشراب على طاولة الصيدلي، فلما رأت شيفيوت أنهما خرجا أسرعت وأخرجت رشاش السم من جيبها وألقته بسرعة البرق في الإناء ثم عادت إلى العويل والصياح.

وبعد دقيقة حضر الدكتور وعالج شيفيوت وقرر أن أمرها بسيط وأمَر أن تبقى في الصيدلية إلى أن ينقطع الدم، وذهبت مرتون بإناء الشراب إلى أنطوانيت وهي لا تدري أن فيه السم الزعاف.

وفي الوقت نفسه الذي دخلت فيه المرأة إلى السجن بالسم كان تيميلون يطوف باحثًا عن روكامبول، وقد كاد يفقد صوابه فإن هذا الرجل على فظاعة قلبه كان يحب ابنته حبًّا شديدًا وكان يعلم أن روكامبول لا يحنث بوعده وأنه لا بد له من فقدها إذا ماتت أنطوانيت.

فلما خرجوا بابنته من منزله وغادره روكامبول لم يكن همه إلا بالبحث عن لولو لأخذ السم منه قبل أن يرسله إلى السجن.

غير أنه كان مرتاحًا بعض الارتياح لأمرين: أحدهما أن الفيكونت كارل دي مورليكس لا يجد لولو إلا في الساعة الثامنة من الصباح، والثاني أنه مهما أسرع لولو فلا يستطيع إيصال السم إلى السجن قبل الظهر؛ أي إن الوقت يظل فسيحًا لديه لملاقاة هذه الجريمة وإنقاذ ابنته وأنطوانيت من الموت.

ومع ذلك فإنه ذهب توًّا حين تركه روكامبول إلى منزل لولو فقيل له إنه في الخمارة، فذهب إلى الخمارة فأخبروه أنه خرج منها مع رجل علم من أوصافه أنه الفيكونت، فأوشك أن يجن من يأسه وخرج هائمًا يبحث عن لولو في كل مكان فلا يجده ثم يعود إلى منزله فيخبروه أنه لم يعد.

وبقي هذا دأبه إلى أن أشرق الفجر، وفيما هو عائد إلى بيت لولو رآه قرب الباب وهو يترنح سكرًا، فقبض عليه وقال له: ماذا فعلت؟ وأين الرسالة؟

فأخبره باتفاقه مع تلك الفتاة وكيف أنها ارتكبت جريمة السرقة خاصة للولوج إلى السجن بالرسالة.

وقد أخبره هذا الخبر وهو مشير عليه، ويفتخر بإسراعه في تنفيذ أوامره.

أما تيميلون فلم يجبه بحرف بل تركه منذعرًا وجعل يركض في الشوارع هائمًا وهو يصيح: ويح لي أنا الشقي! سأقتل ابنتي بيدي!

وقد لقي روكامبول حين خروجه من النادي كما تقدم وهو على هذه الحالة وكان متنكرًا بزي الماجور أفاتار.

غير أن تيميلون لم يكترث لتنكره وجاءه وهو ينتف شعوره قائلًا: ماذا أعمل إن السم بات في السجن؟

فاضطرب روكامبول هنيهة ثم عادت إليه سكينته فقال: إنك أبله لا خير فيك فلا تعمل شيئًا.

– ولكن ابنتي تموت إذا ماتت أنطوانيت والسم في السجن.

– إذا كنت تحرص على حياة ابنتك، فاذهب إلى منزلك ولا تتداخل في شيء.

فأخذ تيميلون يده فقبلها وأجاب: لقد أخطأت بعدوانك لأني لست من أكفائك.

– وأنا رضيت باعتذارك فاذهب بأمان واحذر من أن تلحقني.

وتركه روكامبول وركب مركبة وانطلق بها إلى حيث يختبئ ريكولو مع العصابة، وكتب له رسالة إلى فاندا وقال له: اذهب حالًا إلى السجن واطلب مقابلة امرأتك، فإذا دخلت إليها أعط الرسالة إلى المرأة الروسية المقيمة مع امرأتك في المستشفى، واحذر أن يراك أحد، واعلم أنه إذا لم تصل الرسالة إلى فاندا قبل الظهر ماتت أنطوانيت في المساء.

فأخذ ريكولو الرسالة وأخفاها وركب مركبة سارت تنهب به الأرض إلى السجن.

أما روكامبول فإنه أقام مع بونفير ينتظر عودة ريكولو على أحر من الجمر، وقد امتقع لون وجهه لشدة اضطرابه. فسأله بونفير: ما بالك؟

– أتذكر تلك الدقيقة الهائلة التي كان رأسك فيها تحت آلة الإعدام؟

– إني أذكرها، ولم أجد في حياتي أشد منها.

– ولكنها دقيقة واحدة يسرع انقضاؤها، أما أنا فلا بد لي من البقاء إلى المساء في أشد من هذا الموقف.

ثم حمل رأسه بين يديه واستند إلى طاولة أمامه وقال: رباه! إن ما ألقاه من الانفعال في فعل الخير لم أكن أجد بعضه في صنع الشر، فشتان بين الحالين!

ثم غاص في هواجسه، فاحترمت العصابة سكوته ولم يكلمه أحد.

٢٩

أما ريكولو فإنه انطلق إلى السجن لا يلوي على شيء، وكان كلما افتكر بما أخبره به روكامبول عن الخطر المحدق بأنطوانيت يودُّ لو كان له أجنحة ليطير بها إلى فاندا.

ولما وصل إلى مستشفى السجن أذن له بالدخول، لا سيما وأن امرأته باتت قادرة على الخروج، ولا بد له من أخذها لأن مدة عقابها قد انتهت ولم يؤخرها في السجن غير الولادة.

ولما دخل ريكولو لم يكن في الغرفة غير امرأته وولدها وأنطوانيت وفاندا والراهبة، فجعل يقبل ولده ويؤانس امرأته.

ثم دنا من سرير أنطوانيت وجعل يسألها عن صحتها، ودنا بعد ذلك من سرير فاندا وأشار إليها إشارة خفية ودس رسالة روكامبول تحت مخدتها وعاد إلى امرأته وولده.

وعند ذلك دخل الطبيب فأخبره أن امرأته باتت في حالة من الصحة تستطيع معها الذهاب إلى منزلها.

فشكره ريكولو وأخذ امرأته وولده وذهب بعد أن ودع أنطوانيت، فنظرت إليه فاندا نظرة سرية علم منها أنها قرأت الرسالة، وانصرف مطمئنًّا آمنًا.

وبعد ذهابهم خلا المكان لأنطوانيت وفاندا ومرتون التي كانت تخدمهما، فقالت أنطوانيت لفاندا: ماذا ترين ألعلي أبرأ قريبًا من هذا الداء؟

– اطمئني أيتها العزيزة لأن ساعة الخلاص قد دنت.

– أتبقى هذه اللطخ السوداء على وجهي؟

– إننا ابتلعنا حبوبًا واحدة وأصبنا بداء واحد واسود وجهي كما اسود وجهك فانظري إلى وجهي أترين فيه شيئًا من أثر السواد؟

– كلا ولا بد أن تكون هذه الآثار قد زالت من وجهي، ولكني أشعر بظمأ شديد.

فلما سمعت مرتون ذلك أسرعت إلى إناء وقالت لها: إني ذاهبة إلى الصيدلية لأحضر لك شرابًا. ثم أخذت الإناء وخرجت.

وبعد هنيهة سمعتا صراخًا من الصيدلية، ثم سمعتا صوت مرتون تنادي الطبيب، وبعد ربع ساعة عادت مرتون تحمل الإناء من ذلك الشراب، فسألتها فاندا قبل أن تعطي الشراب لأنطوانيت عن سبب الصراخ في الصيدلية، فقالت لها: إني دخلت إلى الصيدلية لإملاء الإناء فرأيت شيفيوت تصيح وتستغيث، فوضعت الإناء على طاولة الصيدلي وخرجت معه لمناداة الطبيب ثم عُدت وأخذت الإناء ملآن وعدت إليكم.

ثم قدمت الإناء لأنطوانيت ولكن قبل أن تمد يدها إليه انتزعته فاندا ورمت به إلى الأرض، فعجبت أنطوانيت ومرتون من ذلك وقالتا لها: ماذا تفعلين؟

– إني أنقذتك من موت هائل بفضل رئيسنا الذي يحميك.

أما الكتاب الذي أرسله روكامبول إلى فاندا فهو كما يأتي:

إن تيميلون اليد العاملة في اضطهاد أنطوانيت أرسل سمًّا قاتلًا إلى امرأة معكم في السجن تدعى شيفيوت كي تسمم به أنطوانيت، فاحرصي عليها ولا تدعيها تأكل شيئًا ولا تشرب شيئًا، واعملي بما قلته لك قبل دخولك إلى السجن فقد آن الأوان وتمت المعدات.

وكتمت فاندا الرسالة ولكنها لم تتمالك عن الكلام أمام أنطوانيت ومرتون أن شيفيوت وضعت السم في الإناء، فهاجت مرتون هياجًا شديدًا وقالت: لا بد لي من قتل هذه الماكرة.

وهمت بالخروج إليها فأوقفتها فاندا وقالت لها: ارجعي عن قصدك لأن الله لا يرضى الانتقام.

– ولكني أنا أرضاه ولا بد لي من قتلها.

فدنت منها أنطوانيت وقالت لها: إنك حديثة العهد بعيشة الصلاح، فلا تجعلي القتل بدء أعمالك، واغفري لهذه المرأة كما غفرت لها أنا، يغفر لنا الله.

فاضطربت مرتون إذ لا يسعها مخالفة أنطوانيت وقالت لها: إنك تشبهين الملائكة يا سيدتي بصفاء نيتك وطهارة قلبك، ولكني لا أريد قتل هذه الماكرة لمجرد الانتقام بل لحذري من أن تعود إلى تسميمك لأنها لا تقف بجرائمها عند حد ولا بد لها غدًا من العود إلى ما فعلته اليوم.

فقالت لها فاندا: لا تخافي، في الغد يفوت الأوان.

فنظرت إليها مرتون كأنما تسألها بالنظر فقالت لها فاندا: ألم أقل لك حين قدومي إني دخلت السجن بغية إخراج أنطوانيت منه؟

– نعم قلت ذلك وإني متعجبة منه!

– إذن فاعلمي أن أنطوانيت لا تخشى شيئًا في الغد، ولا تبالي بمكائد شيفيوت أيضًا.

– ألعلها تخرج غدًا من السجن؟

– ربما.

فلم تقتنع مرتون بهذه الأقوال وقالت: ربما صدق ظنك ولكن جميع ذلك لا يمنعني عن قتل تلك الخائنة.

– إذا فعلت شيئًا من ذلك نفقد كل أمل بإنقاذ أنطوانيت.

– كيف ذلك؟

– ذلك أنك إذا تخاصمت مع شيفيوت ظهر أمر هذا التسمم فأبعدونا عن أنطوانيت ووضعوها في مكان منعزل للمبالغة بالحرص عليها، وإذا أبعدونا عنها فكيف نستطيع إنقاذها؟

فاقتنعت مرتون بهذا البرهان السديد وقالت: ولكن تلك الأثيمة أتظل آمنة لا تنالها يد الانتقام؟

فاتقدت عينا فاندا بنار حقد كمين وقالت: كلا بل إنها ستعاقب عقابًا هائلًا، ولا يقتصر العقاب عليها بل يشتمل الذين دفعوها إلى الجريمة.

– أحق ما تقولين؟

– أقسم لك بالذي أرسلني إلى هنا أن العقاب سيكون هائلًا شديدًا.

– إذن لا تدعيني أخرج من هذه الغرفة لأني أخشى أن ألتقي بشيفيوت ولا أملك نفسي.

– كلا بل يجب أن تريها وتحدثيها.

– لماذا؟

– ذلك لأن هذه المجرمة إذا بقيت مرتابة بتنفيذ جريمتها عادت إليها بما لديها من الدهاء والحيلة، ولكنها إذا علمت أن أنطوانيت شربت ما في الإناء وثقت من تسميمها وامتنعت عن كيدها.

– وكيف أستطيع أن أخبرها؟

– إنها طريقة بسيطة، وهي أن تعودي بالإناء إلى الصيدلية وتطلبي إلى الصيدلي أن يملأه أيضًا، وتقولي له على مسمع من شيفيوت، إذ لا بد أن تكون باقية فيها، إن أنطوانيت وجدت فائدة بهذا الشراب، فتعلم شيفيوت أنها شربته.

فامتثلت مرتون مكرهة وذهبت بالإناء.

ولما خلت فاندا بأنطوانيت قالت لها: إنك تستطيعين الآن أن تشربي آمنة أولئك الأعداء الذين لا يردعهم ضمير من قتلك.

– ولكني لم أسئ إلى أحد منهم بشيء.

– إنك أسأت إليهم بهذه الثروة التي اختلسوها منك، وإنهم لا يريدون ردها إليك.

– ليحفظوها قدر ما يشاءون ويعيدوا إلي حياتي الماضية لأني كنت أعد نفسي على فقري من أسعد النساء.

– كلا لأن الرئيس يريد أن يرد إليك النقود.

وكانت فاندا قد قصت على أنطوانيت لمحة من سيرة هذا الرئيس المدهشة، فكانت تعجب لهذا الرجل الذي يخافه البعض، ويحبه البعض حب عبادة. وقد اختلفت أسماؤه فدعي جوزيف بيبار والمركيز دي شمري ونمرة ١١٧ والماجور أفاتار، وأنقذ ميلون من السجن. فكانت أنطوانيت تعجب به أشد العجب، لا سيما وأن فاندا قد مثلته لها خير تمثيل، حتى باتت تثق به كثقة فاندا.

وبعد أن ساد السكوت هنيهة بينهما قالت لها أنطوانيت: أصحيح ما قلتيه لمرتون عن خروجي غدًا من السجن؟

– نعم، فموعد إنقاذك قد دنا.

– ولكن كيف نخترق هذه الأبواب المقفلة وتلك الأسوار العالية؟

– بإرادة الرئيس وبثقتك بي وبروكامبول وبميلون فهل لك بنا ثقة؟

– أعندك شك بذلك؟

– اعلمي أنه لا بد لخروجك أن تطيعيني طاعة لا حد لها وتقبلي بما أطلبه إليك وباسمي وباسم روكامبول وباسم ميلون.

– إني مستعدة للطاعة.

– إذا أصغي إلي.

ثم ضمتها إلى صدرها وقبلت جبينها وبسطت لها خطة إنقاذها من السجن كما سيجيء.

أما مرتون فإنها ذهبت إلى الصيدلية تحمل الإناء فارغًا، فبرقت عين شيفيوت لما رأتها، ولما سمعتها تخبر الصيدلي أن أنطوانيت استلذت الشراب ظهرت على وجهها ملامح الفرح الوحشي.

فلم تكترث لها مرتون عملًا بوصية فاندا وحملت إناء الشراب وعادت به إلى أنطوانيت فأخذته منها فاندا، وبعد هنيهة قدمته لأنطوانيت فشربت ما فيه جرعة واحدة.

ولم تمض فترة وجيزة حتى صاحت أنطوانيت صيحة مزعجة منكرة موضعة يدها على قلبها، ثم انطرحت على سريرها لا تعي.

فأسرعت مرتون إليها، ولما رأت أنها لا حراك فيها جعلت تلطم خديها وتصيح قائلة: إنها مسمومة دون شك لأني لم أغسل الإناء.

ثم أتى الطبيب وبعد أن جس نبضها وفحص قلبها، قرر أنها ميتة وأن وفاتها كانت بذلك الداء الهندي.

٣٠

ولنعد الآن إلى تيميلون، فقد تركناه ذاهبًا إلى منزله بأمر روكامبول منفطر القلب وقد برح به اليأس، ولم يطمئن فؤاده لكلام روكامبول، فذهب إلى منزله وأقام فيه إلى الظهر على أحر من الجمر، ثم خرج هائمًا على وجهه لا يعلم أين يستقر حتى بلغ إلى كنيسة. فذكر عندما رآها مصيبته بابنته، وأذكرته تلك المصيبة بخالقه، فجثا أمام بابها يصلي، وهي أول مرة في حياته الأثيمة عرف قلبه الخشوع وذكرت شفتاه اسم الله.

وبعد أن فرغ من صلاته جعل يسير حزينًا مطرقًا، فيطوف شوارع باريس طواف الهائم، حتى أقبل الليل وعضه الجوع، فدخل إلى فندق طعام، وفيما هو داخل سمع باعة الجرائد ينادون — جريدة المساء، حادثة سجن سانت لازار — فهلع فؤاده واشترى نسخة من تلك الجريدة، وقرأ في صفحتها الثانية ما يأتي:

> **حادثة سجن سانت لازار**
>
> حدث في سجن سانت لازار حادثة غريبة، اضطربت لها المسجونات وكادت تفضي إلى الثورة. وهي أن إحدى الفتيات التي قبض عليها البوليس مع عصابة لصوص لاتهامها بسرقة، ماتت في السجن اليوم ميتة غريبة.
>
> وقد ادعت هذه الفتاة حين قُبض عليها أنها من بنات الأشراف وأنها وُجدت بين اللصوص بمكيدة، ثم أثبت التحقيق أنها على غير ما تقول إذ عرف القضاة أمها.
>
> أما هذه الفتاة فقد دخلت إلى السجن منذ خمسة أيام، وفي اليوم التالي لدخولها أصيبت بمرض نادر في أوروبا ولكنه معروف في الهند واليابان، فاسود جلدها وظهرت بثور فوق لسانها، وهو مرض قتال ولكن الأطباء يثبتون أنه لا يعدي.

غير أنه من غرائب الاتفاق أن امرأة أخرى أصيبت في ذلك السجن بالداء نفسه وفي الساعة نفسها التي أصيبت بها الفتاة، فنقلت الاثنتان إلى مستشفى السجن في غرفة واحدة.

وقد كانت المسجونات يحترمن تلك الفتاة احترامًا شديدًا، لجمالها ومكارم أخلاقها وظواهر آدابها ولتشيع فتاة لها تدعى مرتون كانت تغالي أمام المسجونات في مدح صفاتها، ولكنها على إجماع المسجونات على حبها كان لها عدوة لدودة تدعى شيفيوت.

وقد أدخلوا إلى المستشفى مع تلك الفتاة امرأة ولدت فيه، فأصيب طفلها بمرض أشرف فيه على الموت، فأشفقت الفتاة عليه وركعت أمام مهده تصلي، فما أوشكت أن تفرغ من صلاتها حتى نفض الطفل عنه غبار الموت وشفي بأعجوبة من السماء. وانتشرت هذه الحادثة في السجن وأطلق المسجونات على الفتاة لقب قديسة.

وقد كان موتها فجائيًّا إثرَ شراب شربته، فاختلفت الأقوال في سبب موتها، ولكن صديقتها مرتون اتهمت شيفيوت بأنها وضعت لها السم في الشراب لاشتهارها بعدائها، فثارت الفتيات على تلك المجرمة وضربنها ضربًا مبرحًا، فنقلت إلى المستشفى وهي في حالة خطرة ولكنهم يرجون إنقاذها.

وقد علمنا عند طبع الجريدة أن الفتيات لم يرجعن عن ثورتهن إلا حين أذنت لهن إدارة السجن بتقبيل تلك الفتاة المائتة التي يلقبنها بالقديسة وهي ستدفن غدًا، وقد أذن بدفنها دون تشريح بناء على التماس المسجونات وحذرًا من عودتهن إلى الثورة.

وقد اكتتبن جميعهن وجمعن مبلغًا من المال كي يشترى لها به أرض خاصة في المدفن كي لا تدفن في المدافن العمومية. وسنذكر غدًا ما نعلمه من التفاصيل.

ولما انتهى تيميلون من قراءة الجريمة سقطت الجريدة من يده ووهت رجلاه وقال: ويح لي! لقد قتلت ابنتي بيدي وكيف السبيل إلى خلاصها ولكن لا بد لي منه.

وقبل أن يتم كلامه أحس بيد وضعت على كتفه فالتفت ثم رجع منذعرًا؛ لأن هذه اليد كانت يد روكامبول.

أما روكامبول فإنه أخذ يده وسار به إلى منعطف في الشارع، فقال له تيميلون بلهجة القانط المتوسل: رحماك أنقذ ابنتي فلا ذنب لها.

– نعم، سأنقذها إذا كنت تطيعني.

– أواه إني أكون أطوع من بنانك، فمُرْ أطعك في كل ما تريد.

– ألم تجعل لأنطوانيت والدة تدعى مارلوت إثباتًا لجريمتها؟

فأطرق برأسه مستحيًا وقال: نعم.

– إذن، يجب على هذه الأم أن تطلب جثة ابنتها وأصغ إلي الآن لأني أمهلك إلى ظهر غد، فإذا لم تذهب غدًا تلك المرأة التي تدعى مارلوت إلى سجن سانت لازار وتطلب جثة أنطوانيت مدعية أنها ابنتها وتدفنها في مقبرة مونتمارتر بأرض خاصة تختارها أنت حسب إرشادي فإنك لا ترى ابنتك.

فبرقت عينا تيميلون بأشعة الأمل، وقال: سأعمل جميع ذلك في الوقت المعين.

فأعطاه روكامبول ألف فرنك لشراء الأرض الخاصة وقال له: يجب عليك أيضًا أن تدعي أنك عم أنطوانيت فتسير مع أمها في مشهدها، وإذا بلغتم بها المقبرة تضعها في قبر خاص يرشدك إليه ريكولو. ثم تركه وانصرف.

٣١

كان كل ما نشرته تلك الجريدة التي قرأتها تيميلون عن ثورة الفتيات صحيحًا، فإن ثائرهن لم يهدأ حتى وعدهن رئيس السجن بالإذن لهن بتوديعها وعدم تشريح جثتها.

وفي صباح اليوم التالي كانت أنطوانيت مسجاة على سريرها، فجعل المسجونات يدخلن إليها واحدة إثر واحدة، فيقبلن يدها تبركًا لاعتقادهن أنها قديسة حتى فرغن من توديعها، ولم يفضل في الغرفة غير فاندا ومرتون، فكانت مرتون تبكي البكاء الشديد وكانت علائم الحزن والسكينة بادية في وجه فاندا.

ولما خلا بهما المكان قالت لها فاندا: لماذا تبكين هذا البكاء؟

فنظرت إليها مرتون نظرة إنكار وقالت: أترينها مائتة لا حراك فيها ثم تسأليني عن سبب بكائي؟

– ألم تقولي مع القائلات في هذا السجن إن الله صنع أعجوبة على يدها حين إنقاذ الطفل؟

– نعم ولا أزال أعتقد هذا الاعتقاد.

– إذن لماذا تيأسين من رحمة الله ألعله لا يستطيع أعجوبة ثانية؟

فارتعشت مرتون وقالت: ماذا تعنين بهذا القول؟

– أعني به أن الله الذي أنقذ الطفل من الموت لا يصعب عليه أن يرد الحياة إلى أنطوانيت.

– رباه! ماذا أسمع؟! ألعل ذلك من الممكنات؟

– إن الله على كل شيء قدير ولا تقنطي من رحمته.

ورفعت مرتون عينيها إلى السماء وقالت: رباه من يستطيع إنكار سلطانك إذا أنقذتها من الموت.

ثم انقطعت عن البكاء وجعلت تنظر إلى أنطوانيت وتغوص في بحار التأملات.

وبعد حين دخلت الراهبة وقالت لفاندا ومرتون: إن والدة أنطوانيت أتت تطلب جثتها.

فأجفلت مرتون بلهجة الاستنكار: أية أم هذه؟

وحاولت أن تكشف النقاب عن حقيقة تلك الأم الكاذبة لو لم تبادرها فاندا بنظرة سرية ألجمت لسانها عن الكلام، فوقفت حائرة مدهوشة لا تعلم ماذا تقول.

وبعد حين أتت تلك الأم واعترفت أن أنطوانيت ابنتها ووقعت على صك الوفاة.

ثم جاءوا بالتابوت، ولما رأته مرتون اضطربت اضطرابًا شديدًا وقالت لفاندا: أرأيت أنهم سيحملونها أين عجيبة الله؟

– قلت لك لا تيأسي واصبري لأن الله مع الصابرين.

ثم حملوا أنطوانيت إلى الكنيسة، وصُلِّيَ عليها بحضور جميع المسجونات وخرجوا بها.

وكانت مرتون راكعة بجانب فاندا، ولما رأتهم ساروا بها علا نحيبها وقالت: أي رجاء لي بعد وقد حملوها؟

– قلت لك: لا تقنطي من رحمة الله، والآن انظري إلى الذين يحملون النعش ألا ترين بينهم ريكولو؟

– نعم.

– أترينه يبكي أو يظهر عليه شيء من ملامح الكآبة؟

– كلا.

– ذلك لأنه يثق برحمة الله أكثر من ثقتك، فاقتدي به.

وبينما كانت مرتون تنظر إلى النعش ومن حوله صاحت صيحة رعب قائلة: هو ذا تيميلون!

فضغطت فاندا على يدها ضغطًا شديدًا وقالت لها: اسكتي!

فسكتت مرتون وهي لا تعلم شيئًا من هذه الألغاز وتوارى النعش عن الأنظار.

وفي الساعة السابعة من المساء كانت فاندا ومرتون مختبئتين في المستشفى، وعادت مرتون إلى البكاء واليأس فقالت لها فاندا: ما بالك لا تقتدين بي وتثقين وثوقي، ألا ترينني ساكنة آمنة، وأنا إنما أتيت إلى هذا السجن لإنقاذها منه؟

– ولكني أراك لا تزالين سجينة فيه.

– سأبقى فيه ساعتين أيضًا.

– ألعلهم قادمون لإنقاذك؟

– كلا بل سأنقذ نفسي.

ونظرت إليها بانذهال عجيب وقالت: ستنقذين نفسك وكيف ذلك؟

– سوف تعلمين كيف أنقذ نفسي وإذا أنقذتك أيضًا معي أتعدينني بالرجوع عن سيرتك السابقة والسير في مناهج الصلاح.

– إني كنت آليت على نفسي أن أعيش في خدمة أنطوانيت ما حييت، وكنت أرجو أن يغفر لي الله ذنوبي السابقة.

– وإذا ردت إليها الحياة؟

– بالله لا تعيدي علي هذه الأقوال فقد كاد يذهب صوابي.

– ليكن ما تريدين والآن هل تريدين أن تخرجي معي من السجن؟

– كيف لا أريد ولكني لا أعلم كيف تريدين الخروج من هذا السجن؟

– ستعلمين كيف أخرج، قولي لي: ألا تعرفين الطريق المؤدية إلى باب الخفر العام في هذا السجن؟

– أعرفه ولكن الخروج من هذا الباب مستحيل.

– إن كلمة المستحيل لا توجد في قاموس روكامبول.

وعند ذلك سمعتا صوت وقع أقدام فهمست فاندا في أذن مرتون وقالت: هو ذا الراهبة قادمة إلي بالدواء، فمهما سمعت ومهما رأيت احذري أن تقولي كلمة.

وبعد هنيهة دخلت تلك الراهبة ووجدت فاندا مضطجعة في سريرها فسألتها عن صحتها فأنَّتْ وتوجعت وقالت لها بصوت ضعيف: إن لساني يلتهب التهابًا شديدًا.

فقالت لها الراهبة: أريني لسانك.

ثم وضعت المصباح الذي كان بيدها على منضدة صغيرة أمام السرير ودنت منها، ولكنها ما لبثت أن اقتربت منها حتى نفخت فاندا نفخة شديدة أطفأت المصباح وهجمت على الراهبة فضغطت على عنقها بيد من حديد وألقتها فوق السرير وهي تقول: إذا فهت بكلمة خنقتك في الحال.

وكانت هذه الراهبة تشبه فاندا بقوامها ونحولها، وهي على طعنها في السن لم يكن يوجد في وجهها أثر للتجعيد والغضون لم تستطع دفاعًا لضعفها، فما زالت بها فاندا حتى تغلبت عليها وربطت فمها بمنديل كي لا تستطيع الصراخ، وأوثقت رجليها وربطتها إلى السرير ثم جردتها من ثوبها ولبسته فوق ثيابها ووضعت على رأسها القبعة التي كانت تستر معظم وجهها وأخذت المفاتيح التي كانت في جيبها.

وبعد أن فرغت من ذلك قالت لمرتون: سألبسك قريبًا مثل هذا الثوب فاكمني وراء الباب.

وفيما هما كامنتان إذ سمعتا وقع أقدام معاونة تلك الراهبة فنادتها فاندا باسمها مقلدة صوت تلك الراهبة وقالت لها: ائتني بمصباح فقد أطفأ الهواء مصباحي.

ورجعت المعاونة على أعقابها ثم عادت تحمل مصباحًا، ولكنها لم تلبث أن دخلت إلى الغرفة حتى انقضَّت عليها فاندا ومرتون وفعلتا بها ما فعلتاه بالراهبة، فجردتاها من ملابسها وقيدتاها بجانب رفيقتها ولبست مرتون ثيابها.

وعند ذلك قالت لها فاندا: هلمي بنا الآن وسيري أمامي في الطريق المؤدية إلى باب الخفر العام.

فسارت أمامها وتبعتها فاندا فجعلتا تخرجان من دهليز إلى رواق وكل من رآهما من الحراس يحسب أنهما من الراهبات، حتى انتهتا إلى فسحة متسعة تكتنفها أسوار السجن المشرفة على الشارع، فوقفت مرتون وقالت لها: انظري إلى هذا النور الضعيف المنبعث من آخر الفسحة المتسعة، فإن هناك الباب العمومي وهناك فرقة من الحراس يتناوب رجالها السهر ولا يمكن لأحد أن يخرج من بينهم.

– لا بأس فإننا لا ندنو منهم وهم لا يروننا لبعد المسافة واشتداد الظلام.

ثم عادت إلى الباب الذي خرجت منه إلى تلك الفسحة فمشت وهي تعد خطواتها ومرتون تتبعها حتى عدَّت عشرين خطوة ودنت من ذلك الجدار المرتفع وجعلت تبحث بيديها على سطحه حتى عثرت يدها على حبل رفيع متين، فمشت خطوة ثانية فلقيت حبلًا آخر.

وكان في أسفل الحبلين عقدتان ضخمتان، فحلتهما فإذا بهما قد تحولتا إلى زنبيلين من الحرير الدقيق المتين، فأمرت مرتون أن تجلس في إحداهما وجلست هي في الآخر ثم شدت الحبل ثلاث مرات متوالية وصبرت هنيهة، وشدته أيضًا أربع مرات وصعد الزنبيلان في الحال يحملان هاتين الأسيرتين إلى أرض الحرية.

٣٢

ولنعد الآن إلى أجينور دي مورلكيس، فقد تقدم لنا القول أن عمه أرسله إلى الرين عند عمته كي يبعده عن باريس، فاختصم وهو مسافر مع أحد الضباط، فتبارز معه وجرحه الضابط جرحًا خفيفًا قضى عليه بملازمة الفراش أسبوعًا.

وقد عرف القراء أن روكامبول أرسل ميلون إلى الرين كي يعود بأجينور إلى باريس، فذهب ميلون في اليوم الثاني لسفر أجينور.

وكانت القرية التي حدثت فيها تلك المبارزة قرية صغيرة، ومثل هذه المبارزة تحدث بين بارون وضابط تشتهر فيها اشتهارًا عظيمًا حتى تدور على جميع الألسن ويتحدث بها العموم.

ولما وصل ميلون إلى تلك المحطة سمع الناس يتحدثون ويذكرون اسم البارون دي موريليكس ويشرحون المبارزة، فعلم منهم أنه جريح وأنه مقيم في الفندق، فنزل حالًا من القطار وأسرع إلى ذلك الفندق.

وكان أجينور قد رآه مرة حين كان يقفو أثر مركبته مع أنطوانيت، فلما رآه انذهل فقال له ميلون: أعرفتني يا سيدي؟

– كلا، ولكني أذكر أني رأيتك أو رأيت رجلًا يشبهك فماذا تدعى؟

– إني أدعى يا سيدي ميلون.

وظهرت دلائل الفرح على وجه أجينور وقال: إنك ميلون مربي أنطوانيت؟

– أرى من ملامح عينيك أنك تحبها حبًّا أكيدًا.

– أهي التي أرسلتك إلي؟

– كلا، ولكني آت إليك من أجلها فقل بالله أتحبها حقيقة؟

– إني أحبها حبًّا بل أعبدها عبادة.

– وإذا كانت معرضة لخطر؟

– أنطوانيت معرضة لخطر، وأي خطر هذا؟

– خطر الموت يا سيدي.

وكان أجينور لا يزال ضعيفًا مما نزف من دمائه ولكنه حين سمع ميلون يذكر أن حبيبته معرضة لخطر الموت اشتد واضطرب وقال: أتكون أنطوانيت في مثل هذا الموقف وأقيم في فراشي؟ هلم بنا نعود إلى باريس فلا أطيق البقاء دقيقة هنا.

وخرج الاثنان من الفندق توًّا إلى المحطة، فأرسل ميلون إلى روكامبول هذا التلغراف بتوقيع مستعار:

إلى الماجور أفاتار

إننا مسافران إلى شارتر بالقطار نمرة ١٦، فنصل إليها في الساعة الحادية عشرة وأنا أنتظر الجواب في الشارتر كي أعلم أين يجب أن أذهب.

ديراند

ولم يفه ميلون بكلمة عن أنطوانيت في الطريق، ولكنه لما رأى أجينور يلح عليه بالكلام عنها قال له: أتعلم أن أنطوانيت من أسرة عظيمة؟

– نعم.

– وأنهم سرقوا ثروتها؟

– نعم، ولكني سأرد لها الثروة المسروقة.

– إنهم لم يكتفوا بسرقة ثروتها، بل إنهم يريدون سلب شرفها، بل سلب حياتها.

– قل لي بربك من هذا المجرم الأثيم؟

– لا أستطيع أن أبوح بحرف وسيخبرك الرئيس بكل شيء.

– أي رئيس هذا؟

– هو رجل يقدر على إجراء كل ما يريد، وهو الذي أنقذني من السجن وتولى حماية أنطوانيت ولا بد متى اجتمعت به أن تبلغا المراد من إنقاذها.

ولما وصل القطار إلى الشارتر أسرع ميلون إلى إدارة التلغراف فتلقى منها هذا التلغراف:

إلى المسيو ديراند المسافر بالقطار نمرة ١٦ «أنا في انتظارك في محطة باريس.»

أفاتار

وعاد ميلون إلى القطار وسار بهما إلى باريس، وكان أجينور مدة السفر في أشد حالة من الهياج؛ لأنه بات يحب أنطوانيت حبًّا شديدًا مبرحًا.

وقد زاد في غرامه موقف أنطوانيت الخطر وما اعترضه في سبيل حبها من العقبات، حتى بات يود أن يسفك في سبيل إنقاذها آخر نقطة من دمه.

ولما وصل القطار إلى محطة باريس أشار ميلون بيده إلى روكامبول الذي كان ينتظر في المحطة وقال لأجينور: هذا هو الرئيس.

فارتعش أجينور لأنه رأى أمامه الماجور أفاتار، وقد كان تعرف عليه في النادي فإنه من أعضائه.

أما روكامبول فإنه دنا منه وقال له بعد السلام عليه: لا يشغلك الآن أمري ولا تهتم أن تعرف من أنا وماذا أستطيع أن أصنع، فإن الوقت يضيق بي الآن عن إخبارك بحقيقة سيرتي، ولا يسعني أن أهتم إلا بأنطوانيت.

ثم ركب الثلاثة مركبة وقال روكامبول لميلون: أرشد السائق إلى منزلك فإننا ذاهبون إليه.

ولما وصلوا إلى منزل ميلون فتح روكامبول الصندوق الذي خبأته والدة أنطوانيت في القبو وأخرج منه رسائلها التي تفضح أخويها الفيكونت كارل والبارون دي موrليكس وعرضها على أجينور.

ولما أتم أجينور قراءتها تراجع إلى الوراء منذعرًا وسقطت الرسائل من يده لاضطرابه وجعل يقول: أيمكن أن يفعل أبي هذا المنكر؟

٣٣

وكان أجينور يحب أباه حبًّا بالغًا ويحترمه احترامًا شديدًا، فانقضت عليه هذه الرسائل انقضاض الصاعقة ذاتها، وكانت مكتوبة بخط البارونة ميلر، فعلم بعد قراءتها أن أنطوانيت ابنة عمته وأن أباه وعمه قد سرقا ثروتها وأن ذنبهما لم يكن قاصرًا على السرقة، فإن البارونة اعترفت في رسائلها أنها ماتت مسمومة وقد أثبت قولها كتاب بخط الدكتور فانسانت تحصل عليه روكامبول واطلع أجينور عليه.

ولما وقف أجينور على جميع هذه الجرائم ولم يعد لديه شك بآثام عمه وأبيه وقف وقد بدت عليه ملامح الأنفة، فقال لروكامبول: لا أريد الآن أن أعرف من أنت، ويكفيني أن تكون واقفًا على هذه الأسرار الهائلة فأطلعك على قصدي، فاعلم أني سأتزوج أنطوانيت وسأرد لها ثروتها.

فقال روكامبول بسكينة: أظن يا سيدي أن ميلون أخبرك عن اختطاف أنطوانيت.

– اختطاف أنطوانيت؟

– نعم إنها اختطفت ولكننا وقفنا على أثرها.

فكاد أجينور يفقد صوابه وجعل يقول: كيف اختطفت ومن الذي اختطفها؟

فقام روكامبول إلى خزانة فأخرج منها عدة أوراق وعرض على أجينور في البدء كتاب أبيه دي مورليكس إلى أنطوانيت، فقرأه أجينور وقال: إن هذا الكتاب زور وليس الخط خط أبي.

– نعم، ولكنك تذكر أن عمك ودعك في المحطة في الساعة نفسها التي اختطفت فيها أنطوانيت.

فأَنَّ أجينور أنين الموجع وقال: نعم، إنه أهل لكل شيء. ثم عرض عليه روكامبول نسخة من صورة الحكم على أنطوانيت، فما قرأها أجينور حتى طاش عقله، فغطى رأسه بيديه وقال: أمثل أنطوانيت تزج في السجن؟!

– إنهم ألقوها فيه مع السارقات الآثمات دون أن يردعهم رادع من ضمائرهم الأثيمة.

ثم عرض عليه رسالة تضمنت اعتراف تيميلون بجميع المكيدة اعترافًا تامًّا مفصلًا، فكانت النكبات تتوالى على فؤاد أجينور، وكأنما تواليها قد أعاد إليه رشده وهاله ثبوت الجرائم على عمه وأبيه ثبوتًا لا ينقض، فوثب من مكانه إلى الباب وقال: إني لا أقيم دقيقة في هذا المكان.

غير أن روكامبول أسرع فقبض عليه وقال له: إلى أين أنت ذاهب؟

– إلى سجن لازار.

– وماذا تصنع بهذا السجن؟

– إن أبوابه تفتح أمامي ومديره يسمع كلامي، والكنيسة تفتح أبوابها لي وتحتفل بعقد زواجي على أنطوانيت؛ إذ لا بد لي من إرضائها ترضية تناسب ما أصابها من الإهانة، بل أريد أن يعرف العالم بأسره أن البارون دي مورليكس تزوج امرأته في سانت لازار.

فابتسم روكامبول وقال: يسرني أن تبلغ منك الشهامة هذا الحد، غير أن مثل هذه الأفعال التي تريد الإقدام عليها لا تجري إلا في الروايات، ولو تأملت هنيهة لعلمت أن ذهابك إلى سجن سانت لازار يجعل بينك وبين أنطوانيت هوة عميقة، وأن الاصطلاحات العالمية لا تؤذن لك بالزواج بأنطوانيت حين ترسل بسببها أباك إلى المشنقة.

فانجلت الحقيقة بتمامها لأجينور وأدرك كنه موقفه الحرج وتجلت له تلك المشنقة كأنما هي ماثلة أمامه، فأدار في جوانب الغرفة نظرًا هائمًا وقد تولاه اليأس، فرأى على

طاولة مسدس روكامبول فأسرع إليه واختطفه، غير أن روكامبول كان أسرع في تجريده منه، فقال له: دعني أموت فلم يبق لي خير في الحياة بعد هذه المصائب.

– وأنطوانيت؟

فعاد أجينور إلى رشده حين ذكر اسمها وقال: رباه ماذا يجب أن أصنع؟

– يجب أن تصبر كي تقوى على قراءة كل شيء. ثم أطلعه على تلك الرسالة التي كتبها الفيكونت كارل إلى تيميلون، وهي التي قال له فيها: «يجب أن تموت أنطوانيت ابنة أختي في هذا المساء وإذا احتجت فاستعمل الخنجر أو السم.»

فضرب أجينور رأسه بيده ضربة شديدة وقال: أماتت أنطوانيت؟

– لا أعلم إذا كان السم قد وصل إلى السجن، إنما أرجوك أن تتبعني.

– إلى أين تريد أن أتبعك؟

– حيث ترى أنطوانيت.

– أرأيت إذن كيف يجب أن نذهب إلى سجن سانت لازار؟

– كلا إنها ليست بهذا السجن.

– إذن أين هي؟

– هلم معي تعلم.

ثم أخذه بيده ومسك ميلون بيده الأخرى وسارا لأنهما رأيا أن قواه قد تلاشت بحيث لم يعد يستطيع أن يمشي وحده.

وكان روكامبول قد أخذ مسدسيه من قبيل الاحتياط فوضعهما في جيبه وركب المركبة مع أجينور وميلون وقال للسائق: سر بنا إلى شارع مونتمارتر. وسارت بهم المركبة سيرًا حثيثًا حتى بلغت إلى منزل ريكولو، وهو المنزل الذي كبسته الجنود حين تفتيشها على روكامبول وعصابته، فنزل الجميع منها يتقدمهم روكامبول وطرق الباب، ففتح له ريكولو فدخل وتبعه أجينور وميلون.

وكان يوجد في المنزل حين دخولهم ثلاث نساء، وهن: فاندا الروسية، ومرتون وامرأة ريكولو، وكان باب الغرفة الثانية مقفلًا فجعل أجينور ينظر إلى أولئك النساء دون اكتراث ثم قال لروكامبول: أين أنطوانيت؟

– إنها قريبة من هنا.

– إنك لا تجسر أن تقول لي الحقيقة فإنها ماتت.

فلم يجبه روكامبول ولكنه ذهب إلى طاولة فأخذ عنها تلك الجريدة التي نشرت وفاة أنطوانيت في السجن وأطلعه عليها.

ولما تلا أجينور تلك المقالة لم يعد يشكك بموت أنطوانيت فخابت أمانيه واختل عقله، فجعل يتوسل إلى روكامبول ويسأله أن يعطيه مسدسه كي ينتحر.

فقال له روكامبول: مهلًا أيها الصديق فإن هذه الجريدة تدل على أن أنطوانيت ماتت وأن جثتها قد نقلت إلى مقبرة مونتمارتر التي لا يفصل بيننا وبينها غير حائط هذه الغرفة، إلا أنها لم تدفن بعد، بل إنها وضعت في قبو مؤقتًا إلى أن يتم بناء القبر الخاص، أفلا تريد أن تنظر التي تحبها نظرة الوداع؟

– نعم، نعم! أريد أن أودعها هذا الوداع، بل أودع نفسي على ذاك الضريح!

فأخذه روكامبول بيده وقال له: تعال معي.

ثم أشار إشارة خفية إلى ميلون وريكولو.

وسار روكامبول بأجينور إلى خارج المنزل فتبعه أجينور وهو واهي العزيمة منحط القوى، وميلون يمشي في أثرهما مطرق الرأس، وهو يخشى على أنطوانيت بقدر ما يثق بروكامبول.

وما زالوا سائرين حتى بلغوال إلى جدار متهدم في مقبرة مونتمارتر فولجوا منه يسترهم ظلام الليل، وكان يقودهم ريكولو في تلك الظلمات الحالكة ويسير بهم في دهاليز المقبرة بين الأموات، وكانت الدموع تنهل على وجه أجينور كما كان يتساقط المطر على سائر العصابة.

وما زالوا يسيرون حتى وصلوا إلى قبة مرتفعة تفصل المقبرة القديمة عن الجديدة، فقال أجينور لروكامبول: ألا تعطيني مسدسك حين نصل إليها؟

فقال روكامبول: لا شك أنك جننت وأن الحزن الشديد يدفعك إلى هذه الأقوال؟

– لا أنكر حزني وبأسي، وكنت أود لو ذهب صوابي غير أن عقلي لا يزال سليمًا لنكد طالعي.

– إن موت أنطوانيت خير لك ولها، وهو خير لها دون شك فإنها إذا عاشت تعيش ملطخة بذلك العار الذي وصمها به أبوك وعمك.

– إبي، نعم إن أبي الذي قتلها.

– كلا، فإن أباك ضعيف الإرادة وهو لم يرتكب تلك الجريمة إلا حين دفعه إليها عمك.

– لقد أصبت فإنه من أعظم رجال الكيد والشر، خلافًا لأبي فقد انطوى قلبه على السلام.

– ثم إنه لو عاشت أنطوانيت لوجب علي وعلى ميلون حمايتها ورد ثروتها والانتقام من أعدائها.

فصاح أجينور صيحة يأس وقال: أنا الذي سينتقم لها.

– أتنتقم لها من أبيك؟

– كلا، فإنك أنت نفسك تعترف معي أن أبي رجل ضعيف شريف، ولكني أنتقم من عمي فليس بين الشرائع الاصطلاحية ما يمنع القتال بين الرجل وابن أخيه، وسأقتل هذا العم الماكر بالسيف أو بالمسدس، إذ لا بد لي من قتله.

وفيما هم يتحدثون ويسيرون وقف ريكولو وقال: قد وصلنا.

فنظر روكامبول وأجينور وميلون فوجدوا أمامهم حفرة عميقة، وهي أشبه بهوة عميقة، فأنار ريكولو شمعة، فظهر لهم سلم ينزل بها إلى تلك الهوة فنزل أمامهم قائلًا لهم: اتبعوني.

ولما رأى ميلون تلك الحفرة جعل ينتحب ويقول: وا أسفاه إنها مائتة حقيقة.

فانتهره روكامبول وقال له: أعن البارون في النزول.

ثم نزل أمامهما في أثر ريكولو، وتبعه ميلون وهو يحمل أجينور كما يحملون الأطفال، حتى إذا بلغوا إلى أسفل الحفرة سار بهم ريكولو في منعطف انتهوا منه إلى سرداب طويل، كان على يمينه وعلى يساره كثير من التوابيت.

وكانت هذه الحفرة خاصة بالأموات الذين يوضعون فيها مؤقتًا إلى أن تبنى لهم المدافن الخاصة، وكان روكامبول عابس الوجه مقطب الحاجبين، وريكولو يبحث بشمعته عن نعش أنطوانيت حتى انتهى إلى نعش أبيض وقال: هذا هو.

فأفلت أجينور عند ذلك من ميلون وأسرع إلى ذلك النعش وفتحه وجعل ينادي: أنطوانيت، أنطوانيت، أنت امرأتي أمام الله أهناك ألقاك.

واختنق صوته وتفجرت الدموع من عينيه وعض كفيه من اليأس، ثم نظر إلى روكامبول وقال له: بالله أشفق علي واقتلني، أو دعني أموت بجانبها.

ولم يجبه روكامبول وأشار إلى ميلون بإبعاده عن النعش، فأبعده مكرهًا وهو لا يقِل اضطرابًا عن أجينور.

ثم أشار إشارة ثانية إلى ريكولو فدنا من النعش وكشف عنه الكفن، فظهرت من تحته أنطوانيت بملابس المسجونات في سجن سانت لازار.

فصاح أجينور صيحة مزعجة حين رأى وجهها ولكنه ما لبث أن تفرس فيه حتى قال: إن هيئتها لا تدل على الموت ومن يراها على هذه الحالة يحسب أنها نائمة.

وعند ذلك دنا منه روكامبول وأبعده عن النعش ونظر إليه النظرات التي تتكهرب لها الأجسام والتي بها دعي رئيسًا وقال له: وإذا صدق قولك ولم تكن أنطوانيت قد ماتت حقيقة؟

فاضطرب أجينور وقال: إنك ستذهب بصوابي.

– لا بأس وسأعيد عليك السؤال فأقول إذا كانت أنطوانيت لم تمت حقيقة وكان موتها الظاهر رقادًا بفعل شراب مخدر فماذا تصنع؟

– أتسألني ماذا أصنع، إني أتزوجها.

– وثروتها؟

– يجب أن ترد إليها.

– أتنتقم لأمها المقتولة؟

فصاح أجينور بصوت مختنق متهدج: ويلاه أأنتقم من أبي؟

– إن أنطوانيت قد تعفو عن أبيك.

– إذن سأقتل عمي.

– كلا، لست أنت الذي يتولى قتله.

– إذا لم أكن أنا قاتله فمن يقتله؟

– أنا.

– أواه أن جميع ما تقوله أحلام، فإن أنطوانيت مائتة.

ثم ركع قرب نعشها وعاد إلى البكاء.

– نعم إن الجرائد ودفاتر السجن سجلت وفاة تلك الفتاة التي تدعى أنطوانيت ابنة مرلوت، ولكن أنطوانيت دي ميلر ابنة عمك.

– تمم حديثك.

– إن أنطوانيت دي ميلر يمكنها الخروج من هذا النعش وهي تستطيع أن تفتح عينيها وتعيش وتضع يدها بيدك إذا كنت أريد.

فانصب العرق البارد من جبين ميلون، وسمعت دقات قلب ريكولو، وقال أجينور: وماذا يمنعك عن أن تريد؟

– لا أمتنع عن ذلك إلا إذا كنت تقاومني.

– كيف أقاومك وماذا تريد مني؟

– أريد بأن تقسم لي بشرفك أمام هذا النعش أنك تطيعني طاعة لا حد لها مهما طلبت إليك ومهما رأيت مني.

– أقسم لك بشرفي وبكل عزيز على الأرض ومقدس في السماء أني أكون لك أطوع من العبيد ما حييت إذا كنت ترد لي أنطوانيت.

– إذن سأردها لك ولكن ليس في هذا المكان، إذ لا يجمل أن تفيق فتجد نفسها بين الأموات.

ثم أمر ميلون أن يخرج أنطوانيت من النعش ويحملها، وأمر ريكولو أن يسير أمامهم، فتقدم ريكولو أمامهم بذلك السرداب الطويل المؤدي إلى منزل ريكولو، وتبعه ميلون يحمل أنطوانيت، وسار في أثرهما روكامبول وهو يتأبط ذراع أجينور، حتى بلغوا المنزل فوضعوا أنطوانيت على سرير امرأة ريكولو.

وأخذ روكامبول بيد أجينور وقال له: أصغ إلي الآن، لقد كان في وسعي أن أخرج أنطوانيت حية من السجن كما أخرجت فاندا ومرتون، وهما هاتان المرأتان اللتان تراهما أمامك، ولكني لم أرد ذلك إذ لا يجب أن يشك أحد بأن الفتاة التي ستغدو امرأتك كانت في السجن مع السارقات وبنات الهوى، ثم إنه لا أحب أن يستطيع هذا الخائن مطاردتها، وأريد به عمك الذي دنس اسم عائلتكم الشريف، والذي ستتنكره دون شك، بل إني أريد أن لا يبقى لديه شيء من الشك بوفاتها وأنها ماتت في سجن سانت لازار.

وقال أجينور: نعم، لقد أصبت ولكنك لا تزال تطمعني بحياتها وهي لا تزال دون حراك.

– إني سأرد لها الحياة.

فساد السكون بين الحاضرين حتى كادت تسمع دقات قلوبهم، وانقطعت مرتون عن البكاء وبرقت عيناها بأشعة الأمل.

أما روكامبول فإنه نظر إلى أجينور وقال: أصغ إلي إني لست طبيبًا ولا عالمًا، ولا دجالًا ولا ساحرًا، وإن حالة أنطوانيت الآن حالة من نام بتأثير مخدر.

وقد عرفت فيما مضى من أيامي طبيبًا هنديًّا يشتغل أشغالًا خاصة بالسموم، وكان لي معه مودة وصحبة، فتعلمت منه طرق التخدير وأخذت منه مخدرًا يجعل من يشربه على ما هي عليه أنطوانيت الآن.

وقد ابتلعت أنطوانيت حبة من هذا المخدر لا يزيد حجمها على حجم رأس الدبوس فسكنت دقات قلبها في الحال ووقفت دورتها الدموية، وبردت جثتها واصفرت بشرتها، حتى لم يعد يشك من يراها بأنها من الأموات، كما تراها الآن.

فصاح ميلون: بربك يا سيدي أسرع ورد إليها حياتها، فقَدْ فُقِدَ منا الصبر.

– اصبر إلى أن أتم حديثي.

ثم عاد إلى أجينور وقال: إن هذا المخدر الذي يميت هذا الموت الظاهري بمدة عشر ثوان لا يميت الموت الحقيقي إلا إذا مضى زمن طويل على شاربه، فإذا أُسقي ضده شُفي في الحال ورُدت إليه الحياة.

ثم أخرج من جيبه زجاجة صغيرة ومبضعًا، وكان في الزجاجة سائل أبيض، وقال: إن هذا السائل هو ترياق ذلك السم، وسأغمس به رأس هذا المبضع وأوخز ذراع الصبية، فتختلج على الفور ويعود قلبها إلى الاشتغال، ثم لا يمضي عليها دقيقة حتى تفتح عينيها وتعود إلى ما كانت عليه من العافية.

فصاح ميلون: أسرع يا مولاي.

والتف الجميع حول السرير ودنا روكامبول من الفتاة فشمر عن ذراعها ثم فض ختم الزجاجة وغمس المشراط بسائلها، وبحث عن عرق تجري به الدماء أكثر من سواه، فوخز العرق بالمشراط وجعل ينتظر.

وبعد دقيقة مرت بأولئك الصابرين مرورًا لم تتحرك أنطوانيت؛ فاصفر وجه روكامبول، ودق ميلون يدًا بيد وهو يقول: إنها لم تتحرك وقد قضي عليها.

وقال أجينور بلهجة الحزن الشديد: ألعلها ماتت؟

فاضطرب روكامبول اضطرابًا شديدًا وقال: رباه ألعلي انتظرت أكثر من المدة اللازمة؟

ثم جحظت عيناه وبدت على وجهه علائم اليأس.

وظل ينتظر ثلاث دقائق، فكان ريكولو ممسكًا بأجينور وميلون جاثيًا أمام أنطوانيت يبكي بدموع غزيرة ويقول بصوت مختنق: ماتت وا أسفاه.

وكان أجينور يرثيها بأشجى العبارات وقد حاول الإفلات من ريكولو والدنو منها.

فأوقفه روكامبول وعاود تجربته الأولى ولكنه وخز في هذه المرة ذراعها الأيمن، فعاد إلى الحضور بعض الأمل وجعلوا ينتظرون، فكانوا كلهم ينظرون إلى أنطوانيت ما خلا فاندا فإنها كانت تنظر إلى روكامبول تستطلع الحقيقة من عينيه.

ومضت دقيقة أيضًا وأنطوانيت لا تزال في غيبوبة الموت.

ولما رأى روكامبول أنه أخفق في سعيه أخذ من جيبه مسدسًا فأعطاه لأجينور وقال له: إني أسألك مهلة دقيقتين أيضًا فأجرب تجربة ثالثة فإذا لم تر بعدُ آثار الحياة تبدو على خطيبتك تكون قد ماتت موتًا لا ريب فيه، وعند ذلك فإني أتوسل إليك أن تقتلني قبل أن تقتل نفسك.

فأخذ أجينور المسدس دون أن يجيب حتى إن ميلون نفسه الذي كان يعبد روكامبول عبادة لم ينتزع المسدس منه.

ودنا روكامبول من أنطوانيت فكشف عن صدرها ووخزها مرة ثالثة ثم وضع إحدى يديه على قلبها وحمل باليد الثانية ساعته وجعل ينظر عقربها؛ فإن حياته كانت موقوفة على نجاح التجربة، أما فاندا فكانت لا تزال ناظرة إليه.

ورفع روكامبول يده عن قلب أنطوانيت ووضع أذنه عليه ثم رفع رأسه فجأة وصاح صيحة المنتصر: لقد ردت إليها الحياة فإني سمعت بأذني دقات قلبها.

وحدث عند ذلك ما يصعب وصفه من تأثر الحاضرين، فأخذ روكامبول أجينور وأدناه من أنطوانيت فوضع أذنه على صدرها وقال: وأنا أسمع أيضًا دقات قلبها.

ثم أقبلت بعده فاندا ومرتون وميلون وكل من حضر، وسمعوا جميعهم ما سمعه روكامبول فكان فرحهم لا يحيط به وصف.

ثم تراجعوا عنها وفتحوا النافذة التماسًا للهواء، فقال لهم روكامبول: لقد زال عنها الآن كل خطر، ولكن المخدر قد أثر بجسمها اللطيف تأثيرًا شديدًا فلو تأخرت ساعة عن إيقاظها لقضي عليها ولم ينفع الدواء، أما الآن فإن يقظتها لا ريب فيها.

فقال له أجينور: متى تفتح عينيها؟

– بعد ربع ساعة على الأقل، والآن فلا يجب أن نبقى هنا فلنخرج جميعنا ما عدا النساء.

ثم خرج أمامهم فتبعه الجميع، فلما توغلوا في الشارع لقي روكامبول تيميلون قادمًا إلى منزل العصابة فدعاه باسمه، وسمع أجينور هذا الاسم فقال: أهذا الذي كان يساعد عمي في أغراضه السافلة؟

– نعم، ولكني سحقته.

ودنا تيميلون من روكامبول وقال له بصوت يضطرب: لقد وفيت بوعدي يا حضرة الرئيس ألا تفي أنت بوعدك؟

– نعم فاذهب غدًا في الساعة السادسة صباحًا إلى المحطة تجد فيها جواني الجلاد.

– أهو يرشدني عن ابنتي؟

– كلا بل إنها ستكون معه وهو سيعطيك تذكرة سفر إلى لندرا لأنك ستسافر إليها.

– أتنفيني من باريس؟

– كلا ولكني أنصحك أن تنفي نفسك فإن البوليس يبحث عنك، وإذا بقيت في باريس إلى مساء غد قبض عليك.

– بأي تهمة يتهموني؟

– بسرقة مائة ألف فرنك من منزل الفيكونت كارل دي مورليكس، وهي التهمة التي كنت تريد أن تصمنا بها فقد كنت أشد منك دهاء، وأنا أنصحك الآن أن تهرب؛ فإن لدى البوليس برهانًا لا يدحض على أنك أنت السارق.

– أين وجد هذا البرهان؟

– وجد في منزلك، فإن تلك المحفظة المكتوب عليها اسم كارل التي وضعتها في منزل ريكولو كي تثبت علينا التهمة أخذتُها أنا ووضعتها في منزلك وأرشدت البوليس إليها فكبس البوليس منزلك وأخذ المحفظة.

فلما سمع تيميلون هذا البرهان الصريح صاح صيحة منكرة وهرب مُتَعَوِّذًا من مكر روكامبول.

وبعد ساعة عاد روكامبول وأجينور وميلون وريكولو إلى المنزل فأقاموا خارج الغرفة ينتظرون أن تصحو أنطوانيت.

فلم يطل وقوفهم حتى خرجت إليهم مرتون تقول بصوت يتهدج من الفرح: ادخلوا، ادخلوا فقد صحت من رقادها.

فدخلوا يتقدمهم أجينور وحاول أن يدنو من أنطوانيت فمنعته فاندا وأجلسته على كرسي بأمر روكامبول، وعند ذلك حركت أنطوانيت ذراعها وتمتمت شفتاها كلمات لا تفهم، فأسرع جميع الحاضرين إليها، فما مر بها دقيقة حتى جعلت تفسر كلامها وكان أول ما فاهت به قولها: أين أنا أفي الفردوس؟

فصاح ميلون يقول بملء الفرح: إني أسمع صوت أمها فهو هو بعينه.

وركع أجينور أمامها وجعل يقبل يديها ودموع السرور تسقط من عينيه عليها.

وعادت إلى قولها: أين أنا؟ أين أنا؟

ولكن عينيها كانتا مغلقتين فلم تستطع فتحهما.

وعادت إلى الكلام وقالت: نعم. نعم.

لقد ذكرت أني مائتة ولكني طاهرة لم أرتكب أثمًا فلا بد أن أكون الآن في السماء.

وجعل أجينور يناديها باسمها ويتلو عليها أعذب الألفاظ.

ففتحت عينيها فجأة ونظرت إلى أجينور أمامها فارتعدت وقالت: أهذا أنت؟

– نعم أيتها الحبيبة، فإن الفردوس هبط إلى الأرض.

فقال روكامبول: كلا بل إنَّ الفردوس هو الحب الشريف.

ثم تراجع جميعهم عن العاشقين ولم تكن أنطوانيت تسمع غير حديث حبيبها أجينور.


هنداوي